أحمد رجب

أي كلام



دار الشروق

أي كلام

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٠١٠/١١١٢٧
ISBN 978-977-09-2863-3

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

أحمد رجب

أي كلام

دار الشروق

المحتويات

أي كلام.. وصورة من قريب؟

يمكن أن تضبط ساعتك عند ظهور سيارته أمام المبنى القديم لدار أخبار اليوم.

بالضبط.. تمام العاشرة ينزل من مقعده الأمامي، المجاور للسائق، ثم يمضي مباشرة إلى المدخل، إلى المصعد، إلى الحجرة رقم ٥٣ التي يقول إنه قضى نصف عمره بها، لا يلتفت يمنة أو يسرة. وإذا ما التقى به شخص ما. فإنه يتحاور معه بسرعة.. يجيب إجابات مقتضبة. وكأنه يعلن عن رغبته في الانفراد.

إذ يدخل الحجرة التي تقع في الطابق الثالث. حيث مكاتب مجلة آخر ساعة. وقسم التصوير. والمكتبة. والأرشيف. طابق يضج بالحركة. ومع ذلك يتوارى خلف باب هذه الغرفة التي لا يمكن أن تدخل إليها مباشرة. إلا بعد اجتياز ممر قصير في نهايته دورة مياه خاصة.. وإلى يمين الداخل باب يؤدي إلى الغرفة مباشرة. مرتفعة الجدران، مغلقة تماما، يضيئها نور خافت، غير مباشر. مجرد مكتب، ومكتبة ومقعدين في مواجهة المكتب مباشرة. ومذياع وجهاز تسجيل تنبعث منه طوال النهار موسيقى كلاسيك يفضلها.

بمجرد دخوله. يتقدم ليغلق الباب الخارجي بالمفتاح.

هكذا تبدأ عزلة أحمد رجب اليومية. لا يرد على الهاتف لا يستقبل أحدا إلا فيما ندر، وبموعد سابق.

لا أعرف كيف يمضي أحمد رجب وقته الذي يقع بين دخوله المكتب في العاشرة صباحا. وحتى انصرافه في الثانية والنصف. لا أدري كيف يفكر ويكتب في هذه الغرفة المغلقة عليه من الخارج. لا أدري من أي منابع خفية تستعصي على المتابع تتفجر هذه الطاقة الساخرة، النادرة وتعبر عن نفسها في أربعة محاور يوميا، وباستمرار ورغم أية ظروف معوقة أو طارئة تبرز على صفحات جريدة الأخبار. لتبعث وتفجر الابتسامة من أغوار القلوب. واستثارة الإحساس الساخر من الشعب المصري أمر في حاجة إلى طاقة خارقة. لأن المصريين بطبعهم يتمتعون بحس نادر من السخرية والقدرة على توليد الفكاهة واللماحية. وفي تقديري أن تاريخهم العريق، الطويل، ومعاناتهم الطويلة، أكسبتهم هذه القدرة.

يوميا. وعلى صفحات الأخبار. يقدم أحمد رجب أربع لقطات -إن جاز التعبير- ساخرة. أولاها في الصفحة الأولى. مطرب الأخبار هذه الشخصية النادرة الغريبة التي استوحاها أحمد رجب من واقعنا المعاصر جدا.

وهذه الشخصيات التي تطل علينا من خلال الرسم اليومي للفنان مصطفى حسين. كمبورة. جنجح، عزيز بيه الأليت، الكومندا، وغيرهم من الشخصيات التي أضافها أحمد رجب إلى واقعنا اليومي، فكأنهم يسعون بيننا من لحم ودم. وثالثا، هذا المحور الذي يتناوله أحمد

رجب باستمرار في كتاباته والذي يدور حول العلاقة بين الرجل والمرأة. ويظهر على مستويين، الأول يومي في هذا الرسم الصغير في الصفحة الأخيرة الذي ينشر تحت عنوان ثابت هو، الحب هو، وفي ذلك المقال الأسبوعي الذي يكتبه في أخبار اليوم.

أما المحور اليومي الرابع، فكلمته المركزة جدا، والتي ينشرها تحت عنوان «نصف كلمة» تحوي نقدا اجتماعيا أو سياسيا لاذعا. كل ما عرفته عما يجري داخل الغرفة ٥٣، أثناء وحدته، أن السطور الأربعة أو الخمسة التي يكتبها يوميا يعاني في صياغتها وكتابتها معاناة شديدة. إذ يمزق ما يكتبه عدة مرات. وخلال اتصالي به من أجل إخراج هذا الكتاب اكتشفت مدى الحذر الذي يصل إلى حد الخوف الشديد من القارئ. أو لنقل بمعنى آخر الحرص على احترام القارئ.

يقدم أحمد رجب أعماله بتواضع شديد، ويعيد صياغتها أكثر من مرة.

يوميا. يجتمع بالفنان مصطفى حسين، حيث يمده أحمد رجب بأفكار الرسوم اليومية الثلاثة، وتلك علاقة نادرة في تاريخ العمل الفني والصحفي وأظن أن الذي مهد لها هو المرحوم علي أمين. هكذا جمع بين عبقرية أحمد رجب الساخرة. وموهبة مصطفى حسين النادرة.

أحمد رجب كما عرفته مثقف كبير، قارئ جاد للأعمال الأدبية، متابع دقيق لأحدث ما ظهر من نتاج فكري وأدبي. يكن احتراما عميقا للموهبة الحقيقية ويعمل على دعمها، ينحاز إلى الأجمل،

إلى الأصدق. مؤمن تماما بحرية التعبير، والتفكير. وفيٌّ إلى حد نادر لأساتذته وأصدقائه. رأيت ذلك في علاقته بمصطفى أمين.

سخريته فيها تأمل وعمق وحزن تستمد مقوماتها من روح ساخرة، وموهبة نادرة، وثقافة عريضة، واستناد إلى تراث طويل، طويل للشعب المصري، تراث يجعل الإنسان المصري أسيان في ذروة فرحه، فإذا ضحك طويلا، أو من القلب، يتوقف على الفور ويقول: «اللهم اجعله خيرا».

لقد اختار أحمد رجب لكتابه هذا عنوانا غريبا. «أي كلام»، وهذا العنوان بقدر ما فيه من سخرية، بقدر ما فيه من أسى خفيف، فالحقيقة أن الكتاب ليس أي كلام، ولكنه كلام في المليان جدا، في حياتنا اليومية، في الصحافة، في الثقافة. في علاقة الرجل والمرأة، هذا ما تحويه الصفحات التالية، شذرات تبدو ولكنها في الحقيقة تتضمن رؤية متكاملة، رؤية ساخرة نفاذة.

ومعذرة لهذه السطور ذات الدم الثقيل، التي نقدم بها أحدث ما كتب الساخر العظيم، أحمد رجب.

جمال الغيطاني

أبو زيد..
السلاح السري لعلي أمين

في الخمسينيات. فصلني علي أمين عشرات المرات. وأنزلني من نائب رئيس تحرير إلى محرر عشرات المرات.. وعشرات المرات أصدر قرارا بنقلي بوابا لأخبار اليوم على أن يحل محلي أبو زيد البواب نائبا لرئيس التحرير!

وقد كان أبو زيد هو الإنسان السوبر مان الذي صنعه علي أمين.. ولم نكن نعرف مواهب هذا السوبر مان الأبو زيدي إلا في خلال ثورات علي أمين من أجل الأكمل والأفضل. فإذا لم يعجبه توضيب صفحة قال لسكرتير التحرير: أنا أجيب أبو زيد يوضب بدالك، وإذا أفلت خبر من مخبر: أنا أجيب أبو زيد يشتغل مخبر بدالك. وإذا لم تعجبه صورة: أنا أجيب أبو زيد يصور بدالك. وإذا توقفت المكنة أثناء الطبع وتأخر المهندس دقائق في إدارتها: أنا أجيب أبو زيد يدورها بدالك.

وشخط فيّ مصطفى أمين

وعندما انضم إلى أسرة أخبار اليوم رسام يعمل مع علي أمين

لأول مرة لم يكن يعرف أن شخطات علي أمين ـ من أجل الأكمل والأجمل ـ كلها فشنك في فشنك. ولا بد أن تعقبها ابتسامة طفولية ولا كأن حاجة حصلت فلما عرض الرسام رسم وتوضيب قصة العدد على علي أمين.. أعجبه الرسم ولكنه اعترض على طبع جزء من كلام القصة فوق جزء من أرضية الرسم الزرقاء. لأن الحروف عادة لا تظهر فوق اللون بوضوح مما يتعب نظر القارئ. لكن الرسام بدأ يناقش علي أمين في مبدأ مهم من المبادئ التي أرساها علي أمين في توضيب المجلات، فصاح في الرسام: ده توضيب عصر أفندينا. اسمع أنا أجيب أبو زيد يرسم بدالك!

ووجدت الرسام ينتظرني في مكتبي ليخبرني أن علي أمين طلب أن يرسم أبو زيد رسوم القصة. فلما فهَّمته أن أبو زيد بواب أخبار اليوم وليس رساما في الدار كما يظن. غضب الرسام الشاب وذهب يشكو علي أمين إلى مصطفى أمين. فقال له مصطفى أمين:

ما تزعلش، تتصور إن علي أمين لسه شاخط فيَّ حالا وقاللي أنا أجيب أبو زيد أعمله توأم بدالك.

واصطحب مصطفى أمين الرسام إلى مكتب علي أمين. وما إن رآه بالباب حتى نهض من مكتبه واتجه نحوه يصالحه ويطبطب عليه. وبينما كان علي أمين يدعو الرسام على واحد ليمون يروق دمه من حكاية أبو زيد اللي بيرسم أحسن منه. استدعاني ليرى صورة الغلاف التي اخترتها للعدد الجديد. فنظر إلى الصورة وقد لاح عليه الغضب ثم أقبل نحوي يندد بذوقي المتخلف في اختيار صورة الغلاف. وانخلع قلب الرسام الشاب. فوضع كوب الليمون

وهرب من المكتب لأنه غير متمرس على هذه المواقف الفشنكية. بينما أمسك علي أمين بالصورة مؤكدا أن صاحبة هذه الصورة هربانة من التجنيد وأن أبو زيد البواب أجمل منها، ثم أصدر قراره قائلا: شيلها من على الغلاف وحط صورة أبو زيد بدالها!

السوبر مان في السينما

هكذا تعاظم شأن السوبر مان الأبو زيدي فاكتمل له الجمال بعد الكمال بقرار من علي أمين! ولم يكن يدهشنا أن أبو زيد كان يبدي رأيه فيما لا يعجبه من كتاباتنا وهو يمط شفتيه في قرف شديد، بل كان يدهشنا حقا أنه كان يستوقف علي أمين نفسه ـ صاحب الدار ـ عند البوابة ليعبر له عن رأيه فيما يكتبه. أحيانا بالإعجاب وحينا بالنقد، وكان يحيرنا فعلا أن علي أمين كان ينصت إليه باهتمام إذا انتقد، وذلك رغم الألفاظ الدبش التي يستعملها أبو زيد وكان شيئا له العجب أن يتحلى علي أمين بالهدوء الشديد وهو يحاول أن يتفهم وجهة نظر أبو زيد. وقد عزونا هدوء علي أمين إلى أنه ليس هناك أبو زيد آخر يهدد به أبو زيد بعبارته المأثورة: أنا أجيب أبو زيد يقف في البوابة بدالك!

لكننا ذات يوم عرفنا السبب. فقد اقترح علي أمين على أنيس منصور أن يصحب معه أبو زيد إلى السينما. وأن يسجل تعليقات أبو زيد على فيلم «بنات اليوم» وفيلم «لواحظ»، وعرفنا أن علي أمين ينظر إلى أبو زيد باعتباره «رجل الشارع» الذي من حقه أن نستمع إلى وجهة نظره في صحافة وسينما وإذاعة بلاده. وبالفعل جاءت

التعليقات التي سجلها أنيس بلسان أبو زيد ذكية ورائعة ولماحة. تعكس ما في أعماق الإنسان المصري البسيط من حضارة لسبعة آلاف سنة.

الواد الحليوة

ثم حدث ما جعل علي أمين يكف عن تهديدي بأبو زيد أو على الأصح يقلل من حدته. إذ أرسلت إليه مذكرة عن تأخر الأقسام الفنية في إعداد غلاف العدد الجديد ومع المذكرة صورة الغلاف الملونة من تصوير أحمد يوسف. ونظر علي أمين إلى صورة الغلاف. فإذا بها صورة أبو زيد وعليها تعليق:أبو زيد معبود النساء. اقرأ ص٢٦!

وضحك علي أمين واعتبرها نكتة، ورفع سماعة التليفون ليتصل بي، لكنني كنت في مكتب آخر أتصل بعلي أمين منتحلا شخصية رئيس الأقسام الفنية ومقلدا صوته، وقلت لعلي أمين: أحمد رجب كتب فينا مذكرة وده غير صحيح يا فندم لأن غلاف أبو زيد جاهز!

وسمعت صوت قذيفة رهيبة هي هبدة يد علي أمين فوق المكتب متسائلا في استنكار: غلاف مين؟؟ فأكدت له في هدوء أنه غلاف أبو زيد وأن أحمد رجب قال إن علي أمين لم تعجبه صورة فتاة الغلاف وأمر بوضع صورة أبو زيد على الغلاف.

وتوالت قذائف علي أمين فوق المكتب وصوته يهدد معلنا لرئيس الأقسام الفنية ـ الذي هو أنا ـ أنه سيودعه مع أحمد رجب مستشفى الأمراض العقلية، فعدت أقول ببرود شديد وهدوء أشد إنه ليس هناك أي وقت لعمل غلاف جديد.. ويمشي المرة دي يا فندم غلاف

أبو زيد.. والله يا فندم أبو زيد طالع شكله لطيف وحلو ولا روبرت تايلور.

عند هذا الحد سمعت علي أمين يضع السماعة بعنف، وبعد قليل علمت أنه يقتحم الأقسام الفنية بحثا عن رئيسها المجنون، فأسرعت أغادر الدار إلى بيت علي أمين، إذ كنت مدعوا على الغداء معه!

مرفود ×١٠٠ مرة

وعلى مائدة الغداء أنذرني علي أمين بأنه سوف يفصلني من العمل في الساعة السادسة والنصف مساء اليوم! فإن أحد أصدقائه الحميمين من الأدباء القدامى كان قد كتب مقالا في ٢٥ صفحة فولسكاب. وأعطاني علي أمين المقالة وطلب منى أن أختصرها في خمس ورقات فعلي أمين لا يستطيع أن يدوس الفن الصحفي الذي علمه لنا: «احترم وقت القارئ: اكتب باختصار وتركيز، لا وقت عند القارئ لِلَّتْ والعجن: هناك أدوات حضارية تنافسك كالراديو مثلا فكن على مستوى المنافسة عندما كنت تكتب. اكتب باختصار وكأنك تكتب برقية ستدفع عن كل كلمة فيها قرشا».

وكما لا يستطيع علي أمين أن يدوس الفن الصحفي من أجل صديقه. فهو لا يستطيع أيضا أن يغضب صديقه الذي يعيش في تقاليد الصحافة القديمة عندما كان يحتل مقال الكاتب صفحة كاملة في الجريدة!.. لهذا عندما اتصل به صديقه بعد النشر معاتبا على نشر المقال مختصرا.وعده علي أمين بإجراء تحقيق لمعرفة الفاعل

المجرم! وعادة في مثل الأحوال يسفر التحقيق ـ الذي لا يحدث أبدا طبعا ـ عن إنني الفاعل الأوحد!

فلقد نشر كاتب معروف مقالا بغير توقيعه. فاستدعاني علي أمين أمام الضيف الذي جاء يحتج على المقال، وقال لي: إنت مرفود!

ونشر خبر في جريدة أخبار اليوم التي لم أعمل بها أبدا. فاستدعاني علي أمين وقال لي أمام ضيفه الجالس: إنت مرفود!

وذات مرة استدعاني فجأة لأجد عنده ضيفا ضخم الجثة واضح جدا أنه مصارع. وطلب مني علي أمين أن أكتب تكذيبا للخبر الذي لا أعرف عنه شيئا والذي أنا بريء منه بطبيعة الحال. وإذا بالضيف يحتد عليَّ فجأة وأصبح على وشك استعمال عضلاته فنهره علي أمين بأدب وأنهى المشكلة بفصلي من العمل وبدون مكافأة! المهم أنني بعد ذلك لمحت هذا الضيف المارد في أحد الأندية مرتديا بدلة التدريب. وما إن لمحني من بعيد حتى استشعرت الخطر الرهيب فجريت خارجا من النادي وظللت أعدو حتى تقطعت أنفاسي ولم ينقذني إلا القفز في أحد الأوتوبيسات! ولقد تكرر رفدي بعد ذلك عشرات المرات. واليوم سأفصل في الساعة السادسة والنصف مساء!

لكنني يومها بالذات ـ اشترطت على علي أمين أن أمثل دور المفصول بشرط أن يعطيني الأمل ـ مجرد الأمل ـ في أنه سيعطيني إجازة ولو لبضعة أيام. فإنني لم أحصل على يوم واحد إجازة من سنتين وأعمل معه ١٨ ساعة في اليوم حتى «انهديت» ولم تعد طاقتي ـ وأنا في الخامسة والعشرين ـ تستطيع اللحاق بطاقته الخرافية في العمل! كنت بعد أن أنتهي من عملي معه في المجلة أعمل معه في

مشروعات التجديدات الصحفية التي لا تنتهي. وكان يفرد الماكيتات أمامه ويندمج في العمل لدرجة أن جرس التليفون رن بجواره مرة.. قال وهو منهمك في العمل دون أن يرفع سماعة التليفون: آلو.. مين؟؟

ثم قلبها جد

وجاء صديقه الحميم في السادسة والنصف. واستدعاني علي أمين. واشتغلت القذائف وضربات يده على المكتب. كيف أجرؤ وأختصر المقالة؟! كيف أتطاول وأجري بقلمي فيها شطبا وحذفا؟! ثم هبد يده الهبدة الختامية مع العبارة المأثورة: إنت مرفود!

وفوجئ صديقه الأديب.. وراح يرجو علي أمين تخيف العقوبة وبلاش قطع العيش. ولكن علي أمين صمم.. وانصرف الرجل وهو مستاء من هذه المصيبة التي حطت على دماغي. والمهم أنه بعد انصراف الرجل سألني علي أمين: إنت اختصرت مقالته في كام ورقة؟ قلت له: سبع ورقات. وهنا ثار بحق وحقيق ضاربًا المكتب بيده. لكن أنا قلت في خمس ورقات. أنا أجيب أبو زيد يختصر بدالك!

البشرى العظيمة

ثم جاء علي أمين يزف إليَّ بشرى سعيدة. فعلا أنا مرهق ولا بد أن أستمتع بحياتي. لقد أعد لي مفاجأة وسوف يمتعني بحياتي فعلا!

وانجلت المفاجأة السعيدة عن أنه اصطحبني إلى النادي الأهلي

لنتغدى ثم فسحني على النيل من كوبري الجلاء إلى كوبري عباس إلى كوبري الملك الصالح وبالعكس. وبقي أن تعرف أن الجو يومها كان خماسينيا أصفر رسيب التراب!

وانتقاما من علي أمين كتبت في مجلة «أخبار الدار» التي كانت تصدر داخل الدار مقالا بعنوان. «علي أمين متعني بالحياة» وقلت فيه.

قلت لعلي أمين: أقترح أن نعود إلى الدار فالجو خماسيني.

فرد علي أمين: ألا ترى زرقة السماء الصافية؟!

قلت له: بذمتك شايفها كده؟!

قال: طبعا..

قلت له: طيب نتمتع بالحياة في يوم غير ده.

قال علي أمين: ألا تحس بنسمة الربيع الباردة الحلوة؟!

قلت له: فين دي؟!

قال: ألا تشم عبير الجو الربيعي الساحر؟!

قلت له: أنا لا أشم إلا ترابا أصفر.

قال علي أمين: مسكين. أنت بائس لأنك لا ترى حلاوة الدنيا!

ثم رفع علي أمين رأسه إلى السماء وقال:

يا رب: امنحه القدرة على أن يرى حلاوة الدنيا: ارفع من على عينيه نظارة الخماسين الصفراء وضع بدلا منها نظارة الربيع الزرقاء!

يا رب: أصبه بزكام حتى لا يشم ما في الجو من تراب. واجعله

يتخيل أن مناخيره مزروعة بزهور الكريزانتيم والجلاديول والورد والريحان حتى يحس بحلاوة الدنيا في الربيع!

يا رب: ارفع درجة حرارته إلى أربعين وشرطتين حتى يرتعش ويشعر أن هذا الهواء الخماسيني الساخن هو نسمات الربيع المنعشة. املأ قلبه بالتسامح مع الطبيعة حتى يتصور أن هذا التراب الذي يملأ فمه هو سكر بودرة.

يا رب: هذا دعائي لك من أجل عبدك البائس أحمد رجب الذي لا يرى حلاوة الدنيا في الخماسين!

* * *

الغرفة ٥٣

قضيت نصف عمري في الغرفة ٥٣ بمبنى أخبار اليوم! والغرفة ٥٣ غرفة تاريخية. فأول من اتخذها مكتبا هو توفيق الحكيم ثم كامل الشناوي. ثم جلال الحمامصي. ثم موسى صبري. ثم أنيس منصور ثم سعيد سنبل ثم كاتب هذه السطور!

وقد اشتهرت هذه الغرفة بأن من يقيم فيها لا بد أن يغادر دار أخبار اليوم. إما للعمل الصحفي في دار أخرى أو إلى بيته ليستريح في إجازة مفتوحة. وكان تعبير إجازة مفتوحة في تلك الأيام هو اسم الدلع للفصل من العمل.

فقد ترك توفيق الحكيم الغرفة ليعمل مديرا لدار الكتب، وخرج منها جلال الحمامصي ليؤسس وكالة أنباء الشرق الأوسط، وغادرها كامل الشناوي ليرأس تحرير الجمهورية، وجلس فيها موسى صبري فتم منعه من الكتابة مع إجازة مفتوحة. ثم صدرت الأوامر بنقله إلى الجمهورية.. ثم دخل أنيس منصور الغرفة ٥٣ وخرج منها في إجازة مفتوحة أيضا. والإجازة المفتوحة ـ كما عرفناها يومئذ ـ كانت بلا مرتب أو معاش أو مكافأة، وذلك طبقا للأوامر الصادرة من السلطات

العليا، فكان مصطفى أمين يدفع سرا مرتب صاحب الإجازة من جيبه الخاص حتى بعد تأميم أخبار اليوم!

وجاء الدور على سعيد سنبل ليدخل الغرفة ٥٣ ورفض بشدة في البداية. ولكن علي أمين الذي اشتهر بالقدرة على أن يعدي كل من حوله بالتفاؤل استطاع أن يقنع سعيد بالإقامة فيها. فدخل يتفحصها كأنما يريد أن يستجلي سرها. وهداه تفكيره إلى أن يغير وضع المكتب فنقله من الحائط الشرقي في المواجهة للباب إلى الحائط الغربي المجاور للباب لعل ذلك يكسر نحس الغرفة!

وبقي سعيد سنبل في أخبار اليوم.

وفي منتصف الستينيات جاء دوري لأقيم في الغرفة ٥٣.

ورغم معرفتي بتاريخ الغرفة إلا أن عملي الدائم مع علي أمين علمني التفاؤل. بل لقد وصل تفاؤلي إلى أنني قررت إعادة المكتب إلى الوضع القديم. وجاء عمال الكهرباء والتليفونات ونقلوا الأسلاك من الحائط الغربي إلى الحائط الشرقي كما كان!

ومر يومان. وذهبت لأقبض مرتبي فلم أجد اسمي في كشف المرتبات. وسألت صراف الخزانة عن السبب فمط شفتيه علامة أنه لا يعلم. وهز مدير الحسابات كتفيه علامة أنه لا يدري. وحرك موظف المستخدمين كفيه يمنة ويسرة علامة أنه لا يفهم. وكان حديث الثلاثة بالإشارة معي دليلا على أن بركة الغرفة ٥٣ قد حلت على رأسي وأنني أصبحت من المغضوب عليهم. وأن الكلام معي باللسان مكروه شرعا!

وبدأت أبحث عن حكام أخبار اليوم في ذلك الزمان ولم أجد الضابط الصغير الذي فوضه الضابط الكبير في حكم أخبار اليوم نيابة عنه بوصفه سكرتيره. وبحثت عن الصول سكرتير الضابط الصغير الذي يتولى تصريف الأمور نيابة عنه فهو غير موجود أيضا. وبحثت عن الشاويش ضرغام سكرتير حضرة الصول الذي يحكم في غيابه فقيل إنه يضيء اللمبة الحمراء. وبحثت عن العسكري أبو اليزيد سكرتير الشاويش ضرغام فقالوا لي إنه في صالة تحرير الأخبار يراجع المانشتات التي كتبها مصطفى أمين!

وإيمانا بنظرية سعيد سنبل. بدأت أغير من وضع المكتب لتكون النافذة من خلفي. وما إن استقر المكتب في وضعه الجديد حتى دق جرس التليفون ليبلغوني أن اسمي سقط سهوا من كشف المرتبات وعاد موظفو الإدارة يتحدثون معي باللسان بدلا من لغة الإشارة علامة أني غير مغضوب عليه والحمد لله.

وبقيت في الغرفة ٥٣ وظل أول ساكن للغرفة توفيق الحكيم يذكرني في كل كتاب جديد يهديه إليَّ أنني أجلس في غرفته العزيزة كما كان يصفها دائما، كأنما يطلب أن أصونها وأحرص عليها. وكانت آخر الكتب التي تلقيتها من عملاق الفن والفكر كتاب «يقظة الفكر» الذي يقول في مقدمته: لا أريد من كتابي أن يريح القارئ. أريد أن يطوي القارئ كتابي فتبدأ متاعبه. إن مهمتي هي تحريك الرؤوس.

وقد حرك توفيق الحكيم رأسي وأنا أحملق في أجواء الغرفة ٥٣ وأتساءل: كيف لم أحظ من هذه الغرفة بإشعاعات الفكر والفن التي تركها توفيق الحكيم في هذا المكان فأفكر مثله وأبدع مثله!

وتبين لي أن السبب هو أنني غيرت مكتبي من الغرفة حيث كان يجلس توفيق الحكيم ونقلته إلى الجانب الآخر حيث كان مربط حمار الحكيم.

* * *

التميمة

في ڤاترينة زجاجية ببيت أحد الأصدقاء وجدت ثوبا نسائيا في حجم إصبع اليد ـ منياتور ـ موضوعا على مانيكان خشبي بنفس الحجم!

ولا أعرف لماذا استهواني هذا الثوب الحريري. ولا أعرف أيضا لماذا تفضلت بأخذه فورا عندما قال لي الصديق: تفضل!

ومنذ أن استقر هذا الفستان في جيبي تغيرت حياتي تماما: أعطاني مصطفى أمين علاوة ضخمة. وأصبح علي أمين يسخو عليَّ بالمكافآت كلما أعجبه عدد من مجلة ـ الجيل، وبالصدفة أصبح كل عدد يعجبه جدا ـ وهو الذي كان لا يعجبه إلا الكمال ـ والكمال لله وحده.

ولم أنتبه في البداية لهذا الدور الذي يلعبه ذلك الثوب النسائي حتى انهالت العقود السينمائية لكتابة السيناريو والحوار وانهالت معها الفلوس.. وصدر لي أول كتاب ـ وكان في سلسلة كتاب اليوم ـ حقق أرقامًا ضخمة في التوزيع أفزعت مدير عام المؤسسة الذي أراد «استكرادي» فوقع معي عقدا بأن يكون أجري حسب النسخ التي يتم توزيعها وليس أجرا قطعيا كما يعامل بقية المؤلفين!

وعلى المستوى العاطفي. كفت الفتاة التي كنت أحبها عن الخناقات والغيرة والهجر والخصام وأصبحت ظريفة لطيفة مطيعة تقوم بدور العاشقة الولهانة وأقوم أنا بدور سي السيد!

وأصبح الثوب النسائي الحريري ـ الذي لا أعرف سره العجيب يحتل مكانا أمينا في محفظتي، وأطمئن كل ساعة على وجوده!

وشكت لي مرة سعاد حسني أن بعض المنتجين لا يدفع بقية أجرها عن أفلام انتهت منها. وحدثتها عن الثوب النسائي الذي أحمله وعن سره الباتع. وبمنتهى الشهامة أعرته لها لمدة يومين. فطرق المنتجون بابها ـ وكأنهم على اتفاق ـ ليدفعوا لها بقايا أجورها!

وحدثني عبد الحليم حافظ في التليفون: سلفني الفستان «الزغنن» اللي معاك عايزه ضروري. وغاب الثوب النسائي ثلاثة أيام عند حليم ثم طلب أن يكون معه ثلاثة أيام أخرى. وجاء بعدها عبد الحليم ليحتضنني ويقبلني شاكرا ممتنا والسعادة ترقص فوق ملامحه!

ولا أعرف للآن ماذا فعل الثوب النسائي لحليم!

وسمع المنتج حلمي رفلة بخبر الفستان المعجزة وألح في طلبه لأنه مديون في السوق ويود أن يسدد ديونه. وبقي الفستان مع حلمي رفلة أسبوعا وكان الأسبوع كافيا لتسديد ديونه!

وأعرته لصديق عزيز كان يمر بأزمة نفسية وما إن حمل الثوب حتى صدر في اليوم الثالث ما فك أزمته. تعيينه رئيسا لهيئة كبرى.

واستعارته مني صديقة عزيزة ولم أكن أعرف أنها تريد أن يكون هذا الفستان العجيب معها في أمريكا حيث قررت الهجرة إلى هناك.

وهكذا فقدت التميمة الساحرة وتبدل ـ بعد فقدها ـ حالي. أصبح علي أمين يقلب كل عدد جديد من المجلة وهو يصيح غاضبا: أنا أجيب أبو زيد يطلع المجلة بدالك!

وجف نهر الفلوس. وأدبرت الدنيا بعد إقبال!

ولأول مرة بدأت أتفاءل وأتشاءم بالأشياء. قلم حبر. كرافتة معينة. حذاء محدد. وذات يوم شعرت ببرودة شديدة تسري في ساقي اليمنى لأكتشف أن الحذاء الذي أتفاءل به أصبح له ثقب في حجم المئة فلس!

والتفاؤل والتشاؤم أو التطير من النزعات الفطرية التي تسيطر على الأفراد والجماعات، وقد أوحى إلينا الأوربيون مثلا بالتشاؤم من رقم ١٣ بينما لم ننجح نحن في أن نوحي إليهم بأن البومة طائر كريه لأنهم يتفاءلون بالبومة ويعتبرونها رمز الحكمة. وفي بعض جزر الباسيفيك يعتبرون ظهور قوس قزح كارثة كبرى. ويرى الإنجليز أن القط الأسود يجلب الحظ. ويعتقد بعض الناس أنه إذا رأى هلال أول الشهر العربي من الجانب الأيمن فالمولود سيكون عظيم الذكاء. وإذا رآه من الجانب الأيسر فالمولود سيكون مؤلف مسلسلات!

* * *

الأصل والصورة

من سنين. استقبلوني بترحاب في أحد المطارات العربية، واندهشت بشدة لهذه الأهمية التي أحاطوني بها منذ اللحظة التي أمسك فيها الضابط بجواز سفري، ولم تطل دهشتي، فقد صحبوني إلى غرفة بالمطار، واتضح ـ دون أن أدري ـ أن اسمي كرابيت كركوريان وأنني عميل إسرائيلي أتقن التنكر وتغيير مظهري وجوازات سفري، وآخر تغيير حدث لي هو أنني غيرت لون شعري الكستنائي وأزلت شاربي!

وصحيح أن إثبات شخصيتي استغرق بعض الوقت. لكنه طال وكأنه دهر. وتلمست العذر حقا لرجال الأمن في المطار عندما أبرزوا لي صورة كرابيت كركوريان ـ أو جرجوريان لا أذكر ـ فقد ذهلت وأنا أراه يكاد يكون توأما لي. وسبحان الذي يخلق من الشبه أربعين!

وبسبب هذا الحادث شعرت بانزعاج عندما نشرت إحدى المجلات العربية صورة ضمن كتاب آخرين وكتبت تحتها اسمي، ولم تكن الصورة لي. بل لرجل حاد الملامح قاسي العينين معقوف الأنف. وفي صفحة تالية وجدت صورتي منشورة مع تحقيق عن

رجال المافيا وتحت صورتي كتبوا: جياكومو منجوزي رجل المافيا القوي.

وعادت المجلة العربية تنشر تحقيقا عنْ الذين يقومون بتحرير باب البخت في الصحف فنشرت حديثي ومعه صورة رجل المافيا جياكومو منجوزي ومكتوب تحتها اسمي. وحاول مكتب القاهرة تصحيح هذا الخطأ فنشرت المجلة اعتذارا أوضحت فيه أن لَبْسًا قد حدث وأن هذه هي صورة الأستاذ فلان الفلاني وكانت الصورة لجياكومو منجوزي بينما كتبت تحت صورتي اسم جياكومو منجوزي.

واتصلت بمركز المجلة في بيروت أستغيث من أن الإصرار على نشر صورتي باعتباري جياكومو منجوزي سوف يسبب لي متاعب في المطارات وقد يعرضني للمطاردة بالمدافع الرشاشة. فوعدني مدير التحرير بتدمير كل كليشيهات وأفلام جياكومو منجوزي. فمزق ودمر كليشيهات صورتي أنا وبقيت صورة منجوزي مكتوبا تحتها اسمي!

ومقالب الصور لا تنتهي!

زمان كانت تصدر في القاهرة مجلة فكاهية اسمها البعكوكة، وكان الشربيني أفندي لا يغفر لأي تلميذ يضبطه متلبسا بحيازة البعكوكة. فما إن يقع هذا التلميذ بين يديه حتى ينهال عليه بالقول: يا سوقي.. يا حثالة.. يا فَسْل.. يا أرذل من خنيزع ويا أحمق من هبنقة، وما إن ينتهي من هذا الموشح حتى يأمر التلميذ بأن يقلب ظهر يده ـ في عز البرد ـ ليتلقى عشرين مسطرة عقابا على حيازة البعكوكة.

ومن صور للشربيني أفندي في رحلة مدرسية قصصنا صورة لوجهه وأرسلناها إلى مجلة البعكوكة وظهرت الصورة في صفحة

مليئة بصور القراء وتحت الصورة الشربيني أفندي من أصدقاء البعكوكة وكانت مذبحة كبرى للفصل ولا مذبحة المماليك.

وفي الأربعينيات كان هناك ممثل أشبهه تماما اسمه فرناندو لاماس، فكنت أشتري عشرين صورة له من الحجم الصغير وأستخدمها في بطاقات الكلية واشتراك المواصلات وما إلى ذلك وكانت العشرين صورة بقرش بينما الذهاب للمصور يتكلف عشرة قروش.. فسعدت كثيرا بهذا الممثل الذي كان يتيح لي أن أصرف الميزانية المخصصة للتصوير الفوتوغرافي في الذهاب إلى السينما. وظللت أستخدم صوره لسنوات إلى أن دق باب البيت طارق يقول: بوليس..

- لماذا كفى الله الشر؟!

- مطلوب للنيابة..

ووقفت أمام وكيل النيابة متهما بالتزوير في أوراق رسمية إذ قدمت طلبا إلى جهة حكومية مرفقا به صورتي.

قال لي وكيل النيابة: هل هذه صورتك؟

- طبعا صورتي..

قال وكيل النيابة: مطبوع خلفها بالإنجليزية فرناندو لاماس نجم مترو جولد وين ماير.. فهل تصر على أقوالك؟

وحكيت الحكاية لوكيل النيابة.

وأصبح وكيل النيابة الذي حقق معي من أعز الأصدقاء وهو المستشار ناصر مرسي السفير السابق بالخارجية!

التطور العظيم

كنت من أكبر مشجعي نادي الزمالك. ثم حدث ما جعلني ـ في ذلك الزمان البعيد ـ أكف عن هذا «التزملك»؛ إذ تعرض النادي لسلسلة من الهزائم المشينة على يد أندية صغيرة مثل نادي فابريكة المكرونة ونادي شركة النداغة: الأمر الذي كاد يصيبني بكافة أمراض الدم والأعصاب. وقد حدث أيامها أن أمسك المارة بشاب بجوار نادي الزمالك وظلوا يضربونه وهو يستغيث ثم توقفوا عن ضربه وأطلقوا سراحه عندما أقسم لهم إنه نشال وليس لاعبا في الزمالك.

ثم جاءني الأصدقاء الزملكاوية لأعود إلى حظيرة الزمالك مشجعا فبرقت في رأسي فكرة جديرة بالتنفيذ.. لماذا لا أساوم كما يفعل بعض اللاعبين بناديهم؟ لماذا لا يدفع لي الزمالك مبلغا محترما حتى لا أنتقل إلى ناد آخر أشجعه. لقد حان الحين ليحصل كل مشجع على حقوقه. فالمشجع يعد من أهم أطراف اللعبة وأبخسهم حظا ورزقا. ثم إنه معرض ـ أثناء المباريات ـ للإصابة بكافة الأمراض ابتداء من الضغط والسكر إلى الانهيار العصبي والسكتة القلبية.. ولا بد أن يكفل له اتحاد الكرة حقوقه فيحصل على استغناء من ناديه مع

دفع خلو رجل للنادي الجديد الذي عليه أن يتكفل بسداد جميع ديون المشجع وتوفير شقة متواضعة له على النيل وسيارة صغيرة مرسيدس ومعاملته معاملة اللاعب في المكافآت والأجور. فمن المدهش حقا أن المشجع يتحمل التزامات مالية باهظة دون مقابل. فهو يشتري المواد الضرورية لحضور المباريات الحساسة مثل الطوب والحجارة والزلط. كما أنه يضحي بالكثير من ماله الخاص فلا يفكر في استعادة رهن الزجاجات الفارغة المتجهة إلى دماغ حكم المباراة.

مثل هذا المشروع ـ كفالة حقوق المشجع ـ كان يمكن أن ينصف تلك الفئة البائسة التي تظل تعوي في الملاعب وفاء وحبا في النادي ولاعبيه. غير أنني لم أجد أي حماسة من الزملاء المشجعين فاستقر رأيي على عدم تشجيع أي ناد والاكتفاء بالتعاطف مع المنتخب القومي. إلى أن وصل المنتخب إلى نهائيات كأس العالم فعدت أمارس التشجيع.. غير أن الفريق القومي بدأ يهز أعصابي فهو يوم في العالي ويوم في النازل ولا مستوى ولا مقياس.. وكثيرا ما ساءت نفسي وأنا أرقب لعب الفريق القومي هل تطورت الكرة عندنا عن زمان!

واكتشفت أن التطور الوحيد الذي حدث هو أن أسماء اللاعبين أصبحت قابلة للنشر إذ كانت أسماؤهم زمان من عينة السكران والعضاض ولوفا وخيشة وأبو جلمبو.

وفي الرعيل الأول لكرة القدم كان إطلاق اسم على اللاعب يتم لسبب وجيه. فمختار التتش مثلا أطلق عليه المدرب الإنجليزي هذا الاسم لأنه كان ضئيل الجسم يقفز برشاقة مثل كرة مطاطية. وأطلقوا

على محمد حسن حلمي اسم زامورا عندما سدد الكرة في شبكة أشهر حارس مرمى وقتئذ وهو الإسباني زامورا. وتقليدا لحلمي والتتش. بدأ كل لاعب يبحث عن اسم غريب لأن الأسماء الجميلة. لا تصلح للملاعب. وفي الخمسينيات مثلا عرضوا على أحد اللاعبين هذه الأسماء.. الأهتم ـ فلاية ـ الجربوع ـ الأبوظيا ـ جعيصر ـ الرفاس ـ طريشة. غير أن اللاعب رأى أن كل هذه الأسماء لطيفة وشيك وانتهى به الأمر إلى أن يسمي نفسه كاللو.

* * *

في مسألة الغلط

إذا رأيت غلطة مطبعية في بعض ما أكتب أتذكر ما كنت أعانيه عندما كنت مسئولا عن الأخطاء المطبعية. فقد اعتاد مصطفى أمين أن يقلب صفحات النسخ الأولى الصادرة من المجلة وعلى الفور تقع عينه على الغلطة المطبعية وسط مئات السطور. كيف؟ لا أعرف.. غير أن المرة التي لا أنساها هي عندما أشار مصطفى أمين إلى سطور وهو يتساءل: ما هذا؟ وقرأت سطرا يقول: ورئيس الوزراء يفضل رياضة المشي في ساعة الأصيل ويكره تقشير البطاطس.

وأسرعت إلى المطبعة لأصحح هذا الذي سوف يتسبب بالتأكيد في أن أقشر أنا البطاطس بعد إعطائي إجازة مفتوحة بلا مرتب. وكانت الإجازة المفتوحة هي الموضة في تلك الأيام.

وفي العدد التالي من مجلة الجيل أمسكت بماكيت المجلة وفتشت سطورها بعناية حتى لا يقشر وزير بطاطس أو يخرط ملوخية.. وزيادة في الاحتياط رأيت أن أعرض الماكيت على مصطفى أمين الذي طلب صفحات أخبار الأسبوع السياسية ليسألني بعد لحظة: ما هذا؟ وأشار إلى سطور تقول: وقال داج همر شولد: إن المحادثات كانت

ودية بين الجانبين وأعلن أنه يكره تقشير البطاطس. ما الحكاية؟! ومن أين تأتي هذه البطاطس؟!

أسرعت أتصل بالمصحح لأسأله: يا سيدي كيف تترك هذا السطر الذي يعلن فيه همر شولد السكرتير العام للأمم المتحدة أنه يكره تقشير البطاطس.. فوعدني بتصحيحه فورا، وطلبت بروفة جديدة للمراجعة لأجد أن المصحح قد وفى بوعده وصحح العبارة كالآتي: وأعلن داج همر شولد أنه لا يكره تقشير البطاطس.

والأخطاء المطبعية درجات، فهناك الغلطة الفادحة وهناك الخطأ البسيط الذي يمكنك من إدراك المعنى مع سياق الكلام. وعندما تصبح هذه الأغلاط في العنوانين الرئيسية فهي لا تغتفر. لأن العنوان الرئيسي أو المانشيت لا يمكن أن تخطئه العين في بروفات الصحيفة ومع ذلك فقد ظهر في إحدى صحف ولاية بنسلفانيا الأمريكية هذا المانشيت العريض.. «مساجين يهربون من السجن بعد إعدامهم».

وفي صحيفة لانسيج ستيت جورنال ظهر المانشيت العريض، اتخاذ الإجراءات في الولاية لإعدام جميع المواطنين فوق ١٧ سنة. وفي جريدة تكساس: ضباط نبراسكا أحسن لصوص بنوك. وفي جريدة جالفستون بتنيسي: كلب في الفراش يطلب الطلاق، وفي صحيفة نورث فورت ورث نيوز سقطت كلمة «ثور» من العنوان فأصبح كالتالي مستر فلان يمتلك أكبر قرون في تكساس.

أما عن الأخطاء بين السطور، فقد جاء في جريدة بوسطن بوست: وبعد حفل الزفاف ودعت العروس عريسها لتقضي شهر العسل، وفي

صحيفة تيبتونفيل بتنيسي: يجتمع نادي الحدائق في الثانية والنصف يوم الأربعاء القادم للمحافظة على السراويل الداخلية!

وفي صحيفة فوكس فيل بتنيسي: وفي حفل الزفاف عزفت أوركسترا الكنيسة للعروسين نشيد الآن بدأت الحرب. ومن الأخطاء المطبعية في الإعلانات: سوف تحب هذا النوع من البوربون عندما تشربه. ثم اتصل برقم ٢١٧٠٠ حانوتي هينس.

وهذا الإعلان: اطلب محلات ويزر لتحصل على فطيرة فاكهة صناعة منزلية من خشب الماهوجني المتين

وفي صحافتنا نشر هذا الخبر عن ضيف يزور مصر. ثم انتقل سيادته إلى مثواه الأخير في هيلتون.

وعندما كان المرحوم أنطون الجميل رئيسا لتحرير الأهرام كتب هذه التأشيرة على نعي في الوفيات: ينشر إن كان له مكان، فظهر النعي في الأهرام كالآتي أسكنه الله فسيح جناته إن كان له مكان!

* * *

النشال!

قبل أن يمتد العمران إلى شارع الصحافة. كانت عشش الترجمان تحيط بدار أخبار اليوم. وكانت عشش الترجمان هي مساكن القرداتية والنشالين الذين يغطي نشاطهم كل القاهرة!

وعرفنا من جيراننا عظماء النشالين الذين يسرقون الكحل من العين مثل العقرب والشفاط وريشة وخلقة ربنا ـ اسمه كده ـ والبسة وسمبو ومنخر والنملة وتهتوهة!

وكان جيراننا في منتهى الشهامة والحق يقال، إذا نشل صديق أو قريب لواحد منا فما عليه إلا أن يتوجه إلى عميد النشالين ليدلي بالتفاصيل عن زمان النشل ومكانه وبعدها يستعيد المحفظة كاملة الفلوس ومعها أسف عميد النشل بعشش الترجمان!

ومضت السنون وأزيلت عشش الترجمان من وسط القاهرة ونقل شاغلوها إلى مساكن جديدة ولم يعودوا جيرانا لنا.

ودق موظف الاستقبال الداخلي في مكتبي ليقول لي إن نشالا يطلب مقابلتي وخطر ببالي أن الزائر ما دام لم يذكر اسمه وقدم نفسه

بصفته نشالا فلا بد أنه واحد من جيراننا الأوائل: ريشة أو نملة أو العقرب جاء ـ فيه الخير ـ لزيارتي: وتمنيت في سري ألا يكون القادم هو تهتوهة إذ إنه مصاب بلعثمة ينطق معها كلمة ازززيك في ربع ساعة. قلت لموظف الاستقبال دون أن أسأله عن اسم النشال إني في انتظاره غير أن الزائر كان وجها جديدا لا أعرفه: قدم نفسه قائلا:

ـ محسوبك عبد الفضيل نشال محافظ وعندي ٣٩ سابقة.

ـ وطلباتك؟

ـ جئت أتوب على إيديك.

لا بد أنه قريب واحد من جيراننا القدامى وصف له الطريق إلى مكتبي. وقبل أن أسأله راح يستحلفني وهو يحتضنني ويقبل أكتافي ألا أرده خائبا.. ثم ما لبث أن اعتدل ليقول إنه نشال شاطر لا يشق له غبار وإنه يستطيع أن يستمر في المهنة التي يأكل منها: بقلاوة: لكنه قرر أن يتوب على يدي بعد أن أكفل له عملا شريفا. ثم قدم لي محفظتي التي نشلها من جيبي الداخلي ليثبت لي أنه نشال ممتاز ولا يريد الحرام.

ولم يستغرق هذا كله ثواني معدودات.

أخذت منه محفظتي ووضعتها في جيبي ووجهي لا ينكر الدهشة من خفة يده ثم سألته: ماذا يتقن من أنواع الحرف؟ فقال: إنه لم يتعلم حرفة في حياته ـ منذ الصغر إلا النشل.

واقتنع إحساسي بعزم عبد الفضيل على التوبة دون مبرر منطقي فاتخذت كل الإجراءات الروتينية اللازمة لعودته إلى الحياة الشريفة

كرفع دعوى رد الاعتبار وما إلى ذلك بوصفه من أصحاب السوابق العتاة. وما إن انتهت هذه الإجراءات حتى اتصلت تليفونيا بالمهندس عثمان أحمد عثمان ورجوته أن يعين عبد الفضيل ساعيا أو فراشا بالمقاولون العرب. ولم أقل له إنه صاحب ٣٩ سابقة نشل بل قلت له إنه ظروف حياته تقضي سرعة إلحاقه بعمل. فاستجاب المهندس عثمان أحمد عثمان مشكورا وقال: أرسله فورا.

بعد أسبوع سألت المهندس عثمان أحمد عثمان: ما أخبار عبد الفضيل: فقال لي: تمام. بيبوس إيديك!

وكنت ألتقي بالمهندس عثمان أحمد عثمان في مختلف المجتمعات فأسأله عن عبد الفضيل ليقول: تمام.. بيبوس إيديك!

وفي كل مرة أدعو في سري ألا يسود عبد الفضيل وجهي مع الرجل الذي كفل له عملا شريفا.

وجاءني عبد الفضيل يقول إن ابنته قد أصيبت بشلل الأطفال فأرسلته إلى الدكتور أحمد خالد أستاذ العلاج الطبيعي بكلية طب القاهرة الذي رفض مشكورا أن يتقاضى أجرا إعجابا بتوبة عبد الفضيل حتى تم شفاء البنت.. وبلغت الأمانة بعبد الفضيل أنه أعاد مائتي جنيه إلى إدارة المقاولون العرب كانت صرفتها له لعلاج ابنته!

ثم جاءني عبد الفضيل ذات مرة في زيارة روتينية من زياراته لأسأله: مبسوط يا عبد الفضيل في شغلك؟ وقال لي خبرا غريبا جعلني أصرخ بأعلى صوتي: يا نهار أسود!

وأسرعت أتصل بالمهندس عثمان أحمد عثمان.

ماذا جرى؟

إني أترك المهندس عثمان أحمد عثمان يروي الحكاية في كتابه «صفحات من تجربتي» فيقول عن عبد الفضيل في صفحة ٥٥٥.

وأصدرت قرار تعيينه. وعندما التقيت بالرجل حكى لي عن كل جوانب حياته بما لها وما عليها فأحسنت معاملته عندما عرفت ظروفه وتاب إلى الله وأدى فريضة الحج.

ثم يقول المهندس عثمان أحمد عثمان وكان أن اتصل بي أحمد رجب بعد فترة لكي ينبهني إلى ما له من سوابق. وفوجئ بأنني عرفت كل تفاصيل حياته.

ولكن المفاجأة الكبرى كانت لأحمد رجب عندما عرف أن هذا النشال أصبح أحد الأمناء على خزائن «المقاولون» يمسك بيده عشرات الألوف من الجنيهات!

* * *

جليل البنداري

كان جليل البنداري من أبرز الظرفاء في ليالي القاهرة. وكان أكبر وأشهر صحفي في الوسط الفني.. ولطول لسانه قيل إنه كان لا يغسل يديه قبل الأكل. بل يغسل لسانه. بينما أطلقت عليه تحية كاريوكا: جليل الأدب!

وكانت خفة الدم التي تمتزج دائما بطول لسانه هي التي تغفر له دائما كل شيء. وقد رأيت مرة ـ مثلا فريد شوقي ثائرا هائجا في بيت جلال معوض، يتوعد جليل بالقتل لأن لسانه طال عليه في إحدى المقالات، وقد تصورت أن وحش الشاشة سوف يفتك بجليل فتكا عندما يراه. ورحت أهدئ من ثورته وعصبيته. وبعد قليل دخل جليل البنداري وانفجر فيه فريد شوقي ثائرا وإذا بلسان جليل كالمدفع الرشاش. وإذا بوحش الشاشة الثائر يكاد يقع على الأرض من الضحك!

وبقدر ما كان لسان جليل حادا ورهيبا. كان بالغ الطيبة إلى حد السذاجة. الأمر الذي كان يغرينا دائما بتدبير المقالب له.

ذات مرة سأل جليل زميلنا توفيق بحري عن الحبر الذي يستعمله.

فقال بحري إنه حبر لا يباع إلا في الصيدليات. فأرسل جليل في طلب الحبر من الصيدلية واتبع تعليمات توفيق بحري لملء القلم بالحبر فنقع مسحوق الحبر في الماء وظل طويلا ينتظر تحول الماء إلى حبر كما قال له بحري، لكن الماء ظل على بياضه دون أن يعرف جليل أن المسحوق المنقوع في الماء هو الكويكراوتس غذاء للأطفال. وقال له بحري إن الماء لن يصبح حبرا إلا داخل القلم. فملأ جليل قلمه الشيفرز الثمين بماء الكويكراوتس وباظ القلم!

وسألني مرة جليل عن الحبر الأسود الذي أستعمله وصدق جليل عندما قلت له أنت تعلم أنني عائد لتوي من بلغاريا وقد ملأت قلمي من البحر الأسود.

وفي أخريات أيامه كان جليل البنداري يهوى جلسات تحضير الأرواح. وكان يعهد بذلك إلى رجل اسمه أبو الوفا. وكان أبو الوفا يقوم بتحضير الروح المطلوبة فتأتي روح أخرى تقوم بتكسير الأكواب والأطباق ثم يتضح أنها روح هتلر. فقد كان أبو الوفا يتواطأ معنا لعمل المقالب في جليل.

ومرة أعلن أبو الوفا أن الروح حضرت وأنها روح مستر تشرشل وطلبت روح تشرشل حضور أنيس عبيد ـ الذي يقوم بكتابة الترجمة على الأفلام ـ ليقوم بترجمة كلام تشرشل! فلما اكتشف جليل تواطؤ أبو الوفا معنا لجأ لمحضر أرواح اسمه الحاج طلبة. ليقوم بتحضير روح الست شوق البولاقية التي هام بها نابليون بونابرت غراما خلال وجوده في القاهرة أيام الحملة الفرنسية. وكان جليل بصدد كتابة أوبريت غنائي يحكي غرام نابليون بفاتنة بولاق ورأى

أن تحضير روحها سوف يمكنه من كتابة الأوبريت بتفاصيل تاريخية صحيحة.

ولأمر ما تغيب الوسيط فاختار الحاج طلبة وسيطا آخر وراح يجري طقوسه في الغرفة المعتمة. وما لبث أن سرت همهمات غامضة قال بعدها الحاج طلبة: السلام عليكم، وردت روح شوق البولاقية السلام وقدمت نفسها قائلة: أنا شوق بنت عديلة وكانوا يدللوني باسم شواشي. بينما كان نابليون يناديني شير «شو».

وقالت شوق البولاقية إنها تعرفت بنابليون في بيت مندور الكحكاوي وإنه أعجب بها إعجابا شديدا. وروت شواشي أو شوق تفاصيل كثيرة عن غرام نابليون بها وكيف أغراها بالسفر معه إلى فرنسا وكيف بكى على كتفها عندما حطم نلسون الأسطول الفرنسي في أبو قير وكان نابليون يقول في بكائه: نلسون ابن الحرام كسر لي الأسطول يا شو.

وقد صدمت شوق صدمة فظيعة عندما اكتشفت أن نابليون كان يريد أن يستولي على مصاغها خصوصا خلخالها الذهب. وكان جليل يكتب كل هذه التفاصيل.. وبقي أن أقول إنني كنت الوسيط الذي قال كل هذا الكلام الفارغ.

* * *

ينشر أو لا ينشر؟

هل من حق الصحافة أن تنشر الأخبار الشخصية عن نجوم المجتمع؟؟

إذا اختلف زوج مع زوجته خلافا حادا ثم تصالحا بعيدا عن الشرطة والنيابة لما شعر بهما أحد، إذ ليس من صفات الصحافة الفاضلة انتهاك حرمات البيوت، أما إذا أشعل هذا الزوج النار في باروكة زوجته وهي على رأسها وضربت هي بالصوت الحياني فأسرع ينزع الباروكة من رأسها ليلقي بها في منور العمارة واندلعت النار في المنور. فالأمر قد وصل بذلك إلى النيابة والمحكمة وأصبح الزوج والزوجة ـ سواء كانا شخصين عاديين أو نجمين معروفين ـ خبرا في صفحة الحوادث يهم كل سيدة عندها باروكة وكل رجل يريد أن يشعل النار في باروكة زوجته أو يتمنى ذلك.

وإذا احتفلت الفنانة فتكات رمش العين باقترانها بالزوج الرابع عشر ثم تقدمت ابنتها الصغيرة تطلب إلى العريس الجديد أن يوقع في دفتر الزيارات الذي تحتفظ به لمثل هذه المناسبات، فإن نشر الخبر على هذه الصورة قد يحمل إساءة إلى العروس، كما يمكن

تكذيب الخبر بسهولة إذا كانت الصحيفة تكذب وتزعم أنه الزوج الرابع عشر مع أنه الزوج الثاني عشر.

وأحيانا يكثر الفنان فلان من الظهور مع الفنانة علانة، ويقول فلان إنه ليس بينه وبين علانة أي شيء غير الزمالة والود والاحترام. وتقول علانة إنه ليس بينها وبين فلان غير الزمالة والود والاحترام ثم يتزوجان بعد قصة الحب التي يعرفها الجميع وينفردان هما بنفيها، ثم يصرح كل منهما بأن ليس بينهما غير الزمالة والود والاحترام بعد الطلاق.

والواقع أن الفنانين كثيرا ما يرحبون بالأخبار الشخصية من باب الدعاية لفيلم جديد أو من باب الدعاية عموما. وهوليود هي التي ابتكرت فبركة الأخبار الشخصية. وأجهزة الدعاية فيها هي التي فبركت خبرا تناقلته وكالات الأنباء عن روبرت متيشوم الذي تم ضبطه في غرزة حشيش. بل إن لكل نجم ونجمة هناك مدير أعمال يتولى فبركة الأخبار الشخصية وتسريبها إلى الصحفي، وقد سئلت إحدى ممثلات الصف الثاني في هوليود عن سبب طرد مدير أعمالها فقالت لأنه ضعيف الذاكرة. إذ طلقني من أزواجي سبع مرات بينما هو زوجني خمس مرات فقط.

ومنذ سنوات زارني ممثل معروف وقال لي إنه قرر الانفصال عن صديقته الفنانة المعروفة وهو يريد سببا وجيها غير السبب الحقيقي للانفصال حتى يتخذ منه مادة للدعاية لفيلمه الجديد الذي تشاركه هي فيه البطولة.

وتهلل وجه الممثل المعروف وهو يستمع إلى اقتراحي، إذ أشرت

إليه بأن يقول إن سبب عدم إتمام الزواج هو بطاقة الدعوة لعقد قرانهما، إذ أصرت هي ـ أسوة بإعلانات الأفلام ـ أن يكتب اسمها أولا بينما صمم هو على كتابة اسمه قبل اسمها

* * *

على الرصيف

هل صحيح أن الفنان لا يستطيع أن يبدع إلا في برج عاجي؟؟

توفيق الحكيم ـ الذي أشغل غرفة مكتبه بأخبار اليوم ـ كان يكتب إنتاجه العظيم في تلك الغرفة التي تطل على خمس ورش حدادة. وإذا دارت المطبعة ـ أسفل الغرفة مباشرة ـ أصيب المكتب وكرسي المكتب والجالس فوق كرسي المكتب برعشة متواصلة، وكان علي أمين يكتب وسط أجراس التليفونات والداخلين والخارجين من المحررين، فإذا اندمج في الكتابة ودق جرس التليفون بجواره استمر في الكتابة قائلا دون أن يرفع السماعة: آلو.. أنا علي أمين!

ويستطيع مصطفى أمين أن يكتب وسط ضجيج مائة وابور زلط ومهما كان مكتبه يموج بالزوار والمتحدثين.. وموسى صبري يغلق مكتبه بالمفتاح حتى لا يزعجه أحد مع أن غرفة مكتبه بالدور الأول تطل على ورش الحدادة الخمس، وبينما أصوات المطارق الحديدية تملأ غرفة مكتبه نجده يستدعي الساعي ليحكم إغلاق صنبور الماء لأن النقط تزعجه!!

ويستطيع أنيس منصور أن يكتب في أي مكان دون أن يضع

النقط فوق وتحت حروف المقال وبعد أن ينتهي من الكتابة يأخذ المقال إلى مكان هادئ يرش فيه النقط على الحروف (ملحوظة: هذه ليست نكتة).. وعندما التحق الكاتب الساخر أحمد بهجت بمجلة «الجيل» كان يدوخني بمطاردته لارتباطي بمواعيد الطبع. إذ كان من عادته ـ عند الكتابة ـ أن يخلع حذاءه وجواربه ويضع أمامه أكواب الشاي وعلب السجائر ويقضي ساعات وساعات حتى اضطررت إلى الجلوس بجواره ذات ليلة إلى الثانية صباحا ولما لم ينته غافلته وحملت حذاءه وجوربه وانصرفت ليعود إلى بيته حافي القدمين!

والموسيقار الكبير الإمبراطور عبد الوهاب يمكنه أن يضع ألحانه الساحرة وسط الناس جميعا دون أن يشعر أحد أنه مشغول بالصنعة. وبينما كان منهمكا ذات مرة في لحن «هان الود» وهو يجلس في لوبي هيلتون تقدمت منه سيدة تصافحه وتعرفه بنفسها قائلة: أنا خديجة أخت المرحومة زينات رمزي.. فقال عبد الوهاب بترحاب شديد: أهلا يا خديجة هانم.. إزيك وازي المرحومة زينات.

وذات صيف بعيد كنت أجلس مع عبد الوهاب في شرفة منزله بالإسكندرية عندما اقترح أن نذهب إلى قصر المنتزه لأنه يريد أن يتجول في غابته الهادئة وقت الغروب. وفي الغابة الجميلة التي لم يعد لها وجود الآن سرت إلى جوار الموسيقار الكبير وقد انشغل تماما عن الحديث بتلحين أغنية «بفكر في اللي ناسيني» وشيئا فشيئا علا صوته باللحن: وادور ليه على جرحي.. وصاحب الجرح مش فاكر.. وأقول يا عيني ليه تبكي.. ما دام الليل مالوش آخر، ثم تسلطن الإمبراطور تماما وانطلق يغني وكأنه في حفل عام: وأقول يا عيني ليه ليه ليه تبكي، وراح يبدع في ترديدها بأشكال مختلفة، ثم فجأة

قال لي: تعال نجيب العود من العربية، وعلى الرصيف جلست إلى جواره وهو يحتضن العود ويردد: عذاب الجرح يحرمني من الدنيا اللي أنا فيها وطول الليل يرجعني لدنيا كنت ناسيها.

لم أستمتع بالفنان العظيم مثلما استمتعت به في تلك الأمسية.. ولم يقطع متعتي إلا سائح أوربي تقدم منا ونحن على الرصيف ودس في يدي «شلن».

افتكرنا شحاتين!!

* * *

أطبــاء

ما هي العلاقة بين الطب والأدب؟

إن أبرز أدباء العالم من الأطباء: أنطون تشيكوف أعظم من كتب القصة القصيرة، وجورج ديهاميل وسومرست موم وسير آرثر كونان دويل ـ مبتكر شخصية شرلوك هولمز ـ ويوهان شيلر وبرخت والشعراء كتيس وشيلر وروبرت بريدجز!

وفي أدبنا العربي نجد طابورا من الأطباء: إبراهيم ناجي صاحب الشعر العذب الرقيق، ويوسف إدريس عملاق القصة القصيرة، والمفكر مصطفى محمود والدكتور سعيد عبده والدكتور حسين فوزي ومحمد كامل حسين صاحب قرية ظالمة التي نال عنها جائزة الدولة في الأدب!

وباستثناء محمد كامل حسين الذي كان رائد جراحة العظام في مصر ونال جائزة الدولة أيضا في العلوم كطبيب، نجد أطباءنا الأدباء لم يضيفوا شيئا إلى مهنة الطب، وإن كان مصطفى محمود ـ تخصص أمراض جلدية ـ اعتقد مرة أثناء عملية تشريحية أنه اكتشف رئة ثالثة في الإنسان ثم اتضح أنه نسي نظارته في البيت.

وكان كامل الشناوي يقول إن يوسف إدريس ومصطفى محمود من خريجي «كلية الطب الجميلة» وهي غير الكلية التي تخرج فيها علي باشا إبراهيم وأنور المفتي. ورغم نصيحة كامل الشناوي لي بألا أستشير مصطفى محمود أي استشارة طبية إلا أنني أعترف أن مصطفى صاحب فضل كبير لا يمكن أن أنساه. فمن ربع قرن كنا متجاورين في السكن، وحدث أن مرضت ذات ليلة، وبحثوا عن جاري د. مصطفى محمود في منتصف الليل، وأصبحت بعد تلك الليلة أدين له بحياتي. إذ اتضح أنه كان مسافرا وبذلك نجوت بأعجوبة من الموت على يديه!

لا يزال السؤال قائما: ما هي العلاقة بين الطب والأدب؟

إن أحد مشاهير الأدباء الأطباء ـ سومرست موم أو جورج ديهاميل لا أتذكر ـ فسر ذلك بأن الطبيب يرى الإنسان ـ في حالة المرض ـ عاريا عن كل غرور وكبرياء ممدودا في استسلام وآلام. الأمر الذي يدفع الطبيب إلى التفكير في لغز الحياة والمصير!

ولو صدق هذا التحليل لكان بين الأدباء والمفكرين كثير من الحانوتية!

والأمر كله في اعتقادي يعود إلى موهبة أدبية فذة لا يرقى إلى مستواها الاكتساب ـ اكتساب الدراسة الطبية ـ إلا أن الذي لا شك فيه أن الاشتغال بالفكر والأدب يجعل الطبيب إنسانا مرهف المشاعر. فقد كان يوسف إدريس مثلا وهو مفتش صحة السيدة زينب شديد التعاطف مع الناس يفحص من يلتقي بهم دون أن يطلبوا منه ذلك، فكان يوسف يمرض السليم أما المريض فالفاتحة على روحه.

وأذكر أن يوسف إدريس دخل علينا ذات ليلة كافتريا هيلتون يسألنا: ماذا يسمي ابنه البكر الذي ولد في تلك الليلة؟ فاقترح كامل الشناوي على يوسف أن يسمي ابنه «الدكتور» حتى يكون اسم الولد الثلاثي الدكتور يوسف إدريس فيتحقق بذلك أمل يوسف في أن يكون طبيبا!

* * *

في الصالون!

أكره الحلاقة جدا!

الأرجح أن السبب حادثة مرت عليها عشرات السنين يوم ذهبت أحلق شعري وأنا في المدرسة الابتدائية فدخل رجل صالون الحلاقة وفي يده ابنه في مثل عمري، فقص الرجل شعره وحلق ذقنه، وجاء دور الولد الصغير فأجلسه الحلاق على منضدة ليقص شعره بينما ذهب الأب إلى الحانوت المجاور بعد أن نفدت سجائره، وجن جنون الأسطى رشوان عندما اكتشف أن الرجل ليس أبا الولد الصغير، وإنما اصطحبه من الطريق ليتركه رهينة عند الحلاق باعتباره ابنه ويفر دون أن يدفع الأجرة!

ولم يكتف الحلاق بضرب الولد المسكين الذي لا ذنب له، بل أمسك بي أنا أيضا وهو يصيح: وانت كمان أبوك فين يا ولاد النصابين؟ ولم أدر في مقاومتي أنني كسرت قصرية زرع فتحول الحلاق إلى القصرية المكسورة وتحولت أنا إلى الشارع أسابق الريح.

من يومها أصبت بما يمكن أن يسمي بـ«رهاب الحلاقة» أو

الخوف من الحلاقة أو «الحلاقة فوبيا» مثل الكوستروفوبيا أي جنون الخوف من الأماكن المغلقة والساينوفوبيا ـ الخوف من الكلاب. وقد دفعتني تلك «الحلاقة فوبيا» إلى عدم الانتظام في الحلاقة أو تحديد حلاق معين. فكنت أترك شعري إلى أن يصبح غير مقبول فأرغم نفسي على التوجه إلى أول حلاق يصادفني، إلى أن انتقلت من الإسكندرية إلى القاهرة واستقر بي الأمر عند الأسطى محمد حلاق أخبار اليوم الذي كان له صالون في قلب الدار يتردد عليه مصطفى أمين وعلي أمين وتوفيق الحكيم وأحمد الصاوي محمد ومحمد عبد الوهاب وغيرهم من عمالقة الصحافة والأدب والفن، وعندما قامت ثورة يوليو أصبح الأسطى محمد حلاق جمال عبد الناصر وضباط الثورة.

وذات مرة كنت أدردش مع الأسطى محمد وقلت له إنني أنوي القيام بخبطة صحفية فأجري حديثا مع جمال سالم الذي لم يفلح صحفي واحد في عمل حوار معه، وقال لي الأسطى محمد: هذا صعب جدا لأن جمال سالم يكره الإدلاء بأي حديث صحفي كما أنه شديد العصبية أخشى أن يسيء إليك.. وقلت للأسطى محمد: أريد أن أجري حديثا صحفيا مع جمال سالم وما عليك إلا أن تسأله أن يحدد لي موعدا.

وكبرت المسألة في رأس جمال سالم. كيف يجرؤ صحفي على طلب حديثه معه؟! وتطورت المشكلة عندما رفضت الذهاب إليه، فأرسل سيارة بوليس حربي لضبطي وإحضاري فهربت من أخبار اليوم ثم من القاهرة كلها إلى الإسكندرية ولم يخلصني من هذا المأزق إلا علي أمين الذي كان صديقا حميما لجمال سالم. ومات

الأسطى محمد صاحب صالون أخبار اليوم وعادت حيرتي من جديد مع شعري ثم استرحت كثيرا إلى الفنان محمود لبيب، وهو رفيع الذوق ويتعامل معه كل نجوم القاهرة في الفن والأدب. ولأنه فنان يساير التطور أولا بأول فهو يقص دائما وفق الموضة الجديدة، وعندما جاءت موضة الشعر القصير جدا خرجت رأسي من تحت يديه وهي شبه «قرعة».. ولما ضربت الجرس كادت زوجتي تغلق الباب في وجهي لأنها لم تتعرف عليَّ لأول وهلة ثم ما لبثت أن صاحت فيَّ دَهِشَةً: همه جندوك في الجيش إمتى؟!

وجربت الأسطى «فلان» لكنه كان كثير الكلام إذ تبين أنه على خلاف إيديولوجي مع جميع ساسة العالم وهو حريص على شرح هذا الخلاف وقلت له في النهاية إنني اعتدت أن أفكر أثناء الحلاقة.

وأكون شاكرا لو تركتني لأفكاري دون أن تقاطعني، وقد بَرَّ الأسطى «فلان» بوعده فلم يقطع أفكاري بل قطع ذقني وجرح رقبتي وطلبت منه كوب ماء حتى أتبين موضع الثقوب التي سوف يخر منها الماء أثناء الشرب.

ولا تزال زوجتي تطاردني بالعبارة التي اعتدت سماعها على مر السنين: مش ح تروح تحلق؟

أخيرا اشتريت المشط الموسى وسأحاول أن أحلق به لنفسي، وفي كل مرة يبدو شعري غير مهذب الأطراف وكأنني أحلق بالتسعيرة في صالون وزارة التموين.

* * *

قراءة جديدة..
في أمثـال قديمـة

ظل السجع موضة الكتابة عصورا طويلة حتى عنوان الكتاب كان لا بد أن يكون مسجوعا مثل: «دليل الحيران في ركوب مترو حلوان» و«العقد النفيس في انفجار ماسورة رمسيس» و«المعذبون والحيارى بالتليفون والحرارة». ولم يكن السجع في تلك العصور وقفا على الكتابة الأدبية، بل امتد أيضا إلى لافتات المحال: «راجي عفو الخلاق الأسطى بهلول الحلاق» و«كل كشري بالهنا والشفا واقرأ الفاتحة لسيدي أبو الوفا».. كذلك حملت أقوال المنجمين والمشعوذين الطابع السجعي: «حدرجة بدرجة من كل عين زرجة»، و«رقيتك واسترقيتك ومن عين الحسود خبيتك»، كما سيطر السجع على الفزورة والحذورة: «أد الكف ويقتل مية وألف»، و«أد الفيل ويتصر في منديل..».

وإذا كانت موضة السجع قد انقرضت ولم يعد باقيا منها إلا تلك الأقوال المأثورة المنقوشة على التاكسيات: يا ناس يا شر بطلوا أر، إلا أن النزعة السجعية لا تزال تعيش بداخلنا وتستميلنا إلى قول العبارة

المسجوعة، فالعبارة المسجوعة تؤثرها الذاكرة في الحفظ على غيرها، وهي أيضا الأكثر سهولة في التردد خاصة في المهرجانات الموسمية حيث تتردد: «يا زمالك يا مدرسة»، و«بيب بيب أهلي»، و«الله حي التاني جي»..

لكن هذا السجع جنى ـ للأسف ـ الجناية الكبرى على أمثالنا العامية التي نشأت في العصر السجعي.. فإن جانبا كبيرا من هذه الأمثال لا تستهدف أية غاية في قولها إلا وجه السجع نفسه.

مثلا.. خذ هذا المثل العامي الذي يقول:

«كل حمارة سابت وَدُّوهَا بيت أبو نابت»..

اشمعنى بيت أبو نابت؟

إن «أبو نابت» هذا شخصية وهمية طبعا، فلا هو كان تاجر حمير مسروقة يتجهون إليه بكل حمارة سابت، ولا هو اشتهر بعطفه على الحمير الضالة وتقديم البرسيم إليها مجانا، ولا كان أبو نابت صاحب ملجأ خيري للحمير..

ثم لماذا «الحمارة» فقط دون الحمار هي التي يذهبون بها إلى بيت أبو نابت؟ هل كان أبو نابت يتمتع بجاذبية خاصة لإناث الحمير؟ هل كانت كل حمارة تهرب من أصحابها تسعى مشتاقة إلى رؤية أبو نابت وعلى بيت أبو نابت وديني زاد وجدي والبعد كاويني؟ المسألة كلها أنها يجب أن تكون حمارة حتى يمكن أن يقال الحمارة سابت ليستقيم التسجيع مع أبو نابت، كما أن السر في اختيار اسم أبو نابت هو أن الحمارة سابت. فإذا ما تركنا أبو نابت وملجأه الخيري للحمير، وجدنا هذا المثل العامي الشائع:

«فرح عديلة.. هِذْ.. هِذْ بَلَا نِيلَة»..

من تكون عديلة هذه؟

ولماذا يحرص هذا المثل العدواني بقوة وإلحاح على هد الفرح فوق دماغها ليلة زفافها؟ إن ورود اسم عديلة هكذا مجرد من أي لقب، يشعرنا للوهلة الأولى أن عديلة هذه شخصية من شهيرات التاريخ، تماما كما يقال اسم كليوباترا مجردا ولا يقال كليوباترا بنت بطليموس الزمار.. لكن صفحات التاريخ ليست فيها أية ملكة اسمها عديلة الأولى أو عدولة الرابعة ولم يذكر التاريخ مثلا أن هولاكو التتاري دخل مملكة عديلة غازيًا ليلة زفافها وقال:

«فرح عديلة.. هِذْ.. بَلَا نِيلَة؟..

فمن تكون الآنسة عديلة إذن؟ ولماذا اختصها المثل بالتحريض على هد فرحها وتكسير الكلوبات على دماغها دون أن يسوق المبررات لهذا العدوان عليها في أحلى ليلة في عمرها؟ الحكاية - ببساطة - أن سوء حظ هذه البنت جعلها تحت اسم عديلة الذي هو على وزن نيلة وتأتي بعد الآنسة عديلة، الآنسة «طيطة» غير أن طيطة أسعد حظا بلا شك من عديلة.. إذ يقول المثل الشائع عن فرح طيطة:

«نومة وتمطيطة أحسن من فرح طيطة».

فالمثل هذا يكتفي بالدعوة إلى مقاطعة فرح طيطة مفضلا عليه النومة والتمطيطة..

مسكينة طيطة!

فالأرجح ـ كما يدل المثل ـ أن طيطة بنت رجل حط به الحال بعد العز والثورة. فالأصدقاء الأندال الذين عرفوا أنه فقد ثروته اعتبروا النومة والتمطيطة أحسن من فرح بنته طيطة، أما الأصدقاء الذين حضروا فرح البنت، فهم ما زالوا أوفياء لأنهم ـ أكيد لم يعرفوا بعد أنه فقد ثروته!

.. وهذا فرح ثالث العريس فيه اسمه «يحيى» وأنت تستطيع وأن تستنتج الحالة المالية لوالد العريس من المثل الشائع:

«نموت ونحيا في فرح يحيى».

الكل هنا مشغول بفرح يحيى، الكل يروح ويجيء ويصحو وينام ويموت استعدادا لفرح يحيى، إن هناك احتمالا قويا أن الذين ابتدعوا هذا المثل وأذاعوه ونشروه هم بنو همبكة، وفي هذه الحالة لا بد أن يكون والد عريسنا يحيى وزيرا أو نائب وزير أو رئيس هيئة أو وكيل وزارة أو مدير عام، هنا تتحول الإدارة كلها إلى خلية نحل من أجل يحيى وفرح يحيى، وهنا تزخر أعمدة الاجتماعيات في الصحف بالتهاني الحارة قبل وأثناء وبعد فرح يحيى، وهنا تقرأ مثل هذه السطور التي تتفجر إخلاصا وولاء في مناسبة فرح يحيى:

عبد الله الألبنظي وكيل إدارة التنقيب عن البترول بالهيئة العامة لحفر شوارع القاهرة الكبرى يضرع إلى الله أن يسرع بشفائه ويخرج من غرفة الإنعاش حتى يتمكن من التشرف بحضور حفل زفاف فخر الشباب الأستاذ يحيى نجل السيد يحيى يحيى..

وفي فرح يحيى، وفي كل فرح فخيم مثل فرح يحيى، لا تهمل

أمثالنا العامية ما يتردد في هذه الأفراح من آراء وملاحظات يرددها المدعوون، وهي آراء وملاحظات نافعة حقا كان يمكن أن يفيد منها والدة ووالد العريس لولا انهماكهما في الفرح، الأمر الذي لا يتيح لهما سماع هذه الآراء التي منها مثلا هذا الرأي:

«الفرحة والمعمعة والعروسة ضفدعة»..

وهذا رأي آخر:

«جوزوا مشكاح لريمة ما على الاتنين قيمة»..

وهذا رأي ثالث فيما قالته أم العروسة عن جمال بنتها وحلاوتها وهي جالسة في الكوشة:

«خنفسة شافت بنتها ع الحيط قالت دي لولية في خيط»..

وهذا رأي رابع في بياض بشرة العروس:

«الفلفل بالوقية والجير بالقنطار»..

وهذا رأي علمي في العروس يهم المشتغلين بنظرية دارون:

«يا واخد القرد على ماله، يروح المال ويفضل القرد على حاله»..

وهذا رأي لإحدى المدعوات، إذ تخاطب العروس التي لا تسمعها لبعد المسافة بينهما:

«بدال خطوطك والحمرة امسحي عماصك يا سمرة»..

وهذا رأي مدعوة تعلق على الرأي السابق:

«ايش تعمل الماشطة في الوش العكر»..

ولعل من أغرب أمثالنا التي يتحكم فيها السجع وحده هذا المثل الذي يقول:

«نيني نيني لما ييجي الأهبل يشتريني»..

وهو مثل يضرب في السلعة الكاسدة الفاسدة التي لا تجد من يشتريها إلا الأهبل، ولا تحاول أن تجهد تفكيرك في معرفة معنى «نيني نيني» فالأرجح أنها اللغة التي تتكلم بها السلع الكاسدة في المخازن والمحلات ومن سوء حظ الإنسان الأهبل ـ أو غير الأهبل ـ أنه جاهل باللغة السلعية، وإلا كان يسهل عليه وهو يدخل محلا أن يسمع السلعة الكاسدة تقول لباقي السلع في ابتهاج: نيني نيني الأهبل جاي يشتريني..

خذ مثلا ذلك الموظف التمويني الفخيم الذي سافر مرة على رأس وفد إلى كاشكاوانيا لعقد صفقة لحوم معلبة لزوم المجمعات الاستهلاكية. لقد دخل سيادته إلى مخازن المورد الأجنبي في كاشكاوانيا لاختيار الصنف، ولو كان سيادته ملما باللغة السلعية لسمع المعلبات التي وقع عليها اختياره تقول كلها في نفس واحد: نيني نيني.. الأهبل جه يشتريني..

فقد كانت المعلبات التي اختارها نصفها لحوم فاسدة والنصف الآخر معلبات خاصة بأكل القطط والكلاب، ولقد وزعت هذه المعلبات على المجمعات الاستهلاكية فعلا ثم تم سحبها، وأدركت تلك المعلبات فيما بعد، أن الموظف الفخيم الذي تعاقد عليها لا هو أهبل ولا بريالة، وإنما كان يجب أن تقول وسيادته يدخل المخزن ويختارها: نيني نيني.. أبو عمولة جه يشتريني!

فإذا تأملنا هذا المثل الآخر الذي يقول: «تيتي تيتي زي ما رحتي جيتي».

لاحظنا على الفور أن المثل يحمل نفس اللغة التي تتخاطب بها السلع، ذلك أن تيتي تيتي قريبة جدا من نيني نيني في المثل السابق، والمثلان ـ فيما يبدو مرتبطان بعضهما ببعض، إذ ما إن تزول عن الأهبل أعراض الهبل ويتكشف له مدى الظلم الذي سوف يلحق به من ضآلة العمولة حتى يعدل عن عقد الصفقة، فتعود السلعة الفاسدة إلى مخزنها لتقابلها باقي السلع قائلة: تيتي تيتي زي ما رحتي جيتي.

فإذا ما مضينا مع الأمثال المسجوعة صادفنا هذا المثل:

«نهق الحمار طلع النهار»..

هنا يحار الإنسان حقا في العلاقة بين نهيق الحمار وطلوع النهار، ولعلها علاقة فلكية، يعني إذا طلع النهار فلا بد أن حمارا ما قد نهق في نصف الكرة الأرضية الذي أشرقت عليه الشمس، أو يجوز أن الحمار لا ينهق إلا مع طلوع النهار لسبب تكنولوجي وهو أنه يستمد قوته النهيقية من الطاقة الشمسية، أو من المحتمل أن تكون رابطة الحمير على مستوى عال من السلوك الحضاري فحرمت على أعضائها النهيق في الليل منعا لإزعاج الناس الذين تكفيهم بلوى مكبرات الصوت البشرية..

وقد يقصد المثل بطلوع النهار ظهور الحق. فهم يشبهون أحيانا ظهور الحق بانبلاج الفجر، وقيل في ذلك: الحق واضح وأبلج، فهل معنى ذلك أن الحمار هو من يقول الحق؟؟

على أية حال، لنقرأ ماذا يقول هذ المثل النهاري الآخر:

«مكتوب على ورق الخيار من سهر الليل نام النهار».

هنا تدرك أن ساهر الليل لا ينام النهار لحاجته إلى النوم، بل امتثالا لذلك الأمر المكتوب على ورق الخيار، والظاهر أن الكتابة على ورق الخيار كان لها مفعول سحري غامض في توجيه مقدرات الإنسان الوجهة التي يريدها الكاتب على ورق الخيار، ولهذا كانت الكتابة على ورق الخيار سرها باتع في شئون العشق والغرام، تشهد بذلك الأغنية القديمة التي تقول: «ح عملك حجاب.. على ورق الخيار.. أسهرك الليل واجننك بالنهار»..

وتكشف الأمثال التي ابتدعها أجدادنا أنهم كانوا يميلون إلى الكتابة على أنواع غير مألوفة من الورق، إذ يقول مثل آخر: «مكتوب على ورق الحلاوة ما محبة إلا بعد عداوة».

هذا يدل بلا شك أنهم كانوا على درجة من التقدم في صناعة الورق، فقد تفردوا ـ دون العالم كله ـ بالكتابة على ورق الخيار وورق الحلاوة، ولعلهم أيضا كانوا يكتبون على ورق البامية وورق الكوسة، ولم يقتصر هذا التقدم على التكنولوجيا الورقية، فقد انتشروا في الأرض وهاجروا وتاجروا واغتربوا، ورأوا بلادا ـ كما تدل آثارهم الأمثالية ـ لم يرها ابن بطوطة في رحلاته، فهذا مثل يقول:

«ما نبنا من غربتنا إلا عوجة ضبتنا»..

هكذا ارتحلوا إلى بلاد كل من ذهب إليها عاد منها ضبته عوجة، ضبته بالذات، فما يكاد الصديق يلتقي بصديق قديم له في الشارع

حتى يعانقه قائلا: أهلا يا فلان.. حمد لله بالسلامة.. شايف ضبتك عوجة رجعت إمتى؟

وإذا كان من العسير علينا الآن معرفة اسم البلد الذي عوج ضبة كل مغترب فيه فإن الأشد عسرا هو الوقوف على سر العلاقة بين خراب بيت الحلاق وبين أكله للملوخية بالعيش الطري، إذ يقول المثل:

«ملوخية وعيش لين يا خرابك يا مزين»..

هنا يراودك شعور بالأسف على رعونة هذا الأسطى الذي تهور وأكل الملوخية بعيش طري برغم علمه بالعواقب الوخيمة لتناول هذه الوجبة للأسطوات الحلاقين، فما كان أغناه عن خراب بيته لو أنه تعقل وأكل الملوخية بعيش ناشف ولكن النفس دائما أمارة بالسوء..

ولسوف تأتي أجيال وتذهب أجيال إلى يوم الدين دون أن تكتشف البشرية السر في تحريم أكل الملوخية بالعيش اللين على كل مزين!

بل إن جانبا كبيرا من الأمثال المسجوعة سوف يظل مستعصيا على الفهم والتفسير، إليك مثلا.. هذا المثل الشائع الذي يقول:

«يا قلبي يا كتاكت يا ما أنت مليان وساكت»..

هنا يقف الذهن البشري حائرا أمام هذا القلب الكتاكت ترى ما هو القلب الكتاكت؟ لا بد أن كتاكت هذه لها علاقة بالامتلاء، امتلاء القلب بالهموم، فهل كتاكت هذه وحدة مكاييل للسوائل كاللتر والجالون؟ هل يقال مثلا هذه امرأة قلبها كتاكت أي قلبها

سعة خمسين لتر هموم؟ وإذا كانت كتاكت هذه وحدة مكاييل، فلماذا لم نسمع أن رجلا دخل محطة بنزين بسيارته وقال للعامل: كتاكت سوبر من فضلك؟

إن المسألة تزداد تعقيدا عندما نجد أمامنا في الأمثال طرازا آخر من القلوب:

«يا قلبي يا كتكت اسمع الكلام واسكت»..

هذه حيرة جديدة أمام ذلك القلب الكتكت، ولا حدود لحيرتنا عموما أمام أمثلتنا المسجوعة فهي في حاجة إلى مذكرات تفسيرية لنا تكشف غوامضها، فأنت إذا سمعت المثل الشائع الذي يقول:

«بين حانا ومانا ضاعت لحانا»!

استعصى عليك الإلمام بالظروف الغامضة التي ضاعت فيها لحية هذا الرجل بين أيدي حانا ومانا، وهل حانا ومانا رجلان أم امرأتان؟ وإذا كانا رجلين فهل هما مدرسان خصوصيان؟ وإذا كانتا امرأتين فما الذي أوقع هذا الرجل بين أيدي حانا ومانا؟ وما هي البواعث التي دفعت بهما إلى نزع شعر لحيته؟ هل هما ضرتان اتفقتا عليه؟ وهل وجدت كل من حانا ومانا في تقليع شعر لحيته تسلية تعوضها عن سخف برامج التليفزيون؟ ثم هذا المثل:

«كنت مرتاحة جت لي حاحة»..

نحن هنا أمام اسم غريب مألوف لسيدة تخصصت في قلة الراحة، ولا أحد يعرف الأسباب والملابسات التي دفعت بوالدها إلى أن يقيديها في سجل المواليد باسم حاحة، غير أننا يجب أن نطرح كل

هذه التساؤلات جانبا لأنها لن تؤدي بنا إلى نتيجة، فإن عالم الأمثال يحفل بأسماء غريبة جدا لا وجود لها في عالم الواقع، كأسماء هذا الثلاثي المرح في المثل القائل:

«جايب لي زعيط ومعيط ونطاط الحيط»..

وهذا ثلاثي آخر..

«شنح وجنح وحبل غسيل، تلاتة مالهمش مثيل»..

هذا الأخ «زقزوق» الذي زوجوه من ظريفة، كذلك من أشهر أخبار الزيجات التي تتردد على ألسنة الناس جيلا بعد جيلا هو خبر زواج «مشكاح» و«ريمة» ولقد ظلت «ريمة» موضع اهتمام خاص من النساء فكن يتعقبن أخبارها ويتلصصن على أسرارها، حتى صحت الدنيا ذات صباح وكل امرأة تهمس في أذن الأخرى:

«رجعت ريمة لعادتها القديمة»..

وما إن تهمس المرأة بهذا السر الخطير حتى تدق الأخرى صدرها بيدها وهي تشهق. ومن هذه الشهقة الممتزجة بالدهشة البالغة نستطيع أن ندرك أهمية ذلك الخبر الخطير الذي لا يزال الناس يتناقلونه عن رجوع ريمة لعادتها القديمة. كذلك من الشخصيات الشهيرة في دنيا الأمثال ـ ولا مثيل لاسمها في دنيا الواقع ـ السيدة «ردا» التي أخذوا عليها ـ بعكس ريمة ـ أنها لم تغير أبدا عادة من عادتها لا القديمة ولا الجديدة. فكانت تتلقى مكالمات تليفونية في أصوات مجهولة تعيرها قائلة:

«طول عمرك يا ردا وانت كده»..

ومن الأسماء التي نلتقي بها في الأمثال: مرجانة..

يبدو أنه اسم فني. اسم شهرة: فاتنة الرقص الشرقي مرجانة. يبدو أنها أيضا راقصة هرمية الجنسية من شارع الهرم، موهوبة في اجتذاب الزبائن وجمع النقوط فوق صدرها المرمر، إذ يقول عنها المثل:

«كل من جانا يحب مرجانة»..

.. وهذا «عبد الله».. رجل ثقة شديدة والظاهر أنه «بياع مزاج»..

«خد من عبد الله واتكل على الله»..

وهذا اسم لرجل ليس محل ثقة: بندق السيد الوزير بندق واضح من المثل أنه وزير وأنه كثير التصريحات:

«سيدي بندق ما أصدق»..

.. وهذا «زعرب».. ولا أحد يعرف على وجه التحديد ما هي الخطيئة الكبرى التي ارتكبها هذا الزعرب حتى ذهب كفره مثلا:

«كفر زعرب».

وهذا «أبو راضي».. عميد أسرة يؤمن بالحكمة المأثورة المنقوشة على التاكسيات: يا ناس يا شر بطلوا أر، فالمثل الحسودي يقول عن أسرته:

«زي عيلة أبو راضي المشنة مليانة والسر هادي»..

وهذه «زهرة».. الظاهر أنها من ممثلات الإغراء العاريات ويصعب عليك التعرف عليها إذا صادفتها في الطريق وهي ترتدي فستانا:

«من قلة عقلك يا زهرة خليتي لك في البلد شهرة»..

.. وهذا بعجر:

«زي بعجر أغا ما فيهش إلا شنبات»..

.. وهذه «أم عامر» التي قضت العمر وهي تمسك بين يديها بمنخل. ماذا كانت تنخل؟ الله أعلم، المهم أنها كانت تتلقى من الرائح والغادي هذه العبارة تشجيعا لها مواصلة النخل..

«انخلي يا أم عامر»..

أما الأخ «عاشور» فمن الصعب الإحاطة بأسباب الألاطة الشديدة التي كان عليها حتى قال فيه المثل:

«طظ يا عاشور»..

وهذا مرزوق.. والمثل الذي يحمل اسمه يكشف لنا عن طموح الرجل وعظيم صبره وقوة احتماله في طلب المعالي، فيعلو فعلا فوق مقعد فريد من نوعه:

«زي مرزوق يحب العلو ولو على خازوق»..

وهذا الاسم جديد جدا اسم «أوريجينال»: شخرم:

لماذا لا نعدله إلى: «بعد الجوع والقلة بقالك مرسيدس وڤيللا»..

كذلك المثل القائل: «قيراط بخت ولا فدان شطارة»..

ألا يصبح أكثر وقعا لو عدلناه إلى: «قيراط كوسة ولا فدان شطارة»..

فإذا كان التعديل في الأمثال غير جائز لمقتضيات تراثية تتطلب الاحتفاظ بنصوصها التي قيلت بها، فلماذا ـ وهذا السؤال الثاني ـ تقتصر أمثالنا على ما قاله الأجداد؟ أليس من حقنا أن نضيف إليها أمثالا عصرية جديدة؟

أعتقد أن هذا من حقنا.. فلماذا إذن لا نجتهد ونبتكر أمثالا مودرن مثل:

ـ «بعد العدس والفريك بقالها بوتيك»..

ـ «مالك مهموم دي الهمة قال ابني في الثانوية العامة»..

ـ «الكل خدام مطرح ما أروح ما دام باشاور باللحلوح»..

ـ «إيه عملك حصان أصيل يا جحشي قال مشيت في سكة القرع والمحشي»..

«غبت فين سنة يا أبو اليسر قال الورق كان ناقصه ختم النسر»..

ـ «يا بو السر هادي والبال راضي وممنون، قال عقبالكم لما تبيعوا التليفزيون»..

ـ «أربع ولاد وعشرين درس خصوصي يا خراب بيتك يا خلوصي»..

ـ «بعد أكل المدمس ولبس الهلهولة بقالك عمارات وسراية مهولة عقبالنا يا عم يا بتاع العمولة»..

* * *

الكلاميون

الوعود المعسولة أو التصريحات موجودة في كل بلاد الدنيا للمزايدات الحزبية غالبا، ولكنها ليست على الصورة الحادة التي ننفرد بها، ولعل ما يشجع على كثرة الإدلاء بالتصريحات هو طاقة استيعاب الذاكرة عندنا، فلا يمكن لذاكرتنا أن تستوعب تصريحات قيلت على امتداد القرون والسنين، ولو جئنا بأعظم كمبيوتر في العالم لنخزن في ذاكرته كل تلك التصريحات لانهارت ذاكرة الكمبيوتر: تصريح للوزير حار ـ حوتب عن وضع خطة عاجلة لحل مشكلة النظافة في مدينة منف. تصريح الوزير أبو هلال الفاطمي عن الثورة الإدارية وتيسير الإجراءات على المواطنين. تصريح الوزير القاسم ابن طولون عن الإجراءات التي ينوي اتخاذها لتحسين رغيف العيش. تصريح الوزير كتخذه بك عن ترشيد الإنفاق الحكومي، وهو التصريح الذي أدلى به وهو يركب بغلة آخر طراز مستوردة من أستراليا..

وإذا كان الكمبيوتر يعجز عن استيعاب هذا كله فكيف يتسنى لمخ بشري أن يلاحق ويتذكر ما يقال له ليل نهار منذ سنين طويلة.. ليس

صحيحًا إذن ما يقال إننا بلد كل شيء فيه ينسى بعد حين.. الصحيح أن كمية التصريحات والنوايا الطيبة والوعود التي قيلت على مر السنين يستحيل أن تستوعبها مراكز ذاكرتنا في الرؤوس!

ورغم الحضارة القديمة إلا أننا لم نسمع ـ كما يحدث في الدول المتحضرة ـ أن «حور ـ حوتب» قد أقيل من منصبه مثلا لأنه كذب على الشعب. فكل ما نعاقب به أي مسئول كذاب هو أن نتعجب لكذبه كما يشرح ذلك المثل القائل: «أسمع كلامك أصدقك أشوف أمورك أتعجب!».

وما من شك أن أمثالنا الشعبية تزخر بمواقفنا وآرائنا تجاه الكلاميين من المسئولين، والأرجح أن هذا المثل الشعبي الآتي عن التصريحات قيل أيام الحاكم بأمر الله عندما كانت دواوين الحكومة تعمل ليلا والتصريحات تقال ليلا، إذ يقول المثل: «كلام الليل مدهون بزبدة يطلع عليه النهار يسيح»..

ولا ينبغي أن نعفي أنفسنا من المسئولية؛ إذ إننا نشجع المسئولين من الكلاميين على قول التصريحات؛ إذ إننا متسامحون ترضينا الكلمة الطيبة مهما كان الكذب فيها واضحا، فيقول المثل الشعبي: «الكلام الطيب ينخي». أي يحمل الإنسان على القبول والسكوت والرضا.. والمثل الآخر يقول: «كلمة حاضر تريح التعبان».

غير أن هناك عشرات الأمثلة التي تدين قول التصريح مثل: «كتر الكلام خيبة»، «كتر القول قلة عقل»، ويقول الشاعر القديم: «زيادة القول تحكي النقص في العمل»..

وواضح جدا من الأمثلة الشعبية أن حق الكلام طوال عصور

القهر كان وقفا على الحكام، إذ تلوح في أمثالنا عاقبة الكلام أو مناقشة الحكام مثل «اللسان عدو القفا» و«لولاك يا لساني ما انسكيت يا قفايا»!

* * *

في عيد الحب!

في عيد الحب سألتني صحفية شابة: كيف تفسر هذا التناقض؛ أنتم آباؤنا الذين تقيمون عيدا للحب وأنتم آباؤنا الذين تحاربوننا إذا أحببنا؟!

قلت لها: نحن لا نحارب الحب بدليل احتفال الآباء بعيده، لكن بعض الآباء علمتهم التجارب الخوف على القلوب الشابة من الاندفاعات العاطفية.. أو لعلهم ـ بناء على تجربة شخصية مرة ـ يعرفون أن الحب قد تكون له غالبا خاتمة مروعة وهي الزواج!

لقد قطع الحب شوطا طويلا للاعتراف به على مستوى الأسرة، وبعيدا عن اتهام الآباء بضرب الحب أقول لك إنه كانت هناك خصومة مستمرة بين الناس جميعا وبين الإنسان العاشق، فحتى الذين مارسوا الحب عفيفا طاهرا لم يسلموا من ألسنة الناس إلى يومنا هذا: فقيس ابن الملوح مجنون رسمي، وقيس لبنى مضطرب العقل، وكُثَيِّر عزة ملتاث. وجميل بثينة مختل، وفي العصر الحديث وقف الناس والدولة ضد حب الملك إدوار ومسز سمبسون، وفي العصر القديم وقفت روما بحد السيف ضد كليوباترا وأنطونيو!

وفي المقابل وقف العشاق موقف النفور الشديد من الناس، إذ نرى قصائد الشعراء وأغاني العشاق تندد بالناس: اللائم منهم والعاذل الشامت، فيقول شوقي: «يا لائمي في هواه والهوى قدر» ويقول أيضا «ما بال العاذل يفتح لي باب السلوان وأوصده»، وتعبر الأغاني عن دسائس الناس تجاه الحبيب والمحبوب فيقول عبد الوهاب: «أحبه مهما أشوف منه» ويصرخ فيهم فريد الأطرش: «يا عواذل فلفلوا»، وتعبر أم كلثوم عن رأي العشاق جميعا في أن البعد عن الناس غنيمة:

«بعيد بعيد أنا وأنت.. بعيد بعيد وحدينا»!

وجائز جدا أن يكون سر هذه الخصومة بين الناس والعاشق هو حسدهم للمحبين إذ يقول عبد الوهاب: «حسدوني وباين في عينيهم»، ويقول عبد الوهاب أيضا متقمصا شخصية قاسم السماوي: «يصعب عليَّ أشوف غيري عاش متهني»، وناقص يقول: «جتنا نيلة في حظنا الهباب!».

والعاطفة التي كان ينبض بها قلب إنسان العصر الحجري لا تزال هي العاطفة التي ينبض بها قلب إنسان عصر الليزر، فلا يتغير من الحب على الزمان غير أساليب التعبير ووسائل اتصال المحبين؛ فلو وجد روميو التليفون لما استعمل السلم الحريري، ولو كان في عصر الحرملك اختلاط لما ظهرت وظيفة المرسال الذي كانت تتحدث عنه الأغاني القديمة: «وابعت لك مرسالي واقولك يا غزالي من فضلك تعالى لي». وفي كل عصر يثبت الحب أنه قوة داهمة تصنع المعجزات وتنتصر على العقبات وتكتسح أمامها كل الاعتراضات. ولا أدل على قوة الحب من أن الرجل يقبل عليه رغم معرفته الأكيدة بأن الحب وجبة شهية لذيذة يعقبها عسر هضم رهيب اسمه الزواج!

قراقوش

في ذكرى العندليب الراحل عبد الحليم حافظ طالب البعض محافظة القاهرة بإطلاق اسم عبد الحليم على الشارع الذي كان يقطن به في الزمالك ويحمل اسم: شارع بهاء الدين قراقوش.

وقراقوش حظي بشهرة خاصة بين المصريين على مر السنين، فقد قدم نجيب الريحاني مسرحية اسمها «حكم قراقوش».. وعندما تضيق زوجة بالأوامر الصارمة من زوجها فإنها تستغيث قائلة: «ولا حكم قراقوش»، وعندما يضيق مرؤوس من استبداد رئيسه يصيح فيه: «إنت قراقوش!». وهكذا أصبح قراقوش رمزًا للحاكم المستبد الظالم..

مع أن قراقوش مظلوم. فهو ليس رمزا لجنون الحاكم، لكنه في واقع الأمر نصب تذكاري تاريخي للسخرية الشعبية المصرية عندما يشهرها المصريون سلاحا فتاكا في وجه حاكم لا يرضون عنه..

قال المصريون عن تخلفه العقلي إن صقرا هرب من قراقوش فأمر بإغلاق باب زويلة حتى لا يجد الصقر منفذا للفرار من القاهرة. هل من المعقول أن يكون قراقوش بهذه العقلية الغبية وهو الذي كان

موضع ثقة صلاح الدين ومن أبرز قواده؟! وإذا كانت لفظة قراقوش أصبحت تثير الضحك فإن معناها بالتركية ليس كذلك، إذ إن «قرة قوش» تعني «النسر الأسود»..

في عهد صلاح الدين اقترن تغيير مذهب الدولة باضطرابات داخلية إلى جوار الخطر الخارجي وهو التصدي للصليبيين، فإذا أضفنا إلى هذا كله سوء الحالة المالية ومعاناة الشعب استطعنا أن نتخيل حجم سخط الناس، ولكن لأن صلاح الدين كان بطلا أسطوريا، فقد ارتفع عن كل نقد في عيون المصريين واتخذوا من قراقوش هدفا لغضبهم؛ إذ كان ينوب عن صلاح الدين في حكم مصر، وكان شديدا وحاسما وعادلا ورجل دولة يمسك بالزمام أمام الفتن الداخلية للفاطميين، وبقدر ما نزه المصريون صلاح الدين عن أي خطأ، مرغوا قراقوش في الوحل وصورته السخرية المصرية أحمق يثير الضحك حتى غلب سيرة جحا واشتق الأتراك من اسمه «القره جوز» أو الأراجوز..

وقد جاء في كتاب ابن مماتي - الذي أضاف إليه المصريون الكثير جيلا بعد جيل - أن مدينًا تقررت محاكمته لأنه يسوف في تسديد دينه فشكا المدين إلى قراقوش أنه يريد تسديد دينه ولكنه لا يعثر على الدائن فأمر قراقوش بحبس الدائن حتى يسهل على المدين معرفة مكانه..

هل من المعقول أن رجلا يثق فيه صلاح الدين كل هذه الثقة يفكر هذا التفكير الأحمق؟!

ثم تذهب خفة الدم المصرية إلى أقصى مداها فيقولون عن بهاء

الدين قراقوش ـ الرجل المتزن العاقل ـ إن امرأة جاءت إليه تشكو جنديا من جنوده ضربها فأجهضها، وهنا استشاط قراقوش غضبا وأمر الجندي بأن يعيد المرأة إلى زوجها حاملا كما كانت!

* * *

أم شناجر

في مجال العمل التقيت بأشخاص لهم أسماء غريبة مثل: دعبوس، وفناشي، وليت، وهنتش، وشناجر، والفسل، ويزيد الأمر غرابة أنها الأسماء الأولى وليست اسم الأب أو الجد، كذلك صادفني أسماء نسائية تثير التساؤل مثل: افتكرني، وفلافل، وبشوكها!

وقد نستنتج من اسم افتكرني أن أحد الوالدين كان يمر بحالة عاطفية دفعته إلى إطلاق هذا الاسم على المولودة.. وقد تعني فلافل ما معناه يا عواذل فلفلوا، كما أن الذي سماها «بشوكها» قصد أن تكون البنت وردة جميلة لكنها شائكة الملمس لكل طامع. غير أن الذي يحيرني كثيرا، كيف يذهب أب إلى سجل المواليد ويسمي ابنه هنطش أو فناشي أو شناجر؟

ولقد اشتد فضولي إزاء هذه الأسماء، فاستفسرت من بعضهم عن أصلها، وتبين أن ليت أسموه في سجل المواليد ليث ـ أي أسد ـ لكن الموظف وضع شرطة على الحرف الأخير فانقلبت من ليث إلى ليت. وصممت المدرسة على التمسك بالاسم الرسمي فشاع وذاع اسم ليت. «بمد الياء وليس بتسكينها» أما شناجر الذي لا يعرف لاسمه

معنى في أى قاموس فيحكي أن أباه قد انفصل عن والدته وتزوج من أخرى فصمم أن يسميه شناجر حتى يصبح اسمها أم شناجر... ها ها ها..

ويفطس الأب من الضحك لهذه النكتة التي كان يرويها في كل مكان انتقاما من زوجته السابقة!

وكشف الفسل عن سر اسمه الغريب فقال إنه جاء بعد خلف خمس بنات، فأراد أبوه أن يقلل من شأنه ومن قيمته خوفا من الحساد وسماه الفسل، والفسل باللغة العربية الدارجة تقترب من معنى الصعلوك، وفي اللغة الفصحى: الفسل هو الرذل!

والحمد لله أن أبي لم يكن متأثرا بعادة قدماء المصريين الذين اخترعوا الأسماء القبيحة للذكور حتى يرفعوا عنهم شر الحسد، وشكرا لله أنه لم يسمني السنكوح أو صرصار الحيط.

وكثير من الناس يطلقون أسماء على أولادهم وبناتهم دون أن يعرفوا معناها، فلا أحد يعرف معاني الأسماء التي انتشرت أيام ستي مثل بنباقادن، بنباكَشَّر، ونظلي شاه، وجلفدان وماهيفيش، وناظكتار، وترنديل، وشيفيكار.

ولا يزال الناس يطلقون الأسماء العربية دون أن يعرفوا معناها أيضا، فقد قال لي صديق إنه أطلق اسم عفراء على ابنته لأنه سمع أسمهان في مجنون ليلى تقول: «عفراء تعالي نقض حقا وجبا.. خذي وعاء واملئيه لابن عمي حطبًا» والواقع أن كل الأسماء العربية ذات معاني جميلة، فعفراء مثلا معناها بيضاء وأميمة تصغير أم وميادة وميسة أي التي تمشي تتبختر، ومها هي البقرة الوحشية التي اشتهرت

بسحر العيون وجمالها، وسهيلة من سهيل وهو النجم، والسهى اسم أبعد كوكب ورباب: سحاب، وسحر هو وقت ما قبل الفجر ومنه السحور والمسحراتي، ونهلة من أحلى الأسماء العربية، فهو مشتق من المنهل أي ينبوع الماء الصافي، ووائل أي من يلجأ إليه الناس، وهيثم وهو فرخ النسر وزياد ووليد وطارق وياسر، كذلك انحسرت موجة الأسماء القبيحة التي كان يروج لها لاعبو الكرة وهم يتسمون بها مثل لوفة وخيشة وللاللي والعجران والسكران، وكان الأطفال يتعلقون بهذه الأسماء البطولية في عالم الكرة وتصبح أمنية كل منهم أن يصبح اسمه الجردل أو الجربان.. ولم يعد باقيا من هذه الأسماء إلا اسم العضاض وهو اسم الشهرة الذي انتشر بين بعض مؤلفي المسلسلات..

* * *

فوازير لغوية

زاني مستشرق أوربي ذات يوم بصحبة الأديب الكبير جمال الغيطاني، وقال إنه متخصص وباحث في اللغة العامية المصرية.. ولكنه لا يفهم لغة كمبورة في كاريكاتير مصطفى حسين بالأخبار! وقلت للمستشرق إن كمبورة يمثل شخصية مرفوضة ويتحدث بلغة خاصة تنتمي إلى نوعيته، وهي اللغة التي أطلقت على ورق البنكنوت الأستك والباكو والأرنب: أي مليون جنيه..

وقلت ردا على سؤال له إن القارئ يسهل عليه معرفة معنى اللفظ لأن اللغة العربية تتميز بأنها تحفل بتخصيص ألفاظ لمختلف الأصوات مثل أزير وهدير وزئير وصليل، فالحروف ـ صوتيا ـ تعطي المعنى والمدلول، وإن هناك حروفًا إذا اجتمعت بعضها مع بعض أعطت معاني متقاربة في مختلف الكلمات فإذا جمعت مثلا حرفي «ش» و«خ» وجدت معنى التصدع والتشقق مثل شاخ، وشرخ، وشخرم، وخشرم!

وإذا جمعت «ق» و«ط» أعطتك معنى واحدًا مثل قطع وقطش وقطر وقطف!

وفي كتاب دلالة الألفاظ للعالم اللغوي د. إبراهيم أنيس أورد المؤلف ألفاظا عربية مهجورة هي أشبه بالفوازير ثم عرض هذه الألفاظ على مجموعة من طلبته بكلية دار العلوم وعددهم ٢٤ وسأل كل طالب أن يسجل ما توحيه كل لفظة من دلالة في ذهنه..

وهذه الفوازير اللفظية أو الألفاظ المهجورة هي بالترتيب: الهبلع ـ الجرفاس ـ الخيتعور ـ النعثل ـ القهبلس ـ القذعملة ـ الطربال ـ الشعنوف ـ العثلط ـ القفندر..

جرب أنت أيضا ـ مع الطلبة ـ معنى هبلع وخيتعور والقهبلس.. لقد جاءت التفسيرات كالآتى:

١ ـ الهبلع: فسرها تسعة من الطلبة على أنها الأبله العبيط.. وفسرها أربعة على أنها الضخم المهول، وفسرها ثلاثة على أنها القصير..

٢ ـ الجرفاس: أجاب ١٤ طالبا أن معناها القوي الضخم والشجاع الخشن.

٣ ـ الخيتعور: أجاب ثمانية من الطلبة بأنها: الذليل الضعيف الجبان الكسلان..

٤ ـ النعثل: لم يجب عن هذه الكلمة سوى ١٣ طالبا فسروها على أنها الهادئ النائم الوديع..

٥ ـ القهلبس: فسرها عشرة طلاب بأنها المرأة الضخمة البدينة..

٦ ـ القذعملة: فسرها ١٤ على أنها القصيرة القميئة..

٧ ـ الطربال: فسرها ١٧ طالبا على أنها البناء الضخم العالي الشامخ، ووصفها ٣ بأنها المتهدم المنهار..

٨ ـ الشنعوف: فسرها ١١ طالبا بأنها قمة الجبل وقال ٣ أسفل الجبل.

٩ ـ العثلط: أجاب ١٧ طالبا بأنه اللبن المتجمد المتخمر..

١٠ ـ القفندر: قال ١٢ طالبا إنها صفة للجميل، وقال ٨ من الطلبة إنها صفة للقبيح..

وهـذه هي حلول هذه الفوازير اللغوية أو معناها باللغة الفصحى..

١ ـ الهبلع: معناها اللغوي الأكول النهم..

٢ ـ الجرفاس: الضخم..

٣ ـ الخيتعور: الخداع المختال..

٤ ـ النعثل: الشيخ الأحمق..

٥ ـ القهبلس: المرأة الضخمة..

٦ ـ القذعملة: القصيرة القميئة..

٧ ـ الطربال: البناء الضخم الشامخ..

٨ ـ الشنعوف: القمة..

٩ ـ العثلط: المتجمد المتخمر..

١٠ ـ القفندر: القبيح المنظر..

وكل فوازير لغوية وأنت طيب..

الكوسة!

سألتني صحفية شابة: من أين جاءت كلمة كوسة؟ وقلت لها: نحن قوم كوسيون من قديم الزمان، فالكوسة فيما مضى كانت شيمة طيبة فينا قبل أن تصبح آفة وقبل أن تغدو لفظة عصرية بغيضة ربما يتولاها المجمع اللغوي بسك المشتقات اللازمة منها مثل: كَوَّسَ يَكَوِّسُ تَكْوِيسًا، ويقال هذا الرجل كَوَّاس وهذا مِكْوَاس وهذا مَكْوُوس وهذا أمر تمكوس ـ بفتح الكاف ـ أي دخلت فيه الكوسة..

ونحن قوم يحس أفراده بالانتماء بعضهم إلى بعض، فهناك مثلا منظر مألوف في الدرجة الثالثة بالقطار رجل يجمعون له ثمن التذكرة في منديل والركاب ـ على حاجتهم ـ يدفعون عن طيب خاطر دون أن يعرفوه ولكنه الانتماء.. وهذا شاب يعاكس فتاة في الطريق فننهره ونزجره لأننا نشعر أن هذه البنت ـ دون أن نعرفها ـ تنتمي إلينا، وهذه سيارة تتعطل في الطريق فيسرع المارة بتقديم المساعدة، والممثل أو الممثلة أو مذيعة التليفزيون لا تحقق نجاحها الجماهيري إلا بقدر ما تشعر كل إنسان بانتمائها إليه: أخته ـ ابنته ـ ابنة أخته ـ واحدة من بيوتنا..

وكوسة زمان هي وليدة الانتماء خاصة في الريف، فالكبير في

القرية يأخذ بيد الصغير، وكل أسرة كبيرة في القرية يشغل أفرادها مناصب في البندر أو العاصمة مطالبة ـ بحكم تقاليد القرية ـ بتوظيف ابن أي فلاح فقير نال شهادة صغيرة أو كبيرة.. وإذا لم تفعل فهذه عيبة كبيرة في حق الأسرة تدين أقطابها بالخسة والنذالة. فمن أخلاق القرية نبعت الأمثال الشعبية التي تعبر عن الارتباط والتعاطف مثل «زيتنا في دقيقنا» و«زي قواديس الساقية المليان يكب على الفاضي» وتصبح الإدانة أكبر إذا أهمل كبير في القرية مطلبا لفلاح من قريته وحقق نفس المطلب لفلاح آخر من خارج قريته ومن هنا جاءت كلمة كوسة، فالكوسة، نبات من الفصيلة القرعية، والقرع دائما يخرج من خط زراعته ويمتد فارشا إلى خارجه لذلك يقول المثل الشعبي: «زي القرع يمد لبره» والمثل ـ كما هو واضح ـ يدين من يخدم البعيد قبل القريب..

غير أن الكوسة الحميدة التي يفرضها الانتماء إلى الأهل والمكان تطورت مع الزمن إلى كوسة خبيثة، ليس مبعثها الانتماء لكن دافعها المصلحة الشخصية وعشق الفلوس وإرضاء ذوي النفوذ، بل إننا حققنا إنجازا تكنولوجيا مذهلا عندما فتحنا بطن الكمبيوتر سنة ٧٤ وزرعنا فيه الكوسة، فقام هذا الكمبيوتر بتوزيع شقق عمارات الأوقاف على الوزراء فقط، إذ برمجوا ذلك الكمبيوتر بحيث لا يعطي الشقة إلا لكل من يحمل صفة وزير، وقد دهش يومها المسؤولون عن توزيع هذه الشقق عندما أعطى الكمبيوتر الشقة لموظف في الدرجة الخامسة بجمرك الإسكندرية، ثم تبين أن الكمبيوتر كان في منتهى النباهة ولم يخطئ، فقط كان الاسم الثلاثي لهذا الموظف عبد الله حسن الوزير!

تحيا الستات

حوصرت بأكثر من ثلاثين سيدة يتطاير من أعينهن الشرر ظنا منهن أنني أعادي المرأة، وذلك بعد أن استدرجني بعضهن إلى ذلك الفخ على شاطئ البحر خلال إجازة قصيرة.

وأكدت لهن أنني لم أكتب أبدا أن المرأة لا تصلح رئيسة عمل، بالعكس، طول عمر الرجل تحت رئاستها وليدا رضيعا في حجر الأم، ثم طفلا في حضن مشرفة الحضانة، ثم مراهقا تتلقفه بنت الجيران، ثم شابا يريد دخول الدنيا، ثم زوجا دخل الآخرة.

ولا عجب أن تحسن المرأة إدارة عمل، فهي بحكم استعدادها كربة بيت نراها موهوبة بالفطرة في فن الإدارة، كما أنها أكثر مقدرة من الرجل في علاج المشاكل الاقتصادية، وإذا قيل إن المرأة مبذرة فهذا افتراء، إذ ثبت أن المرأة تحرص كثيرا على المال الذي تكسبه من عملها، ولا تبعثر إلا فلوس الزوج لا لمجرد الرغبة في التبذير، ولكن لاعتبارات استراتيجية عليا متعلقة بأمنها الشخصي وطبقا لقواعد الأمن والسلامة الموروثة عن جدتها: «قصقصي طيرك ليلوف بغيرك».

ثم إن المرأة أقدر على التعامل مع الآخرين بالسياسة والحيلة والقدرة على المناورة والإقناع.. ولعلنا نذكر في هذا المقام حادث التفاحة الشهير. والمرأة بطبيعتها بشوشة الوجه، فهي الرئيسة في العمل التي لن تطالع مرؤوسها بوجه متوتر اللهم إلا إذا كان هذا المرؤوس زوجها.

وهي ـ كرئيسة عمل ـ ليست أسيرة عواطفها كما يزعم البعض. ففيما عدا عاطفة الأمومة. فإن المرأة تستطيع أن تتجرد بسهولة من كل عواطفها، وأن تأتي أعمالا يعجز الرجل عن القيام بها كالسيدة تاتشر والسيدتين ريا وسكينة.

وقد يتصور البعض أن السيدة تاتشر اختراع جديد من النساء، أبدا، فالتاريخ مليء بالسيدات الحديديات، ذلك أن كل امرأة تتوافر لها ظروف السلطة والقيادة نراها تجنح إلى ممارسة القوة وأحيانا القمع، ويتجلى ذلك واضحا في الزوجات.

وهي تلجأ إلى ممارسة القمع والعنف لتغطية إحساسها بالضعف ناحية التركيب الجسماني، ودفعا لاعتقاد الآخرين بأنها مخلوقة هشة يسهل التغلب عليها، وقد ثبت أن عقلية المرأة تتميز بعمق الإدراك، يساندها في ذلك جهاز عصبي مدرع، أقوى وأشد متانة من الرجل والطريقة التي تفكر بها سيدة مثل أجاثا كريستي في كيفية ارتكاب الجريمة وإلقاء الغموض والظلال على الشخوص تكشف بوضوح عما تتمتع به عقلية المرأة من القدرة على التخطيط الدقيق والتنفيذ المحكم في الخلاص من جثة الزوج.

* * *

مساء الخير أيها الأزواج

قرأت إحصائية عن متعاطي المخدرات كشفت عن أن الرجل المتزوج يمثل النسبة الكبرى في قائمة المدمنين على الحشيش، يليه الأعزب، فالمطلق فالأرمل.

ولا شك أن هذه الإحصائية قائمة على الدراسة الميدانية وليست على الفراسة كأيام زمان، ففي الماضي كانوا يخلطون بين مظهر الزوج ومظهر المدمن لشدة التشابه بينهم في تقوس العمود الفقري وتهدل الكتفين وطأطأة الرأس والبصر الزائغ، فكان رجال الشرطة إذا اشتبهوا في شخص سحبوه للتحري وفي القسم يتضح أنه زوج مزمن لا مدمن.

ولعل سبب ارتفاع نسبة الإدمان بين المتزوجين يكمن في أن الزواج نظام قهري كأي نظام سياسي ديكتاتوري فلا يختلف الزوج عن أي شخص تحت الحكم الشمولي، فحرياته مصادرة، وجيوبه مؤممة والمشاكل تحاصره، والضغوط الاقتصادية تحيط به من كل جانب، فتنشأ بينه وبين الواقع الخارجي خصومة حادة، ولا يبقى له مهرب ـ في تقديره ـ إلا الجوزة حيث يفتعل خلق حالة من البهجة الكاذبة والسلطنة.

والحشيش يخلق لمثل هذا الزوج المقهور إحساسا متضخما بالعظمة والأهمية لا وجود لهما في واقع الأمر داخل البيت، كما يؤدي الحشيش إلى انحسار الإحساس بالمسؤلية والخجل والتحفظ مما قد يتسبب في استئساد الزوج وطول لسانه وبالتالي احتمال نقله إلى عنبر الكسور.

والمفروض أن يصبح الأعزب في آخر قائمة المدمنين لكن ظروف العصر جعلته التالي في الإدمان بعد المتزوج، فإن تفكير الأعزب في الزواج أشبه بمحاولة عبور طريق مسدود، والحشيش هنا يشيع إحساسا مؤقتا بتهوين المشكلة وقبولها والتعايش معها والأمل في حلها.

ثم طبيعي جدا أن تنخفض نسبة التعاطي بين الرجال المطلقين، فالمطلق كان يواجه مشاكل عسيرة وصلت عقدتها إلى الذروة حتى تولى حلها مولانا المأذون.

وإذا كان الأرمل صاحب أقل نسبة في التعاطي، فلأن الأرمل لم يعد في حاجة إلى مخدر، إذ تم فض الاشتباك برحيل الزوجة، ولم يعد يقلق ذلك الأرمل إلا اكتشاف جريمة القتل التي انتهت برحيل الزوجة!

* * *

بوليصة الحب!

إن كل حبيبين يجمعهما الرباط المقدس يساورهما في شهر العسل قلق عظيم يكمن في هذا السؤال: هل يستمر غرامهما ـ كما بدأ ـ قويا حارا مدى العمر؟؟ السؤال قديم وهو يجرنا إلى سؤال آخر: هل تقبل شركات التأمين أن تؤمن على مثل هذا الحب ولو لصالح الزوجة؟

إن هذا سوف يسعد آلاف الزوجات بقبض بوليصة التأمين بعد غياب الحب، لكن من المؤكد أن شركات التأمين لن تقبل هذه المغامرة إلا بعد إجراءات وشروط خاصة، لعل أولها الكشف الطبي العقلي على الزوج، فهذه الشركات تعرف بالطبع أن إقدام الرجل على الزواج لا يحتاج إلى أي عقل، فإذا ثبت بعد الفحص أنه استرد قواه العقلية وبدأ يدرك الأمور على حقيقتها بندم أليم. فلا بوليصة تأمين طبعا.

فإذا كان لا يزال مختلا فتلك بشرة خير ذلك أن الحب الغرامي المتوهج هو ألطف وأجمل أنواع الخبل العقلي حتى ولو صاحبته ميول انتحارية تدفع الإنسان إلى إلقاء نفسه في بيت الزوجية. كذلك

سوف يتعرض الزوجان ـ قبل التأمين ـ لجهاز المراقبة السرية من جانب الشركة للوقوف على ترمومتر الحب. هل يعاملها كما لو كان يلتقي بها لأول مرة؟ هل هو ـ في المطعم ـ يمسك بيدها ويهمس أم يجلس في المائدة مخروسا شأن كل الأزواج؟ ففي أي مطعم تستطيع دائما أن تميز العشاق من المتزوجين.

ففي الحب تنشط مراكز الكلام في مخ الرجل فلا يتوقف عن الحديث إليها. كما أن تعبيره عن الحب يكون بالصوت والصورة؛ إذ تظهر على ملامحه معالم الهيام كما تظهر أيضا في حركات يديه التعبيرية.

كذلك لن يخلو الأمر من امتحان عسير على جهاز كشف الكذب أسئلة من هذه العينة: إذا كسرت الزوجة شيئا ثمينا أو خبطت السيارة الجديدة مثلا فهل تقول لها: «فداكي يا حياتي ولا يهمك» أم تقول لها: «طول عمرك شعنونة ومجنونة؟».

كما ينشط قسم التحريات في شركة التأمين حيث يعمل جواسيس الشركة خدما داخل بيت الزوجية لكتابة تقارير عن الحالة العاطفية داخل البيت.

ففي الحب مثلا تتعطل مراكز الإدراك في المخ فلا يعرف كل من الجانبين السبب الذي يحب من أجله الآخر، وفي اللاحب تعمل مراكز الإدراك في المخ بكفاءة فتبدأ المشاكل عندما لا يجد كل من الطرفين سببا وجيها لزواجه من الآخر.

وفي الحب تظهر على الرجل بوادر الكلبتومانيا العاطفية فيسرق منها القبلات في البيت وفي اللاحب يشتد داء جنون السرقة عند بعض الأزواج فيسرق القبلات من الشغالة.

كيميا..!

أفسد العلم خيال الشعراء والرومانسيين عندما صعد الإنسان إلى القمر واكتشف أن وجهه المضيء من بعيد هو مجرد صخور وجبال وأخاديد، ومن فوق القمر رأى رواد الفضاء كوكب الأرض مضيئا وهو يواجه الشمس فبدا كالقمر، ولو كان في القمر سكان لقال الحبيب لحبيبته: «شايفة الأرض يا ليلى.. وشك زي الأرض يا روحي!».

حتى الحب حوله العلماء إلى كيمياء.

فلوعة الحب التي تحرق كيان العاشق أصبح تفسيرها العلمي: إفرازات كيميائية. فالمراكز العصبية العليا هي التي تتحكم في العواطف والأحاسيس وتؤثر على غدة الكظر فوق الكلي، فتفرز الإدرينالين، وإفرازات الإدرينالين والكورتين عمليات كيميائية ترجمتها الإنسانية أو السلوكية: مش قادر على بعدك ثانية أبدا يا حبيبي.

وإفرازات التستوستيرون جزيئات محددة النسب من الكربون والأيدروجين هي التي تحدث الجَوَى وعذاب الشوق والحنين ويا حياتي أنا كلي حيرة ونار وغيرة وشوق إليك!

والقبلة: إفـرازات كيميائية في الأعصاب تسبب السعادة والنشوة.

ولو أن عاشقا كتب رسالة غرامية يصف مشاعره بأسلوب العلم لقال لها في الرسالة: يا حبيبتي إن حبك يسلمني إلى جو يشقيني.. إنني أحس في هدوء الليل الآن بفيضان من التستوستيرون يملأ جسمي الضامر الذي أضناه الهوى بل أكاد أرى الإدرينالين يندفع من غدة الكظر بداخلي لينفذ من جلدي ويكسو بشرتي كلها مع الكورتين يا حبيبتي..

وما دام الحب كيمياء فإن أسخف ما سوف يفعله العلم في المستقبل هو انتهاء عصر متعة عذاب الحب والسهد والوجد ودموع الليل، إذ ما إن يتعاطى العاشق حقنة خاصة حتى يلعن المحبوبة ويفطس من الضحك على هبله لأنه يحب البنت الهايفة..

ويبذل العلماء الآن جهودا متواصلة للسيطرة على المخ الإنساني كيميائيا، ونجحت التجارب في كبح السلوك العدواني للمجرم، وهذا يبشر باختراع تعامل كيميائي آخر مع مخ الإنسان يمنعه من العدوان على الناس بتأليف المسلسلات.

بل إن التعامل الإنساني الكيميائي مع المخ الإنساني تجاوز مرحلة التجارب في نواح معينة إلى مرحلة طرح العقاقير تجاريا، فامتلأت مخازن الأدوية في أمريكا بمركبات كيميائية متنوعة: فهذا عقار السعادة، وهذا عقار يعين على تحمل الصدمات النفسية، وهذا عقار يبث الشجاعة عند الرجل في مواجهة زوجته.

وأصل هذه العقاقير كلها اكتشفت مصادفة في الخمسينيات؛ ففي

مستشفى لأمراض الصدر بأمريكا، لوحظ أن مرضى السل يتركون فراشهم ويرقصون في العنابر وهم يتصايحون في مرح شديد، حتى اكتشف الأطباء أن هذه السعادة تنتابهم بعد جرعة دواء من أدوية السل اسمه «إيزونيازيد» وهذا الدواء هو الذي قاد العلماء إلى التوصل إلى مجموعات العقاقير المستعملة الآن ضد مرض الاكتئاب، وهو مرض ينتشر في الغرب وانتقل إلى بلادنا بعد دخول التليفزيون.

* * *

الوالدان

سألوني: هل كانت أمنا حواء شقراء أم سمراء؟ وما شكلها العام؟ وكيف كان في تصورك والدنا آدم؟ ولا أظن أن أمنا حواء كانت شقراء. فمن المؤكد أن حواء ـ بعد الخروج من الجنة ـ لم تستقر مع آدم في أستكهولم أو كوبنهاجن، بل استقرت في أرض الشرق، ومنذ فجر التاريخ وحفيدات حواء في هذه المنطقة سمراوات بشعر أسود وعيون كحيلة، فلا يمكن أن تكون الجدة إذن شقراء، ولا يمكن أن تكون قد غيرت لون شعرها من الأسود إلى الأصفر لاستحالة الحصول على الصبغة التي تحول الشعر إلى ساندريه وأرجنتيه. وأعتقد أن حواء ـ في الجنة ـ كانت في منتهى الرشاقة، إذ كانت تعيش على ريچيم مدهش، فهي تفطر فواكه وتتغدى فواكه وتتعشى فواكه، ولا شك أن هذا الريچيم الطبيعي انعكس على مظهرها نضارة وسحرا وأنوثة، لكنني أشك أنها احتفظت بهذا القوام بعد الخروج من الجنة، إذ بدأت تعرف البتلو والكندوز ولحمة الرأس والفتة بالكوارع ففسد الريجيم بنهاية عصر الفواكه وبداية عصر المسبك والرمرمة.

ولا شك أن حواء فقدت نضارتها ونعومتها بعد الإقامة في

الأرض، إذ كانت مضطرة إلى مساعدة آدم في العمل فامتلأت يداها «بالكالّلو» وقدماها بالشقوق وتجعد وجهها قبل الأوان من التعب والهم وخلف قابيل وهابيل والخناقات مع آدم.

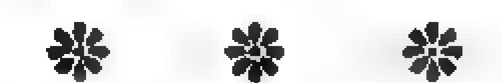
أما عن والدنا آدم فأظن أنه كان يكبر حواء في السن، فلا يمكن أن تكون حواء قد خرجت من ضلعه وهو طفل أو وهو صبي، إذ لا بد أنها خرجت وهو مكتمل البنيان، ففارق السن الكبير محتمل جدا ويؤيد ذلك الانقياد العاطفي الذى أبداه والدنا وانتهى بكارثة التفاحة الشهيرة!

ولا أظن أن حواء قد أغرت والدنا بقطف التفاحة لتأكلها أو تطبخها كومبوت أو تعملها مربى، فالجنة كانت مليئة بالتفاح.. والتفاح أمامها في كل مكان، ولهذا أعتقد أن زَنّ حواء على رأس آدم لقطف التفاحة المحرمة لم يكن مبعثه الرغبة في أكلها، بل لكي تمتحن حبه الشديد لها وإعزازه البالغ لشخصها الغالي؛ ذلك أن المرأة لا تكتفي برصيد الحب في قلب الرجل، فهي في حاجة إلى كلمات تؤكد لها وجود هذا الرصيد، في حاجة إلى أفعال يقوم بها الرجل لتتحقق من ضخامة الرصيد العاطفي في قلبه. فالحب عند حواء وكل حواء بعدها أفعال لا أقوال وليس مهما أن ينزل آدم إلى الأرض بل المهم أن يثبت أن أرصدة الغرام بخير في قلبه وأن حبه أقوى من كل شيء!

ومن حيث مادة الكلام فالذي لا شك فيه أن حواء في الجنة كانت غيرها بعد الاستقرار في الأرض؛ ففي الجنة لم يكن عندها أي أخبار تحكيها عن الجيران والأقارب والمعارف ولم تكن هناك سيرة

تمسكها أو أخبار جديدة تستقبل بها آدم من الباب، ولكن من المرجح أنها كانت تحكي له انهماكها في توضيب المكان الذي يقيمان فيه. ولا بد أنها كانت تتهمه أنه فوضوي وغير منظم إذا داس في حوض الزهور الذي تعبت في تنسيقه أو اقتحم ديكور أغصان إقامته وما إلى ذلك من الإخلال الرجالي بالنظام الذي تضعه ست البيت.

أما في الأرض فأعتقد أن مادة الحديث قد اتسع مجالها أكثر، وأنهما على الأقل كانا يرددان كل خناقة «ديالوج» لا يتغير ولم يتغير ولن يتغير بين كل آدم وحواء إلى ما شاء الله.. هي تقول: إنت السبب، وهو يقول: إنتي السبب!



في السينما توغراف

تقدمت السينما عندنا وتطورت، فاختفى مرض السل الذي كان يداهم البطلة وحل محله السرطان، وانحسر مرض فقدان الذاكرة الذي كان يصيب البطل اكتفاء بأن المتفرج مريض دائم بفقدان الذاكرة ولا يعرف اسم الفيلم الأمريكي الذي نقلوا عنه الفيلم العربي نقل مسطرة، كذلك اختفى المنتج تاجر الخردة وحل محله منتج أكثر رقيا وهو تاجر الخيش، وتقلصت سلطات الموزع وأصبح لا يتدخل إلا في حدود ضيقة مثل تعديل القصة والسيناريو والنهاية واختيار البطل والبطلة والمتفرج أيضا، فهو يطلب أن يكون البطل سباكا ليكون المتفرج سباكا أيضا، يملك القدرة الشرائية أمام شباك التذاكر.

وتطورت القصة أو الحدوتة السينمائية، فبعد أن كان أشخاصها البطل والبطلة والشرير والراقصة، أصبح هؤلاء الراقصة والشرير والبطل والبطلة، أو الشرير والبطلة والراقصة والبطل، أما الحدوتة نفسها فقد روعي فيها ـ منذ اختراع السينما ـ أن تكون معروفة مقدما حتى لا يغضب أحد الأشخاص خصوصا الرقيب، فالموضوع الجديد يعرض الرقيب للمسئولية والمنتج للإفلاس والموزع

لخسارة الصفقة، ورقصة في كباريه مع غنوة مع خناقة كاراتيه أبرك وأضمن من أي فكرة جديدة.

والحق أن السينمائيين حاولوا طرق باب الجديد والأنفع والأجدى ولكن المحاولات تعثرت، ففي مشروع فيلم عن الزعيمة النسائية هدى شعراوي اقترح الموزع أن يقام حفل كبير لهدى شعراوي بعد اشتراكها في أول مؤتمر نسائي عالمي وأن تحيي هذا الحفل الراقصة، زوبة الكلوباتية، وتظل ترقص بالكلوب على رأسها إلى أن تقع على الأرض مغمى عليها، ويقرر الطبيب أن زوبة الكلوباتية حامل وأن زوجها هرب مع واحدة اسمها ذكية العمشة، ومن هنا تبدأ هدى شعراوي في علاج هذه المشكلة الاجتماعية طول الفيلم الذي يشرح إهدار حقوق المرأة وعذاب زوبة الكلوباتية في مواجهة أفعال ضرتها زكية العمشة.

لكن قيل إن الرقابة رفضت فكرة الفيلم.

في مشروع إنتاج فيلم عن الزعيم أحمد عرابي غير الموزع القصة بفكرة أجمل وهي أن يبدأ الفيلم بأن يتوجه البكباشي مراد ـ أحد مساعدي عرابي ـ إلى الكباريه إثر أزمة عاطفية فيظل يسكر ثم يسكر حتى تتلقفه الراقصة المالطية تينا وتغني له بالعربي «حبيتك يابن الإيه»، وتمضي قصة الحب بين تينا والبكباشي مراد طول الفيلم داخل الكباريه وتعرف أن السبب في هزيمة عرابي هي تينا جاسوسة الإنجليز.

لكن قيل إن الرقابة رفضت فكرة الفيلم.

وفي مشروع إنتاج فيلم عن أمير الشعراء أحمد شوقي، حفل

السيناريو بمناظر باريسية وأندلسية خلابة، لكن خلافا تافها دب بين المخرج والموزع، فالمخرج أسند دور أحمد شوقي إلى أحمد مظهر بينما صمم الموزع بأن يقوم بالدور أحمد عدوية.

* * *

إنذارات غرامية

أطلعتني شاعرة غنائية على أغنية لا أذكر نص مطلعها وإنما هو قريب من هذا الكلام. «فاكر نفسك مين.. تفوتني في عذاب وأنين.. فكرك ح تروح مني فين.. دنا أضيعك في غمضة عين..» وتمضي سطور الأغنية في تهديدات غامضة، وواضح من سياق الكلمات أن ليس من بين هذه التهديدات الهجر أو الصد، بل الضرب والأذى وربما القتل.

ولم أدهش لهذا الاتجاه، فنحن في عصر قتل الرجال ودفنهم في الأكياس البلاستيك، وقد بدأت بوادر هذه الموجة بداية غير واضحة في الستينيات عندما قالت أم كلثوم: «للصبر حدود»، إذ حملت كلماتها وألحانها لهجة تهديد وإن كان تهديدا بغير القتل، ثم جاءت مطربات الثمانينيات بأغان تصادمية مع الرجل فهذه تغني أغنية اسمها «إنذار» وأخرى تغني «مش هتنازل عنك» والأرجح أن المعنى الذي ترمي إليه: مش هتنازل عنك إلا جثة.

والذي لا شك فيه أن هذه الأغاني ترمز إلى العصر الجديد الذي يسود فيه العنف النسائي فالأغاني ـ على مدى الزمان ـ تعتبر

مؤشرا لمركز المرأة وموقعها في المجتمع وعلاقتها بالرجل قوة أو ضعفا.

خذ مثلا أغاني موسيقار الأجيال عبد الوهاب. ففي الزمن الذي كانت فيه المحبوبة أسيرة التقاليد خلف الأسوار كان عبد الوهاب يغني لها من خارج الأسوار: «مريت على بيت الحبايب» وهو يصف اللحظة التي وقف خلالها يتطلع إلى البيت بأنها «لحظة هنية»، وذلك أن مجرد المرور بالبيت كان إنجازا عاطفيا مهمًّا. وهو بلا شك إنجاز محفوف بالمخاطر، فلو اكتشف أهل الحي أو «أولاد الحتة» أن عبد الوهاب جاء للبصبصة لبيت بنت الحتة ـ البيت وليس البنت نفسها ـ فسوف يوسعونه ضربا أليما ويشبعونه رجما بالحجارة، إذ كان ذلك العصر هو العصر الحجري للحب. وهو بعد ذلك يتمنى ويحلم بأن يأتي اليوم الذي تغادر فيه المحبوبة بيت الحبايب الذي يمر عليه، وأن يلتقي معها في جلسة رومانسية. يقول عبد الوهاب: «إمتى الزمان يسمح يا جميل.. واقعد معاك على شط النيل»، ثم يتحقق الحلم وتجلس معه المحبوبة على شط النيل، فنراه يأمل في تنوع الجلسات الرومانسية على النيل وغير النيل فيهمس إليها: «اسمح وقوللي يا نور العين.. حشوفك إمتى واقابلك فين»، ولأن العاشق طماع ولا يشبع من لقاء المحبوب، فنرى الذي كان يكفيه ويرضيه مجرد المرور على بيت الحبايب فيقول لها: «أحب أشوفك كل يوم».

وزمان كان العاشق يبكي بحرقة إذا أحس أنه مهدد بفقدان الحبيبة ففي عصر الحرملك والأسوار والمشربيات كانت المرأة عملة صعبة، وكان من العسير الحصول على محبوبة أخرى للسلوى والنسيان، غير أن تطور الزمن أعطى حرية الاختيار. فنسمع عبد الوهاب يقول:

«لا موش أنا اللى ابكي لو جار عليَّ هواك»، والأغنية تدور حول هذا المعنى الدارج: مع ستين ألف سلامة الباب يفوت جمل. وهي لهجة جديدة لم يسبق لعاشق أن قالها من قبل، ولكن الأزواج يقولونها كثيرا طبعا.

وفي الحرملك، لم تكن المحبوبة تعرف القراءة والكتابة؛ ولذلك كانت وسيلة الاتصال هي «المرسال» أي شخص يقوم بمهمة توصيل الكلام بين الطرفين، ثم لما تعلمت المرأة أصبحت تمثل عبئا على رجال البريد، واعترفت هي بذلك وقالت: «البوسطجية اشتكوا من كتر مراسيلي!».

ومع الاختلاط في الجامعة والعمل لم تصبح المرأة هي العملة الصعبة النادرة، فظهرت أغان تقول: «ما تفكريش عشان بحبك مقدرش يوم استغنى عنك»، ثم مع العصر المادي ظهرت الأغاني التي تعبر عن حب المنفعة وزواج المصلحة فسمعنا أغنية تقول: «بحبك لا.. محتج لك آه». وهي أغنية تسفر عن نفعية واضحة بلا خجل، وأنت تستنتج أن البنت التي يغني لها الولد هذ الكلام عندها شقة تمليك أو أن أباها صاحب نفوذ: وزير، أو أن أمها صاحبة فلوس: دلالة جمعية.

وهكذا يتغير منطق الأغاني وفقا لتطور العلاقة بين الرجل والمرأة، وليس غريبا بعد ذلك أن نسمع قريبا مطربة تغني: ياخسيس نويت أعبيك جوه الكيس.

* * *

المأذون.. وعقبات أخرى

يطالب معظم الشباب باستبعاد المأذون الشرعي من عملية عقد الزواج لأنه أصبح يشكل عبئا ماليا بسبب المغالاة في أتعابه التي لا تتناسب إطلاقا مع الجهد الذي يبذله. خاصة أن بعضهم يعتبره جهدا مؤذيا.

والشكوى من المأذون تبدو أمرا عاديا، فبين معظم الناس وبين المأذون حزازات وضغائن إثر واقعة حدثت، وهي واقعة معروفة عند الفلكيين بدخول زحل في برج الجدي ودخول الرجل بيت الزوجية.

وفي رأيي أن الشكوى من المأذون تحسب له ولا تحسب عليه، فالرجل يبالغ في الأتعاب ويفتعل التكاليف بهدف نبيل وهو أن يجعل طريق الإنسان إليه صعبا ووعرا، ورغم هذا كله فالإنسان يسعى دائما إلى المأذون لأن النفس أمارة بالزواج..

فما من إنسان إلا ويعرف عاقبة المثول بين يدي المأذون، تلك العاقبة التي تتمثل في رحلة طويلة تبدأ بأن يبحث كل طرف عما يسعد الآخر، وتنتهي أحيانا إلى أن يستقر الزوج في كيس بلاستيك وبئس القرار.

بل إن المأذون وتكاليفه وأتعابه يعتبر أسهل العقبات في طرق الزواج؛ فهناك المهر الذي هو رمز لإعزاز العروس ومكانتها في القلب، وهو أيضا امتحان في القدرة على المسئولية والحماية والعطاء، ومن نعم الله أن الذي يقبل على الزواج يكون عاشقا مخدرا بالهوى فلا يشعر بما يجري له حتى يفيق بعد فوات زمان العسل.

فالرجل في مسعاه إلى أنثاه يكتب وثيقة رسمية بالتنازل مستقبلا عن كافة حرياته كحرية التعبير وحرية الرأي وحرية التجول خارج منزل الزوجية بعد ساعات العمل ولا يبقى له من الحريات إلا حرية الإشارة من خلف ظهرها كأن يلوح بيده في احتجاج الضعيف المقهور، ولولا خدر الحب لما ارتضى العريس في بعض قبائل الهند أن يرميه أهل العروس ـ حسب التقاليد ـ بالشتائم والإهانات.

وهو تقليد محمود بلا شك يهدف إلى تطعيم العريس وتعويده على طبيعة الحياة الزوجية. وخدر الحب أيضا هو الذي يجعل العريس في بعض قبائل الهنود الحمر ملزما بتوريده الهدايا والعطايا إلى أسرة الزوجة حتى بعد سنوات طويلة من ليلة الزفاف. وخدر الحب كذلك هو الذي يحتم على العريس في بعض قبائل شرق إفريقيا أن يخضع لطقوس الزواج، فيصارع نمرا أو فهدا أو أسدا حسب طلب أهل العروس، وعادة يعود العريس محمولا على الأعناق إلى مدافن القبيلة. وما من مجتمع ـ قديم أو حديث ـ إلا ويطلب من العريس أن يقيم الدليل على التكفل بعروسه بالنجاح في سباق الحواجز والمصاعب لكن هناك دائما الشاب الذي يتطلع

إلى زواج خنفشاري الطابع ـ نسبة إلى بلاد خنفشاريا ـ إذ يحكى أن رجلا قال لصديقه: «تصور أنك في خنفشاريا تستطيع بثلاثة دنانير أن تتزوج وتشتري كيلو كباب وزجاجة شمبانيا»، ففكر صديقه لبرهة ثم قال: «على كده تبقى الشمبانيا مغشوشة».

* * *

ربنا يشفي

الاضطراب العقلي يجتاح العالم. والمجانين انتشروا في كل مكان، ومعدل مرضى العقل وصل إلى واحد من كل أربعة أشخاص في دول الغرب. وفي الغرب والشرق هناك ملايين يعانون من دورة الاكتئاب الثابتة بسبب الفشل في الحب، وهناك الملايين يعانون من دورة الاكتئاب الثابتة بسبب النجاح في الحب الذي ينتهي بالزواج. فنتيجة الحب في الحالتين سبب قوي للاكتئاب.

ولأن الإنسان السوي أصبح في ندرة الألماس فقد نادوا في بعض الدول بأن يكون من شروط ممارسة العمل العام أو دخول المجالس النيابية إجراء اختبارات نفسية وعقلية لا بد أن ينجح فيها المرشح للوظيفة أو المجلس والاقتراح نافع ومفيد غير أن هذه الاختبارات - في رأيي - لو تم إجراؤها فقد يتعذر في بعض البلاد إيجاد العدد المطلوب لتسيير أمور الدولة.

ثم إن تطبيق هذا الاقتراح سوف يجعل المرشح الذي سبق له دخـول مستشفى الأمـراض العقليـة في وضع أفضل. إذ سيكون معه شهادة رسمية بأنه عولج وأصبح عاقلا. وبذلك تكون فرصة

خريج مستشفى الأمراض العقلية أفضل من فرصة من لم يتم فحصه.

وإذا أتيح لك أن تقلب في برقيات وكالات الأنباء فسوف تكتشف أن الجنون أصبح سمة العصر.

ففي أمريكا ـ مثلا ـ اختار عريس أن تكون منصة زفافه على سقالة متحركة خارج نوافذ ناطحة سحاب ضخمة؛ إذ جلس إلى جوار عروسه وهما مربوطان بالأحزمة بينما وقف المدعوون بباقات الزهور في الشارع يتطلعون إلى العروسين المعلقين في الدور الثلاثين. ومن المؤكد أن هذا العريس ـ يثبت بما لا يقبل الشك ـ أن الإقدام على الزواج لا يحتاج إلى أي عقل.

وفي أمريكا أيضا أقيمت مسابقة لمن يضرب رقما قياسيا في السعال، وفاز فيها شاب ظل يكح لمدة أربع وعشرين ساعة متواصلة!

والذي يقرأ صفحات الإعلانات الصغيرة في الصحف الأمريكية أو الإنجليزية يستطيع أن يشعر بمدى ما وصل إليه العالم المعاصر من بذنجان.

هذا مثلا إعلان نشر في صحيفة إقليمية بتكساس: نحن ندعوك إلى زيارتنا لترى بنفسك كم هو مريح التابوت الذي ستنام فيه النومة الأبدية.. شعارنا الابتسامة. وفي صحيفة بولاية أوريجون نشر هذا الإعلان الذي يستهين بذكاء الزبون ويعتبره غبيا:

لماذا تذهب إلى مطعم آخر ليغشوك ما دمت تستطيع أن تأتي إلى

مطعمنا؟ وإذا كان علاج المجانين عند الأطباء العقليين والنفسيين. فلنحاول أن نستشف من الإعلان التالي مدى السلامة العقلية عند أطباء العقل والنفس: يعقد نادي الأطباء النفسيين اجتماعه الأسبوعي يوم الأربعاء الساعة الثالثة للتدريب على المواجهة بالمسدسات عند اللزوم.

وهذا الإعلان يرفض فيه المعلن الكشف عن اسمه.

أنا مستر «×» عميل في صالون حلاقة جونز سبونز.. أرجو منه ألا يأكل الثوم قبل أن يحلق لي شعري.. وأن يكف عن أحاديثه المملة أثناء الحلاقة.

وهناك إعلانات صغيرة كثيرة تتنوع فيها درجة الخلل العقلي:

سيدة في السادسة والثمانين تطلب عملا لمحدثة لبقة.

أنا س. ب. ف أعلن أنني تركت بيت الزوجية وسددت جميع الفواتير المطلوبة مني حتى الأحد الماضي وأخذت معي السرير الذي أهدته لي أمي.

وفي نفس العمود:

أنا مسز س. ب.ف أعلن أن زوجي هرب من البيت يوم الأحد الماضي وسرق السرير.

ثم هذا الاعلان:

مقعد حب «لف سيت» لشخصين من نسيج الكانافاه للمقايضة بمقعدين منفصلين بعد أن أصبح مقعد الحب لا لزوم له.

ثم ادع الله أن يشفي ذلك الجنتلمان الذي نشر هذا الإعلان:
أنا الجنتلمان الذي رفس السيدة في المسرح وأرجو منها أن تقبل اعتذاري. فأنا مهذب جدا والدليل على ذلك أنني صعقت بعد أن رفستك يا سيدتي فلم أستطع أن أقدم اعتذاري في حينه.. وأرجو يا سيدتي أن تتأكدي أنني لست معتادا على الرفس.. وأقسم إنني لم أرفس أي سيدة منذ أن انفصلت عن زوجتي.

* * *

سيجارة من فضلك..!

لم أهجر السيجارة لما قيل إنها تسبب الشيخوخة المبكرة، وكلام فارغ طبعا؛ فالإنسان يمكن أن يعيش في شباب دائم مع السيجارة لو حرص على شيئين: أن يكذب في سنه، وأن يصبغ شعره.

كذلك لم أهجر السيجارة انسياقا وراء حكاية سرطان الرئة؛ فإنني لا أتصور كيف يمكن أن تكون حياة الإنسان لو انساق وراء كل ما قد يطلع به علينا العلماء من أن الأكل يسبب سرطان المعدة، والمشي سرطان القدمين، والشم يسبب سرطان الأنف؛ والحلاقة تسبب سرطان القفا.

بل إن تاريخ الرجل مع السيجارة مليء بالتضحيات من أجلها؛ فعند بداية انتشار التدخين كان المجتمع السويسري ينظر إلى الرجل المدخن باعتباره فاسقا وغشاشا وخرب الذمة وألا تقبل شهادته أمام أي محكمة كالقرداتي، ورغم ذلك رضي الرجل السويسري بكل هذا الهوان في سبيل السيجارة.

وفي بعض ولايات ألمانيا كان قطع الأنف هو العقوبة التي تنتظر أي رجل يضبط متلبسا بالتدخين. ومع ذلك كان الألماني الذي تم

قطع أنفه يعاود التدخين بمنتهى الاطمئنان لأن الأنف الذي نص القانون على قطعه قد قطع فعلا.

وفي تركيا كانت عقوبة المدخن أن يشد وثاقه وفي حفل غير عائلي وغير بهيج يتجمع الناس للفرجة على إدخال الشوبك الذي يدخن فيه داخل أنفه حتى يدمى ويعلن بأعلى صوته على الملأ أنه تاب عن التدخين.

وبينما جردت حكومة إنجلترا حملات متواصلة على المدخنين. أصدر البابا في الفاتيكان أمرا كنسيا بتحريم التدخين.

وذهب هذا كله وبقيت السيجارة.

غير أني قررت أن أهجر التدخين تحديا لصديقي الجراح الشهير الذي كان قد أعلن بيننا إقلاعه عن التدخين واتهمني أنني عاجز وضعيف أمام السيجارة فرأيت أن أقدم الدليل على أن إرادتي فولاذية، وبعد أربع وعشرين ساعة من امتناعي عن التدخين شعرت أن في داخل دماغي مدينة ملاهي: شيء يدور من اليسار إلى اليمين، وشيء يدور من اليمين إلى اليسار وشيء نازل، وشيء طالع، ولم أعد أعرف ما يجري داخل جسمي من عمليات كميائية وفسيولوجية نتيجة الانقطاع الفجائي عن تدخين مائة وعشرين سيجارة في اليوم.

وفي اليوم الثالث أحسست أنني مشتاق إليها وعندي لوعة وحالتي هباب وبدأت أتعرض للحظات رهيبة من الضعف شعرت معها أن المعركة بيني وبين السيجارة غير متكافئة، فإن تأثير غيابها عني يزداد عنفا في نافوخي وجهازي العصبي وكياني كله، بينما هي لا تشعر بي ولا يعنيها أمري سواء اقتربت منها أو ابتعدت وقلت لنفسي: يحسن

بك أن تعترف أنك أبله، فأنت أشبه بالعاشق المبتدئ الساذج الذي يتحدى غانية تمرست بتجارب الليالي.

كان غيري أشطر!

فان مارك توين يقول إن الإقلاع عن التدخين مسألة سهلة جدا بدليل أنه أقلع عن التدخين عشرين مرة. إن حواء تسببت في طرد آدم من الجنة إلى الدنيا ومع ذلك لم يحاول آدم الخلاص منها، والسيجارة تتسبب يوميا في طرد آدم من الدنيا إلى الآخرة ومع ذلك لم يحاول أيضا الخلاص منها.

وما أشبه السيجارة بحواء. نفس السحر الغامض والمثير الذي يصعب الخلاص منه وتعز مقاومته.

لكن رغبتي في أن تكون إرادتي فولاذيه أمام صديقي الجراح الشهير جعلتني أقاوم. وكنت أدعو الله ليل نهار ألا تنجلي التجربة عن أن إرادتي من البسبوسة وليست من الفولاذ بينما الجراح الشهير كان يؤكد لي أن البسبوسة على شيء من الصلابة والتماسك ولا يصح أن أشبه بها إرادتي المهلبية!

وشملت توسلاتي إلى الله أن أواصل التحدي وأن أدحر صديقي الجراح الذي كان يبدو في حالة بهجة دائمة رغم انقطاعه عن التدخين بينما أنا في هم مقيم ومضت تسعة أيام ثقيلة عادت بعدها الابتسامة إلى حياتي في اليوم العاشر، فقد زال الكرب وحان لي أن أتيه وأزهو وسط الأصدقاء بقوة إرادتي وكيف قهرت السيجارة التي لا تقهر!

ـ ولا سيجارة؟

ـ ولا سيجار.

ـ بايب؟

ـ أبدا.

ـ استعضت عنها بالأرجيلة؟

ـ إطلاقا

وتلقينا ـ الجراح الشهير وأنا ـ تهاني الأصدقاء على هذا الإنجاز الصحي الضخم الذي حققناه وأصبحنا القدوة والنموذج العظيم لأهل الحكمة والإرادة القوية.

وفي اليوم التاسع عشر التقيت في أحد شوارع أثينا بصديقي الجراح الكبير، وكان في يد كل منا سيجارة لم يفلح في إلقائها بسرعة قبل أن يراه الآخر فطوال تلك الفترة وكل منا يدخن سرا من خلف ظهر الثاني فقد اكتشفنا أن الإقلاع عن التدخين له نهاية مريحة جدا هي العودة إلى السيجارة!

لكنني هجرت السيجارة فعلا ليس بأمر الطبيب وليس بقوة الإرادة، بل ببركة دعاء الوالدين.

وتلك قصة أخرى..

* * *

.. وبركة دعاء الوالدين!

بعد عشر سنوات من المحاولة للإقلاع عن التدخين نجحت في قهر السيجارة إلى الأبد! وتلقيت دعوات لا تحصى من المنتديات والجمعيات لأشرح كيف تحقق لي النصر في تلك المعركة الشرسة وكيف صنعت إرادتي الحديدية المعجزة!

وكنت أعتذر محتجا بأن من الغرور وثقل الظل أن يتحدث إنسان إلى الناس عن إرادته الجبارة في تحقيق هذه المعجزة.

والحقيقة التي لم أفصح عنها أنني لم أقم بأي جهد، فلا هي معجزة ولا هي مذهلة، والمسألة كلها تعود إلى بركة دعاء الوالدين، وأكون كاذبا إذا ادعيت أن إرادتي فولاذية، وأنني قلت للسيجارة لا فكانت هي لا، ثم لكي تكون إرادتي فولاذية يجب أن تكون لي أولًا إرادة أستعملها، المتزوج عادة لا يعتمد على إرادته، بل إن الزوجة تتخذ كل القرارات لتريح إرادة زوجها من العمل وذلك من باب التعاون الزوجي، وقد تحقق للعديد من الأزواج الإقلاع عن التدخين بفضل إرادة الزوجة التي ترى عادة أن مصاريف السجائر ينبغي أن تضاف إلى مصروف يدها.

غير أن زوجتي لم تمارس أي ضغط والحق يقال، والحكاية أنني أصبت بنزلة برد حادة منذ سبع سنوات ورأى الطبيب أن أستنشق بخار الجاوي لتنشيط التنفس، ولم أكن أعرف أن بخار الجاوى هذا له رائحة فاقعة تعذب كثيرا كثيرا، وأدهشني أكثر أن هتلر لم يستخدمه في غرف التعذيب، فما لبثت أعصاب الشم عندي أن اختلت، أو أن رائحة الجاوي التصقت بهذه الأعصاب، فأي رائحة أشمها تترجمها مراكزالشم في المخ إلى جاوي، والسيجارة جاوي والبنزين جاوي والزبالة جاوي، والكلونيا جاوي، وتراجعت مشكلة السيجارة وبرزت مشكلة أنفي، إذ أصابني الجاوي بما يشبه عمى الشم، وانتهزت زوجتي الفرصة وأخرجت زجاجة عطرها المفضل، وهو عطر يسبب لي صداعا رهيبا بمجرد شمه، والسبب حساسية الأنف وليس ثمن العطر.

وقد استدعى ذلك العمى الشمي الذي طال أمده أن أتردد على طبيب أنف وأذن وحنجرة فكان يغمض عيني ويمرر بقطنة صبغة يود تحت أنفي ثم يسألني: ماذا تشم، فأقول له: هذه رائحة جوافة، ثم تحسنت وأصبحت أميز ـ بشيء من الجهد ـ رائحة الورد البلدي من السمك المشوي.

ولولا بخار الجاوي لما تهيأت لي أبدا فرصة الإقلاع عن التدخين، فلقد أصبحت نصائح الإقلاع عن التدخين تجارة رابحة؛ إذ هناك كتب لا حصر لها مثل «أطفئ سيجارتك الآن».. «وداعا للسيجارة».. «إلى الآخرة»، وهي كتب حققت الغرض منها فملأت جيوب مؤلفيها بفلوس المدخنين الذين لم يقلعوا عن السيجارة. وفي أمريكا رأيت معاهد ترويض المدخن على فراق السيجارة حتى يقلع

عن التدخين خلال أسبوع واحد مقابل خمسمائة دولار، وهي فعلا تشفيك من السيجارة خلال أسبوع لكنك ستعود إلى السيجارة في لحظة انفعال ندما وحزنا على الخمسمائة دولار.

ولا أظن أن هناك طريقة علمية مؤكدة للإقلاع عن التدخين أو الإقلاع عن حب شخص ما، فالسيجارة مثل المرأة المعشوقة التي استولت على كيان رجل وأصبح هواها في دمه وهو في تمرده على إذلالها له يلجأ للآخرين طلبا للرأي والمشورة، متمنيا أن يشيروا عليه بما يوافق هواه وغرامه بها، فالعاشق الذي يستشير الآخرين ينفذ غالبا ما يريده هو: ما أحلى الرجوع إليها. بينما العاشق الذي ينوي حقا التحرر من حب لا يستشير أحدا بل يفعلها في صمت وإصرار، فطلب النصيحة هو مجرد «مماطلة» أو تماحيك، والذين يقدمون النصائح في كتب الإقلاع عن التدخين يشبهون تماما الرجل الذي وقف مع مساعده في الشارع يبيعان الدواء العجيب الذي يطيل العمر حتى ٤٠٠ سنة، ويزعم البائع للواقفين حوله أنه شخصيا بلغ من العمر ٣٦٠ سنة بفضل تعاطيه الدواء العجيب الذي يبيعه فلما سألوا مساعده: هل صحيح أن البائع عمره ٣٦٠ سنة؟ أجاب قائلا: إنه لا يعرف لأنه يعمل مساعدا له منذ ١٥٠ سنة فقط.

* * *

أهل الرچيم..!

ما إن أقلعت عن التدخين حتى قفز وزني في أمد قصير من سبعين كيلو جراما إلى ثلاثة وثمانين كيلو جراما، نصحوني بالذهاب إلى إخصائي في علاج السمنة امتدحوه كثيرا. وعندما رأيت ذلك الطبيب الكبير ارتفعت معنوياتي، فقد كان كبيرا فعلا يزن حوالي ١٤٠ كيلو ويبدوت غزالا رشيقا بالنسبة إلى حجمه لكني علمت أن أطباء علاج السمنة ليسوا جميعا على هذه الصورة، فالكثير منهم يزن ١٢٠ كيلو جراما فقط.

كان الطبيب يتنفس بصعوبة من فرط ما يحمل صدره من شحم ولحم وهو يحذرني من أن السمنة معناها تصلب الشرايين والسكر وحصوة المرارة وتعب عضلة القلب، وما إن نطق الطبيب بهذه الكلمات حتى لهث من المجهود الذي بذله في نطقها وجلس يلتقط أنفاسه، ثم كتب الطبيب لي رچيما قاسيا لا بد أن أتبعه، وعرفت أن الرجيم القاسي لا يضايقك أبدا إذا كنت أنت الطبيب الذي تكتبه للآخرين. كان الرچيم مجرد خضراوات مسلوقة، لكنه أتاح لي الحرية في الاختيار ابتداء من الفاصوليا حتى البرسيم.

في الحديث عن الأتعاب قال لي الطبيب: إن كل كيلو أنقصه سوف أدفع مقابله ٢٠ جنيهًا.. وكل كيلو أزيده على الوزن الذي جئت به للطبيب سوف أدفع عليه ٢٥ جنيهًا، وثبت لي بذلك أن لحمي أغلى من البتلو ونصحني الموسيقار الكبير الإمبراطور عبد الوهاب أن أستعمل قوة الإرادة ولا ألجأ إلى طبيب. ودعاني إلى أن أجرب أكل الرچيم الخاص به واستأثر هو بالفرخة المسلوقة، أما طعام الرچيم الذي دعاني إلى أن أجرب قوة إرادتي فيه فالطبق الأول منه لم أتبين هويته هل هو أرز؟ كلا ليس أرزا. لحم مفروم؟ اللحم المفروم لونه معروف وطعمه أيضا.. هل هو شوفان أو كويكر أو تس؟ أبدا.

- ما هذا يا إمبراطور؟

- قال الإمبراطور: كل.. كل؛ هذا شيء مفيد جدا.

مضيت آكل ذلك الشيء حتى استقر رأيي على أنه نشارة خشب وهذا يبدو واضحا. فكرت أن أضع عليها كَتْشَبْ لكن الأستاذ عبد الوهاب قال إن الكتشب لا يمشي مع الرچيم وعاد يقول: ..كل بالهنا والشفا.. بينما كان الأستاذ عبد الوهاب منهمكا في الفرخة المسلوقة كنت أحاول ابتلاع نشارة الخشب بصعوبة بالغة، ممكن يكون لها طعم آخر لو رششت عليها «مية طرشي» ناديت السفرجي: هل أجد عندك مية طرشي؟ ارتفع صوت عبد الوهاب مستنكرًا: أعوذ بالله.. مية طرشي؟! اقترح الأستاذ عبد الوهاب أن أعصر على هذا الشيء الذي آكله ليمونة، عصرت ليمونتين. لكن النشارة وقفت في حلقي.

كدت أقول له: اديني حتة من فرختك وخلصني وكأنما أحس

بنواياي فبادر يقول للسفرجي: هات له الكفتة. أكلت من الكفتة واحدة ثم اثنتين. إنها بلا طعم ولا رائحة معقول هذه كفتة؟!

سألني الأستاذ عبد الوهاب: لذيذة.. مش كده؟؟

لم أملك إلا أن أقول: جدا. فأمر السفرجي بأن يعد لي ربطة من الكفتة آخذها معي لتكون وجبة العشاء. وقد رحبت بذلك أملا في معرفة أصل هذه المادة التي آكلها والتي ليس لها بالكفتة أي صلة. غير أن قريبي الكيميائي رفض أن يحللها مكتفيا بأنه واضح جدا من طعمها أنها قش مضغوط.

تعلمت من الأستاذ عبد الوهاب الدرس الأول قوة الإرادة. فهو يستمتع برائحة الطعام المسبك دون أن يأكله.. يميل على دقية البامية ويستنشق رائحتها مبهورا ثم يأكل الخضار المغلي.

ولكي أثبت لنفسي قوة الإرادة وضعت أمامي على المائدة في البيت فتة بالخل والتوم وإلى جواري طبق الخضار المغلي الذي سأتناوله وبدأت أنشق رائحة الفتة، شعرت في النهاية بالراحة بعد الصراع فقد أكلت طبق الفتة.

وأدركت كم هو بائس الإنسان الذي على رچيم في بلادنا! فهو يتعرض لحرب كيماوية رهيبة تتمثل في استنشاق تقلية الملوخية أو فتة بالخل والتوم، وهي غازات تدمر مراكز الرچيم في المخ وتحدث شللا في عصب الإرادة فينهار الإنسان. مع ملاحظة أن هذه الغازات عديمة التأثير على الإنسان الأوربي ومن هنا جاء القوام رشيقا في النساء والرجال.. ذهبت إلى الطبيب بعد أسبوع، فوجدت الطبيب قد زاد خمسة كيلوجرامات!

هل يمكن احترام الرچيم في بلادنا ونحن نحفل بالأكل على هذه الصورة فجعلنا منه مظهرا للاحتفال بالمناسبات واعتبرنا الأكل رمزا للصفاء والمودة فحلفنا وحياة العيش والملح، وحتى أغانينا حشوناها بكل ألوان الطعام ابتداء من: «آكلها جبنة وزيتون وتعشيني بطاطا» إلى: «وانشا الله آكل أنا عيش حاف»..

ذهبت إلى الطبيب في الأسبوع التالي وأنا أعرف أنني قد زدت كيلو، لكنني لم أجد الطبيب فقد نقلوه إلى مصحة في الخارج للتخسيس وعرفت أنهم حبسوه في غرفة حتى لا يصل إليه أي طعام وبات يعيش على الماء فقط وساءت حالته النفسية تمامًا، وبدأ أصدقاؤه يرسلون إليه الزهور والورود ليبثوا فيه روح التفاؤل والأمل، وتحسنت حالته بتوالي إرسال الزهور، وتبين أنه كان يأكلها.

بعد شهور نقص وزني كيلو وراء كيلو دون طبيب ولا رچيم، فقد اكتشفت طريقة تسم البدن: الجلوس أمام التليفزيون.

* * *

من الخشب إلى الذهب وبالعكس!

يحتفل الإنسان بعيد زواجه الفضي بعد خمس وعشرين سنة، وبالعيد الذهبي بعد خمسين سنة، وعندما يحل العيد الماسي يكون كل من الزوجين قد حمل غالبا لقب المرحوم، أي رحم الله كل منهما من الآخر!

وفي أثناء زيارة للولايات المتحدة اكتشفت أن هناك عيدا للزواج كل سنة من السنة الأولى حتى العاشرة وأسماؤها بالترتيب.. العيد الورقي، العيد القطني، العيد الجلدي، العيد الكتاني، العيد الخشبي، العيد الحديدي، العيد الصوفي، العيد البرونزي، العيد الخزفي، والعيد القصديري، ثم يحتفلون بالعيد كل خمس سنوات بعد ذلك، ففي السنة الخامسة عشرة العيد البلوري، وفي العشرين العيد الصيني، وفي الخامسة والعشرين الفضي، وفي الثلاثين العيد اللؤلؤي، وفي الخامسة والثلاثين العيد المرجاني، وفي الأربعين الياقوتي نسبة إلى الياقوت الأزرق، وفي الخامسة والأربعين السفيري، وفي الخمسين الذهبي، وفي الخامسة والخمسين الزمردي، ومن الستين إلى الخامسة والسبعين الماسي!

والحقيقة أن أسماء هذه الأعياد ـ وبالذات من الأول إلى العاشر ـ حيرتني كثيرا في البداية، ثم بعد إمعان وجدتها تفسر نفسها بنفسها، فلا شك أن العيد الورقي في السنة الأولى هو عيد توقيع تلك الأوراق التي يتم بها تحديد إقامة الطرفين في مكان واحد، وليس من المحتمل ـ كما قد يفسر البعض ـ أن الرجل بعد تجربة سنة زواج يرسل إليها ورقتها في العيد الورقي.

وأستبعد أن يكون العيد القطني ـ في السنة الثانية ـ له صلة بالقطن الطبي الذي يستعمل لتطبيب الجروح إثر الاشتباكات القتالية في البيت، فالوقت مبكر لمثل هذه المعارك الدموية.

أما عن السنة الثالثة ـ العيد الجلدي ـ فمن المرجح أن الإنسان المتزوج تحدث له في تلك السنة تغيرات جلدية فيبدأ الغلاف الخارجي للوجه في اتخاذ فورمة الزواج كالبوز الضارب والشفاه الممطوطة في اشمئناط وتكشيرة الجبهة.. إلى آخره.

ومن المؤكد أن العيد الخشبي وثيق الصلة باستعمال المنتجات الخشبية للدفاع عن النفس كالعصا والقبقاب الحريمي ذي الفيونكة. يؤيد ذلك أن العام الذي يليه هو العام الحديدي، إذ نرى هنا تطورا من الخشب إلى الحديد حيث يحتاج الحديد في هذه المرحلة إلى رخصة سلاح.

وفي العام السابع يتبدد غالبا دفء الزواج ويبدأ الرجل في الاعتماد على الحلول الذاتية للتدفئة كلبس الصوف، ذلك هو العيد الصوفي، وإذا كان العيد العاشر هو العيد القصديري أي الصفيحي فلا شك أن صمود الاثنين في المعارك الطاحنة بينهما حتى العام الخامس

والعشرين هو عيد فضي يستوجب الاحتفال بنجاة كل منهما من يد الآخر.

ولأن الإنسان ميال إلى خداع نفسه، فإنه يتعمد أحيانا ألا يسمي الأشياء بأسمائها؛ فالتسمية المنطقية التي ينبغي أن تطلق على كل عيد زواج هي أن يقال مثلا في العيد الثامن: الذكرى السنوية الثامنة للحب طيب الله ثراه!

* * *

الكرسي الكهربائي

زارني شاب من أقربائي يرجوني أن أقنع عروسه بأن تتخلى عن التقاليد البالية في إقامة الفرح مع استعداده لوضع نفقات الفرح رصيدا باسمها في البنك.

ثم سألني: بالله عليك ما معنى أن أمشي في زفة ومن حولي الراقصات؟! وما معنى أن أجلس في كوشة محاطة بالورود؟! وما معنى هذه الكوشة نفسها؟!

وسرحت بخواطري: حقا ما معنى هذه الكوشة؟! إنها ليست إلا قفصا للفرجة عليك يا ولدي وكأنك في حديقة حيوان، وهي قفص لا ينقصه غير لافتة مكتوب عليها: «هذا العريس موطنه المكان الفلاني». تم صيده يوم كذا ـ ويتم ابتداء من الليلة استئناسه ليصبح أليفا.

ولم أقل لقريبي العريس إن عنده حقا فيما يسعى إليه: فالهدف من الفرح هو تحقيق ركن العلانية في الزواج ليعرف الكافة في كل مكان. أن فلانا قد تزوج من فلانة. ولو أننا استبعدنا الفرح فسوف يتحقق ركن العلانية أيضا ويعرف الناس أن فلانا قد تزوج فلانة عندما يسمعون الزعيق الذي يصدر عن الشقة بعد شهر العسل.

لذلك يمكن الاستغناء عن الفرح بنشر صورة العروسين وكل منهما يسقي الآخر الشربات من كأسه وهذا يرمز إلى أن كلا منهما سيسقي الآخر من كأس الزواج. هل هذا الشاب جاد في ثورته على التقاليد البالية التي تبدد المال بلا مقتض على الأفراح والليالي الملاح؟ حتى ولو كان كذلك.. لماذا لا يضحي ويسعد خطيبته بالفرح والجلوس في الكوشة ويسعد معه الآخرين أيضا؟!

إن التطلع إلى عروسين يجلسان في الكوشة أمر يسعد كل امرأة ويذكرها بليلة العمر، ويسعد الأمهات والآباء وهم يتمثلون أبناءهم وبناتهم في تطلعاتهم إلى العروسين، كما أن بعض المدعوين من المجربين والحكماء يجدون متعة في التطلع بكثير من الحيرة والدهشة إلى رجل يتزوج طواعية.

والأرجح ـ قلت لنفسي ـ أن المسألة ليست مسألة تقاليد يحاول العريس أن يقاومها فلعله يخشى الجلوس في كوشة الزفاف تجنبا للمشاعر والأفكار التي انتابت عرسانا من قبله فغافلوا العروس وهربوا من الكوشة وكتبت لهم حياة جديدة.

ولعل هذا هو الهدف الرئيسي الذي كان ينشده مخترع الكوشة. الذي يهرب منها لا يصلح للزواج، والذي يصمد فيها هو الزوج الصالح؛ فالعرسان في الدنيا كلها يتعرضون بشكل أو بآخر لعمليات اختبار قاسية تمتحن خشونتهم ومدى تحملهم للمسئولية بأعصاب هادئة متزنة. ففي شبه القارة الهندية مثلا مجتمعات تحرص على شتم العريس بألفاظ مقذعة وهو يواجه هذا كله بالابتسام للتدليل على أن أعصابه قوية ومؤهلة لأخطار الزواج، وفي جزيرة بالي

يخطف العريس عروسه بشكل رومانسي وينتهي به الأمر غالبا بنقله إلى عنبر الكسور. وفي مجتمعات إفريقية يضربون العريس بالسهام غير السامة حتى يخرجوا الشيطان من جسمه ويصبح ابن حلال. وفي مجتمعات أخرى يطلقون على العريس أسدا وفهدا لاختبار قوة احتماله. وكثيرا ما يحتفلون بهذا العريس بعد ذلك احتفالا مهيبا في مدافن الأسرة.

* * *

شـواربه!

كان الرجل زمان يوصف بأنه له شوارب يقف عليها الصقر.

وعندما اكتشفت المرأة أن الأرنب له شوارب أيضا لم تعد تخاف شوارب الرجل فواجهته بالساطور والسكين وذبحته ذبح الأرنب. ومنذ أن ظهر الشنب تحت أنف الرجل وهو مشكلة. فعندما طال شارب الإنسان البدائي أكثر مما ينبغي كان هذا الشارب أسهل وأقرب موضع تجره منه المرأة ساعة الخناق، وتلى ذلك عصور استنكرت فيها مجتمعات ظهور الشارب في وجه الرجل واعتبرته من علامات البلاهة والشذوذ العقلي مثل تأليف المسلسلات. وحتمت مجتمعات أخرى إزالته بقوة القانون. واعتبر الرومان ظهور الشارب بدون لحية عند الفرنسيين من سمات الهمجية والتخلف. وعندما انتشر الشارب المبروم بالكوزماتيك في العصور الحديثة كان ذلك بقصد اتخاذ مظهر سبع البرمبة وإرهاب المرأة تقليدا للولاة والحكام العثمانيين الذين كانوا يرهبون الناس بالشوارب البريمة التي يقف فوقها الصقر.

وقد ثبت أن الرجال لا يملكون من أمر شواربهم شيئا. فما وجد

شارب في وجه رجل إلا برضا امرأة، ولا أزيل شارب إلا برغبة امرأة؛ ففي إنجلترا كان هناك قانون سائد منذ العصور الوسطى حتى القرن الماضي يمنع إطلاق الشوارب، فلما أحبت الملكة فيكتوريا الأمير ألبرت بشاربه الأشقر المسبسب صدر قانون يمنع العسكريين في الجيش الإنجليزي من حلق شواربهم إكراما لشنب المحبوب.

ورغم استنكار الرومان للشارب إلا أن كليوباترا لو كانت قد طلبت من أنطونيو إطلاق شاربه لاستجاب على الفور، لكن الملاحظ أن كل مشاهير العشاق في التاريخ بدون شارب مثل أنطونيو.. فالنتينو .. كازنوفا.. روميو.. دوق وندسور، غير أن النساء أذواق ومذاهب؛ فهناك امرأة مصابة بهوس النظافة وترى أن الشارب يجب إزالته وإلقاؤه في الزبالة. وأخرى فيها ذكاء ترى الإبقاء على شارب زوجها حتى يتوهم أنه سبع البرمبة وسي السيد صاحب الأمر والنهي.

أما بعيدا عن الجنس الآخر. فإن إطلاق الشارب أو إزالته تعتبر مسألة ذوق واستحسان؛ فهناك إنسان يتصور أن تناسق ملامحه لا يكتمل إلا بالشارب بينما يرى إنسان آخر وجوب إزالته خصوصا إذا كان هذا الإنسان «سِتّ».

* * *

ساطوريات!

لا أظن أن النساء اللاتي يقتلن أزواجهن ذبحا يشكلن ظاهرة تثير القلق؛ فلا تزال المرأة هي المرأة التي عرفها الرجل: العاطفة والدفء ومنتهى النعومة والبسمة الحلوة وهي تجلس أمامه إلى المائدة وهو يتناول الكفتة التي دست له فيها السم.

والرجل ينفرد بجريمة أشد بشاعة من الذبح بالساطور وهي جريمة الاغتصاب التي لا ترتكبها المرأة أبدا.

كذلك هناك جريمة ارتكبها شاب ياباني إذ أحب طالبة هولندية ثم ذبحها وأكلها، ونحن حتى الآن لم نسمع عن امرأة أكلت رجلا. فكل النساء والحمد لله من هذه الناحية نباتيات.

ويدل استقراء الإحصائيات أن الجريمة النسائية تمثل أقل من ٣٪ من مجموع الجرائم؛ فالعاطفة هي المحرك الأول للجريمة عند المرأة؛ إذ إن الجرائم النسائية التي تتصدر الإحصائيات شهادة الزور من أجل حبيبها والقتل بالسم غيرة وانتقاما وخطف الأطفال لتشبع أمومة حرمت منها علما بأن الأطفال الذين تخطفهم النساء بينهم دائما عدد كبير من الرجال!

إن علينا أن نبحث بكثير من الإنصاف عن الأسباب التي تدفع امرأة رقيقة للتحول إلى جزارة تذبح الرجل وتقسم لحمه إلى بفتيك وإسكالوب وفيليه، والسبب الأول في رأيي: أن الرجل يعتبر البيت مكان راحة واسترخاء بينما الزوجة تعتبره مكان عمل. وقد أدى خروج المرأة إلى العمل إلى أنها أصبحت تعمل ورديتين متعاقبتين خارج البيت ثم داخل البيت مما يشكل ضغطا عنيفا على جهازها العصبي وقد بات واجبا على الرجل أثناء وجوده في البيت أن يتخلى عن ارتداء ملابس الاسترخاء التي تريحه وأن يرتدي الملابس التي تريح زوجته وهي مريلة المطبخ.

والسبب الثاني: أن الزوجة مع هذه الضغوط العصبية لا تجد من جانب الزوج همسة الحب أو لمسة الحنان وقد اعتادت هذا الجفاف العاطفي لدرجة أن صديقا دخل البيت وقبل زوجته واقترح عليها أن يقضيا الأمسية في مطعم ثم قبل يدها وربت عليها. فانسحبت بهدوء ودخلت الغرفة تطلب أمها في التليفون وهي تبكي: ماما.. محمود اتجنن..

والسبب الثالث: أن الزوجة التي تقوم برعاية الأولاد والطهو والنظافة وإدارة البيت تقوم أيضا في وقت فراغها بمهام ثقيلة وهي تسلية الزوج والحديث من طرف واحد إلى شخص نكدي وغير مسل بالمرة، الأمر الذي يقضي بها في النهاية إلى أن تتصرف بحماقة، أو تقلد تلك الزوجة التي غاب زوجها فأبلغت أوصافه إلى الشرطة بأنه طويل القامة كثيف الشعر بينما هو قصير وأصلع حتى لا يعثروا عليه.

قَـرَّ.. يَقَـرُّ!

تعيب عليَّ بعضهن أنني أسخر من الزواج.

وليس صحيحا أنني أضحك أو أسخر من الزواج، المسألة هي أنني اعتدت أن أبتسم أمام الكوارث، فللزواج سبع فوائد، وأهم ميزاته الاستقرار، وهو يوصف بهذه الصفة بالذات لأسباب كثيرة أهمها:

أولا: أن كلا من الطرفين يستقر نفسيا بعد اختيار شريك الحياة بشكل نهائي، ويبدأ كل منهما مرحلة التفكير بهدوء ليحصي أخطاء هذا الاختيار.

ثانيا: أن كلا من الطرفين يستقر على رأي لا بديل له وهو أن يؤهل نفسه لمعاشرة إنسان من الصعب التكيف معه بسهولة بعد اكتشاف حقائق جديدة كانت خافية أيام الغرام والتنهدات.

ثالثا: أن كل منهما يستقر على ترويض نفسه للتعايش مع الآخر راضيا بتقديم التنازلات. وغالبًا ما يلتقيان في كل النقاط، وقد لا يلتقيان إلا في نقطة واحدة هي نقطة الشرطة.

رابعا: الفعل «قَرَّ» تعتبر مشتقاته قوية الصلة بالزواج، ومنها استقر

الرجل استقرارًا أي انتهى به المطاف لاهثا في مقر الزوجية بعد أن ظل يطاردها حتى أوقعت به. وزمان كانت صورة زفاف جدي تظهر فيها جدتي واقفة والعريس جدي جالسا تعبيرا عن أنه «سي السيد» الذي تقف له هي احتراما في حضوره، وقد تغير هذا المفهوم تماما فـأصبحت صورة الزفاف تمثلهما وهما جالسان معا في الكوشة تعبيرا عن أنه جلس يستريح بعد الجري وراءها. بينما هي جالسة تستجمع أنفاسها لتجري وراءه في البيت.

خامسا: الفعل «قر» ـ كما جاء في قاموس مختار الصحاح ـ اشتق منه أيضا قرقر، قرقرة. والقرقرة تحدث عندما يواجه الزوج موقفا عسيرا أمام الزوجة، فالقرقرة لُغَةً: هي صوت كركبة البطن عند حدوث الخوف.

سادسا: ومن الفعل «قر» يقال في شهر العسل: فلان قر عينا بعروسه. وفلانة قرت عينا بعريسها فكل منهما قرير العين أي بارد العين، لأن العرب كانوا يقولون إن للحزن دمعة حارة وللسعادة دمعة باردة، أما بعد أيام العسل فلا يقال إن كلا منهما قَرَّ عينا بالآخر بل يقال طلعت عينه من الآخر.

* * *

رقابة عليك!!

أقابل من وقت لآخر فنانين تتعثر أعمالهم في الرقابة، فهذا يشكو من تعنت فلانة، وهذا يحكي عن تزمت مدام علانة، فكل الرقابة ستات!

ورغم الشكوى المستمرة من الرقيبات إلا أنني أؤمن بأن هناك وظيفتين لا تصلح لهما إلا المرأة: مأمور الضرائب والرقيب على المصنفات الفنية!

عن مأمور الضرائب مثلا يمكن القول إن أحدا لا يستطيع أن يحاسب الرجل حسابا دقيقا ومضنيا إلا المرأة ويمكن التأكد من ذلك بمراجعة إحصائيات حوادث الضرب الذي أفضى إلى موت! وعن الرقيب، فتلك هي وظيفة المرأة: رقيبة طول العمر، فهي الأم التي نبدأ معها رحلة الحياة بـ عيب يا ولد. ما تعليش صوتك. نزل رجلك من على الكرسي. امضغ الأكل ويقك مقفول. تاكل العيش بس.. المسمار اللي فيه لا.

والأم أيضا هي التي تعاقبنا أطفالا إذا خرجنا عن النص وعملناها في الفراش. هذه الرقابة هي التي تضع أسس سلوكياتنا السوية في الطفولة.

ثم لا نلبث أن نشب عن الطوق لتتحول المرأة إلى رقيبة من نوع آخر، فهي هنا تأخذ دور بنت الجيران وتضيف إلى سلوكنا الطيب. النظافة وحسن الهندام والحرص على «المواعيد»!

ثم وهي مخطوبة تبدأ دورا رقابيا جديدا بالحذف والإضافة.

بالحذف مثلا: يا ريت تقلل السجاير. باكره ريحة الخمرة. إذا كنت بتحبني صحيح احلق شنبك، وبالإضافة مثلا: إذا كنت بتحبني صحيح تربي شنبك!

وما إن تدخل المرأة المرحلة الزوجية حتى تتعاظم سلطاتها الرقابية لتشمل كل شيء ابتداء من اختيار البدلة والقميص وربطة العنق. إلى الكلام الذي يمكن أن يقوله وسط الناس والزيارات، والذي لا يصح أن يقوله: مستخدمة في ذلك نظرات العينين وضرب رجله من تحت مائدة الطعام حتى يخرس.

وفي عصر انفلات السلوك نحن في أشد الحاجة إلى المرأة في جهاز الرقابة، فهي تتمتع بحساسية مرهفة وغير عادية بالنسبة لأي مؤثر يخدش الذوق والحياء أو فيه شبهة خروج عن الآداب، ولهذا السبب، فإن وجود امرأة في مكان به رجل يدفع الرجل دائما إلى الحرص على ألفاظه وتصرفاته، إلا إذا كان هذا الرجل زوجها.

* * *

بنت الزمّار

أخيرا عرض تليفزيون القاهرة فيلم كليوباترا، وهو ليس الفيلم الوحيد الذي تنتجه هوليود عن ملكة الخلاعة في التاريخ!

والسينما الأمريكية تحتفل كثيرا بالتاريخ الفرعوني فقد قدمت إنتاجا ضخما متميزا لأفلام عديدة مثل المصري وبن هور والوصايا العشر وغيرها. بينما نحن نشكر السينما عندنا لأنها لم تقدم أي إنتاج تاريخي فرعوني، فهذا يحفظ لتاريخ الفراعنة عظمته وجلاله، إذ لو كنا أنتجنا أفلاما عن العصر الفرعوني لكانت هذه الأفلام من عينة: خوفو وتي تي الغازية.. حنطيني يا حبيبتي.. حب ولعب وَجَعَّة.. حرامي المسلة.. خنفرو ملك الكراتيه.

ومع ذلك فالسينما عندنا ـ والحق يقال ـ لم تتجاهل تخليد قديمات المصريات فقدمت مشكورة أفلاما كبرى عن زوبة الكلوباتية وعزيزة شخاليل وتفيدة أستك!

ولست أدري سر الاهتمام البالغ بالسيدة كليوباترا رغم أنها لا تمت لمصر بصلة، فهي يونانية لحما ودما واسما أيضا؛ إذ معنى اسمها باليونانية سيدة الجميع أو ست الكل.

وكليوباترا هي بنت بطليموس الزمار الذي كان يقضي وقته في عزف الناي، وقد حظيت ـ عن طريق ملفها في مكتب الآداب ـ بشهرة تاريخية طغت على شهرة جميع ملوك البطالمة والست «كليوباترات» اللاتي قبلها إذ إن لقبها الرسمي في الحكم كليوباترا السابعة.

بل إنها تفوقت على شهرة ملكات مصريات فاضلات كان لهن أسمى قدر ومكانة عند المصريين مثل تي ونفرتيتي وحتشبسوت، ولقد أسرفنا في الاحتفال بهذه الغانية فأطلقنا اسمها على حي كليوباترا بالإسكندرية، وكليوباترا المحطة، وكليوباترا البلاج، وكليوباترا سوبر كينج سايز وكليوباترا عبد الوهاب.

ويقول عبد الوهاب في أنشودة كليوباترا: «هذه فاتنة الدنيا وحسناء الزمان».. هل حقًا كانت فاتنة؟ إن التمثال النصفي الذي عثر عليه الأثريون بعد عهدها بأكثر من ألف عام يكشف بوضوح أن جمالها لم يكن باهرا أو غير عادي، كذلك صورتها ـ البروفيل ـ على العملة التي صكت في عهدها تقرر نفس الحقيقة. ويقول بلوتارك أقرب المؤرخين إلى عصرها إنها كانت ذات وجه عادي يميزه أنف أقنى وشفاه رقيقة.

إلا أن صوتها كان أنثويا مؤثرا، استطاع أن يضفي على حديثها سحرا خاصا، وقد كانت ممثلة بطبيعتها ولعل تسللها إلى قصر قيصر ملفوفة بسجادة يوضح لنا ميلها الشديد إلى التمثيل والإخراج أيضا. ويؤكد ذلك أن تاريخها مع المصريين كله محن وآلام مما دفعهم إلى ثورات متكررة في وجهها حتى فرت ذات مرة مستخدمة مواهبها في التمثيل، فتخفت وتنكرت وسط بدو

الصحراء، يساعدها على التمثيل إتقانها ست لغات ولهجات المصريين في البادية والحضر!

لكن الفن لا يذكر لنا شيئا من نضال المصريين ضد حكمها واكتفى بأن يرسم لنا صورة رومانسية أخاذة تخالف حقيقتها تماما. إذ يقول المؤرخ بلوتارك: إنها ـ في جلستها الخاصة ـ كانت سوقية الألفاظ و«معلمة» وتتبادل مع أنطونيو النكت البذيئةاغير أن الفن له قوة إقناع أخرى. فصور لنا كليوباترا مجسدة في إليزابيث تايلور، وصور لنا قيس بن الملوح في صورة محمد عبد الوهاب يغني ليلى بجانبي مع أن قيس الحقيقي مضت عليه السنون في الصحراء دون أن تمتد إليه يد حلاق تغير من شكله «الهيبيز» أو صابونة تغير من رائحته!



كهارب الحب!

ـ أحبك بجنون.

ـ وأنا أقدرك كصديق.

ـ لا تحدثيني عن صداقة. إني أعشقك.

ـ الصداقة أجمل صدقني.

هذا الحوار يتكرر يوميا في كل أنحاء الدنيا: إنه ينظر إليها في الاتجاه العاطفي المخالف تماما لما تطلبه هي، وهي تطلب الصداقة بينما هو العشق، ولا حل!

لكن إذا صح ما قيل إن الحب موجات كهربية بين اثنين، فإن الأمل الوحيد للعاشق التعس الذي يحب من طرف واحد هو التوصل إلى حل مشكلة الإحساس علميا.فقد يكتشف العلم سر التنافر أو التجاذب بين رجل وامرأة بتجاذب أو تنافر الكهارب في المخين.

فالمخ ـ إذا ثبت أنه بؤرة كل إحساس ـ تتحكم فيه الكهارب، ولو تمكن العلم من تعديل هذه الكهارب، فهذا هو العصر الذهبي للعشاق، إذ قد يشهد المستقبل رجلا قاموا بتركيب علبة بلاستيك

على قفاه تحوي جهازا لتوفيق كهارب مخه مع كهارب مخ المحبوبة، تماما كتوافق جهازي إرسال واستقبال على موجة واحدة.

وربما رأينا في المستقبل فتاة خطبوا لها شابا لا تشعر نحوه بأية عاطفة لكنه ناجح وينتظره مستقبل لامع. وهنا يتبادل الاثنان التفاهم حول مخ كل منهما والقياسات العلمية لإرسال المخ بالكيلوسيكل والكيلوهرتز وما إذا كان مخه «ميديام» أو «إف. إم».

وسوف يستنتج ذلك وجود أطباء تزخر لافتاتهم بمختلف التخصصات: أخصائي في توفيق الكهارب ـ دكتوراه في المخ إف. إم ـ أخصائي في تقويم الموجات الغرامية. وفي عيادات هؤلاء الأطباء سوف نرى فتاة تنفر من شاب، ثم لا نلبث أن نرى نفورها قد تحول إلى تنهدات حالمة لا لشيء إلا لأن الطبيب وضع بينها وبين الشاب جهاز ترانسفورمر أو محولًا كهربائيًا يحيل النفور إلى شوق وحنين.

ولو تم هذا الإنجاز فسوف تصبح بيوت المستقبل كلها سعادة وهناء مع تطوير الترانسفورمر ليوجد في كل بيت مع لوحة عداد النور حيث يقوم بإرسال تياراته لينشر التفاهم والحب بين أمخاخ البيت. لكن لن يخلو الأمر من خناق ينشب فجأة في البيت وذلك للسبب الأزلي في بلادنا: انقطاع التيار!

ولا شك أن كهارب المخ وكيماويات الجسم تتدخل لتحكم تصرفات الحب التي تختلف عن تصرفات الزواج. ففي الحب مثلا تنشط الكهارب في مركز الإعلام بمخ الرجل فيقول لها كل دقيقة إنها جميلة وإنه يحبها بينما في الزواج تقل كهارب مركز الإعلام عند الرجل وتنمحي منه كلمة أحبك!

وفي الحب تتعطل مراكز الإدراك في المخ فلا يعرف كل من الطرفين السبب الذي يحب من أجله الآخر بينما في الزواج تعمل مراكز الإدراك بكفاءة فتبدأ المشاكل عندما لا يجد كل منهما سببا وجيها لزواجه من الآخر.

وفي الحب تنشط مراكز خاصة في المخ فتظهر على الرجل بوادر الكبتومانيا العاطفية فيسرق القبلات منها بينما في الزواج تضطرب تلك الخلايا في المخ من الأخريات. وفي الحب تنشط كهارب مركز الذوق في المخ فيقتصر كل من الزوجين وفق ما يريد الآخر، بينما في الزواج تزداد كهارب المخ اضطرابا فيتصرف الاثنان وفق ما تريد هي!

* * *

العش الهادئ!!

بالمصادفة حاصرتني مجموعة من السيدات والآنسات في النادي، وبدا التحرش واضحا والأسئلة تنهال فوق رأسي.

سيداتي آنساتي: خلق البيت الهادئ المريح يعتمد على تضحيات الرجل وصبره وطولة باله، وعليه يقع العبء كله ابتداء من التقرب إلى شريكة الحياة حتى إقامة الشركة، فالتقرب إلى شريكة العمر بالغرام والحب مسألة تستدعي السهد والسهر والعذاب والأنين وحياتي إنت ماليش غيرك وفايتني لمين.

أما إقامة الشركة نفسها فمرحلة فيها جري ولهث وتدبير تحويشة العمر والحصول على الشقة، هذا بالإضافة إلى استعداد الزوج الطيب للتنازل عن حرياته العامة مثل حرية الرأي وحرية التنقل وحرية التعبير ولو بالإشارة.

وإذا كان آدم قد شعر بآلام رهيبة وحواء تخرج من ضلعه، فهذا يوضح لنا كم يتكلف الرجل للحصول على شريكة الحياة، ثم تأتي مرحلة التضحيات لاستمرار المسيرة الزوجية. فبعد خروج حواء من ضلعه تأتي قصة التفاحة الشهيرة التي قضمتها حواء، ومن محاسن

الصدف أن زمارة رقبة الرجل التي تتمنى الزوجة أن تقرمها بأسنانها اسمها في علم التشريح تفاحة آدم!

وممكن جدا خفض درجة التوتر التقليدية بين الزوج والزوجة إلى أدنى مستوى وهذا يتحقق بفروسية الزوج وشهامته وتنازلاته، فإذا لم يكن فارسا وشهما، فسيصبح مع الزمن فارسا وشهما رغم أنفه.

من سمات الفروسية أن يستمع الزوج ولا يقاطع أو يستمع ولا يرد أو يستمع ولا يعارض أو يستمع ولا حتى يناقش.. وما إن يبلغ الزوج هذه الدرجة العليا من النضوج في فن الإنصات حتى يصبح ظريفا لطيفا في الطاعة والوداعة.. كذلك الزوج الذي راح يفاوض موظف مكتب التليفونات طالبا مكالمة خارجية مع زوجته بربع أجر لأنه متأكد من أنه سوف ينصت إليها ولن يتكلم كلمة واحدة بعد أن يقول آلو.

ومن أسباب التوترات التقليدية في الزواج جنوح المناقشات أحيانا إلى الحدة لعدم اعتراف الزوج بالخطأ. ولذلك فإن الزوج الذي يسلم بأنه أخطأ وهو على خطأ فعلا فهو يدخل في عداد العقلاء. أما الذي يسلم بأنه أخطأ وهو على صواب فإنه يدخل في عداد كبار الحكماء.

ومن أكبر أسباب التوترات التقليدية الإرهاق البدني والعصبي الذي تعانيه الزوجة، ولهذا يجب أن يعطيها الزوج إجازة من أعمال البيت ومسؤلياته. فيرسلها مثلا إلى بيت أسرتها عدة أيام للراحة، فهذه الراحة يحتاجها الزوج أيضا.

وكثيرا ما يقع الطرفان في خطأ شائع يسهم في التوترات. إذ يذكر كل منهما الآخر بالغلطة الكبيرة التي وقع فيها وذلك بترك صورة الزفاف معلقة في البيت..

* * *

في معمل تحاليل الحب

ما الذي يحدث عند لقاء المحبوب؟

يقول أهل العلم: إن الحبيب عندما يرى الحبيبة لحظة اللقاء، فإن التأثير يكون نابعا من المخ الذي يحدث التغيرات التالية عن طريق الجهاز العصبي: رجفة خفيفة في أطراف الأصابع.. تلعثم في النطق.. جحوظ العينين مع زغللة خفيفة.. عدم وضوح الرؤية للحظة.. ازدياد إفراز العرق.. وقوف الشعر.. اختفاء الإحساس بالجوع والعطش.. ارتفاع ضغط الدم.. وتغيرات أخرى عديدة بينها ازدياد دقات القلب.

فلماذا ترك الكتاب والشعراء كل هذه التغيرات الكيميائية والحركات غير الإرادية وتمسكوا ـ فقط ـ بما يحدث للقلب وجعلوا من هذا القلب مركزا للحب والغرام؟!

يجوز لأن دقات القلب هي المحسوسة أكثر أو هي الإيقاع العالي في سيمفونية الغرام، وإذا كان اضطراب المصران الغليظ من علامات هذا اللقاء. فمن العسير ـ فيما أظن ـ على شاعر غنائي أن يقول: وشفتك تاني.. وانخلع مصراني. أو يقول: وقابلتك يومها وأول ما رأيتك.. اضطرب مصراني وانا باينِّي حبيتك.

وعن ارتفاع ضغط الدم لحظة اللقاء، فإننا إذا سمعنا شاعرا يقول: زودتي عليَّ الهم.. ورفعتي ضغط الدم، فهذا ليس كلام عشاق ولكنه كلام متزوجين.

وعن جحوظ العينين والعرق والإفرازات الكيميائية لمختلف الغدد فإن العاشق إذا غنى: وقالوا لي عينيك طلعت برد ودمك قايد.. وقالوا لي غددك سايحة وعرقك بارد، فهذا العاشق ليس قطعا في موعد غرام وإنما في عنبر الحوادث بالمستشفى إثر حادث أليم..

ومن هنا أصبح القلب هو الرمز اللطيف للحب رغم أنه مجرد مضخة تضخ الدم في الجسم.. وهنا سمعنا عبد الحليم يغني عن دق القلب اللي زايد دقتين، وكيف وضع الطبيب السماعة على هذا القلب وشخص المرض بأنه رمش عين، والظاهر أنه كان طبيبًا شرعيا فقد حدد مدة وجود الرمش في القلب قائلا: بقاله جمعتين.

ولعلنا نلاحظ أن مؤثرات اللقاء في الحب لا تختلف كثيرا عن مؤثرات اللقاء في الزواج؛ فما إن يعود الزوج مثلا متأخرا وعلى لسانها السؤال الخالد: كنت فين لحد دلوقت؟

هنا نرى نفس مؤثرات اللقاء في الحب: تلعثم في النطق ورجفة في أطراف الأصابع تمتد في هذه الحالة إلى مفاصل الركبة مع عرق بارد بالإضافة إلى وقوف الشعر، وهذا «اللقاء السعيد» بين الزوجين إذا حدث عند عودة الزوج في ساعة متأخرة من الليل مع ظهور آثار معينة على ملابسه مثل الروج أو ألوان الماسكارا أو الحواجب، أو فتلة شعر طويلة زيادة عن اللزوم. فإن اللقاء في هذه الحالة يؤدي بالتأكيد إلى نفس مؤثرات اللقاء السعيد مثل الزغللة وجحوظ العينين وعدم وضوح الرؤية بسبب الكدمات طبعا..

الرجل والمهنة

هل تنعكس مهنة الرجل على سلوكه العام؟

لقد لاحظت ـ مصادفة ـ أن حارس قفص القرود في حديقة الحيوان يتمتع بحركات ضاحكة ومنتهى خفة الدم ولا ينقصه إلا أن ترمي له بالفول السوداني، بينما كان حارس قفص الأسد وقورا مهيبا كملك الغابة شخصيا، ويبدو أن الحرفة تفرض طبيعتها دائما؛ فالحذاء هو ما يلفت نظر صانع الأحذية في شخصك بينما الحلاق يجتذبه القفا، أما الذي ينصرف عنك بشيء من خيبة الأمل إذا رآك في صحة جيدة هو الطبيب أو الحانوتي.

هل مهنة الرجل تنعكس على علاقاته الإنسانية كالحب والزواج؟؟

إن المرأة مثلا قد ترتاح إلى الصحفي لأن مهنة البحث عن الأخبار توافق تماما نزعة المرأة إلى النميمة فما من امرأة لا تحب النم. ويمكن مثلا تعريف الهاتف بأنه امرأة على سماعة وامرأة أخرى على السماعة الثانية سيرة امرأة ثالثة في السلك الموصل بين السماعتين.

وقد يكون الزواج من محام متعبا إذا عرفنا أن المرأة تمثل في البيت سلطة اتهام مستمرة، وبزواجها من محام سوف يتعذر عليها كثيرا أن توقع بزوج احترف الدفاع والمراوغة، وربما يبدو المحاسب القانوني زوجا غير مرغوب فيه لانضباطه الحسابي بحكم المهنة وإسرافها المالي بحكم العادة، ولكن الواقع يثبت أن المحاسب زوج سخي اليد، الظاهر أنه ينقلب بعد الزواج من محاسب قانوني إلى محاسب على عمره.

والرجل في السلطة ـ كالوزير مثلا ـ ربما يكون متعبا لأنه اعتاد أن يصدر الأوامر والتوجيهات والقرارات ولكن الذي لا شك فيه أن الحياة مع الوزير يمكن أن تكون مريحة جدا لأنه يقول باستمرار كلاما مريحا ووعودا طيبة اسمها التصريحات.

وثمة اعتقاد بأن الطبيب الذي يمسك بالمشرط يقطع ويمزق اللحم الإنساني هو رجل مخيف، ولكن الواقع المدهش أثبت أن الأطباء ـ بعيدا عن السماعة والمشرط ـ رومانسيون عاطفيون جدا، خياليون جدا يظهر بينهم دائما الشعراء والكتاب والموسيقيون والمصورون، وعلى عكس ذلك تتصور المرأة أن الحياة مع الكاتب هي حياة متصلة من الكلام العسل الذي تشتهي كل امرأة سماعه، وهي لا تعرف أن عبارة الحب البراقة التي يكتبها الكاتب تكلفه انحناءة طويلة على المكتب وشطب وتمزيق ورق وشرب عشرين فنجان قهوة وتدخين كذا سيجارة، والحقيقة أن الكاتب يغلب عليه دائما في جلسته شرود الفكر، وقد رأت أم كلثوم توفيق الحكيم لأول مرة في مكتب مصطفى أمين، وراعها أنه كان صامتا شاردا. ولم تصدق أنه توفيق الحكيم

صاحب الفكر اللماح والأسلوب الشائق والحوار الجذاب على الورق فسألته أم كلثوم بدهشة:

ـ ولما إنت توفيق الحكيم.. أمال مين إللي بيكتبلك؟!

وعلى أي حال، يبدو أن المهنة لها أحيانا أثرها في التصرفات العاطفية بشكل أو بآخر كالباحث العلمي مثلا الذي أراد أن يعرف تأثير القبلة على عروسه، فجاء بأنثى فأر من فئران التجارب وربطها بأسلاك الأجهزة ثم قبل «الفأرة» وراح يدون النتائج، وكالعروس التي كادت تفطس من قبلة عريسها ليلة الزفاف، واتضح أنه لم ينس حرفته وهو يقبلها إذ كان عمله في النادي نفخ كور الـ«فوت بول».

* * *

خيبته!

أين ذهبت هيبة الرجل؟؟

كان جدي زمان له هيبة عظيمة ولم تكن ستي تجرؤ على نطق اسمه مجردا من لقب «سي» عمر وسي إبراهيم وسي محمود، وكان لقب «سي» هو اختصار كلمة سيدي!

وفي الوقت الذي كانت فيه شوارب الرجل الشرقي يقف عليها الصقر، كان الرجل في الغرب يستل سيفه للمبارزة إذا مس أحد أنثاه.. ففي الشرق والغرب كان الرجل يقوم بدور البطل بينما هو مجرد كومبارس، ثم هبت حركات التحرر النسائي تشن حربا على الرجل الذي يستعمر المرأة ويرفع علم الحماية بوصفها تابعة له، ورفعت الزعيمات شعار «اللهم احمنا من الرجال أما ضعفنا فنحن كفيلات به» و«يسقط المستعمر الغاشم» و«إلى الجحيم يا كل الرجال»!

واستطاعت الزعيمات في الغرب أن يكسبن المعركة ومكنت المرأة في الغرب من أن تستنبط نوعا جديدا من الرجال هو الرجل الخنفس.

واختفى الرجل ذو الهيبة والنخوة والدم الحار، وأصبحت ملابس المرأة تعلن عن مدى التقهقر لسلطان الرجل؛ إذ كانت الملابس زمان تغطي جسمها كله، فيتم اختصارها إلى الميكرو والبكيني.

لقد كان الرجل زمان ذا هيبة عظيمة لا تجرؤ معها ستي على مناقشته أو مجرد الوقوف أمامه، وكانت إذا أرادت الخلاص منه دست له السم في الكفتة وهي ترتجف ذعرا. فأصبحت اليوم تواجهه بالسكين والساطور وتعبئ لحمه في أكياس وهي ترشف كوب الشاي في هدوء!

وأمام ضياع هيبة الرجل. صارت المرأة تكسب أرضا جديدة حتى وصلت إلى أنواع عجيبة من المساواة فأصبح من حق الزوجة مثلا أن تشتري فساتين بخمسة آلاف دولار ما دام زوجها قد أنفق على نفسه خمسة آلاف دولار لاستئصال المصران الأعور.

والغريب أن كلمة النساء ـ اتحدت على مستوى العالم ـ ضد الرجل، فالمعروف أن المرأة لا تتفق أبدا مع امرأة، فالمرأة مثلا تلبس الفستان الثمين الباهر لتسم بدن الصديقات قبل العدوات، وهي لا تطيق رئاسة المرأة في العمل ولا ترتاح إلا للرجل رئيسًا عليها ربما لأنها متأكدة من الضحك عليه، وهي لا تعترف بأن التي أمامها امرأة جميلة إلا إذا كانت تقف أمام المراية. وهي تنتقص من سنها وتضيف السنين التي أنقصتها من عمرها إلى سن أقرب صديقاتها.

لذلك فإن المنظمات النسائية لا يجمع أعضاءها حب المرأة للمرأة، بل حرب المرأة ضد الرجل. بل من المضحك أن تحرض الزعيمات بيتًا كبيرا من بيوت الأزياء ـ إيف سان، لوران ـ على تغيير

ثوب الزفاف! فالحاسة السادسة للرجل دفعته - من زمن بعيد - إلى ارتداء زي أسود في ليلة زفافه. بينما أعطى اللون الأبيض لثوب زفاف العروس معنى رمزيا بأنها الرابحة والسعيدة وهذه وجهة نظر لا ترضي الزعيمات فطلع إيف سان لوران منذ سنوات على العالم بثوب زفاف من التافتان الأسود مع ترحة من التل الأسود.. رمزا لما سوف تلقاه العروس مع ذلك المخلوق الملعون الذي اسمه الرجل!

لكن برغم تمرد المرأة المستمر وحرصها على تحجيم الرجل إلا أنها أحيانا تعترف ببعض ميزاته حين تودعه إلى مثواه الأخير قائلة: يا جملي، ذلك لأن الجمل - كما نعلم جميعا - يستعمل في الركوب.

* * *

قد يكون حلا

انتقلت حوادث قتل الأزواج إلى تونس، إذ انتهزت زوجة فرصة نوم زوجها فقامت بخنقه بمنديل ثم قطعت جثته بالمنشار والسكين إلى ثلاثة أجزاء وزعتها في أكياس بلاستيك على ثلاث مدن تونسية!

ويبدو ـ بحكم الأمر الواقع ـ أن صيغة نعي الزوج سوف تتغير قليلا فيقال: البقاء لله.. انتقل الفلان الفلاني إلى مثواه الأخير بالكيس البلاستيك.

ويبدوا أيضا أن المتزوجين يجتازون عصرا حرجا لا يتطلع فيه الزوج ـ كما كانت الحال ـ إلى أن يهنأ بحياة سعيدة مع زوجته. بل يتضرع إلى الله أن تنتهي حياته معها «بموتة» ربنا.

إن الزواج ـ في عصر الأكياس البلاستيك ـ أصبح يتطلب من الرجل أن يتنازل عن الكثير من أعمال السيادة التي مارسها على مر العصور، فإن أمن الرجل وأمانه وسلامته أصبحت تتوقف كثيرا على سلوكه وتطويع شخصيته للظروف الجديدة حتى ينجو من حد السكين ويفوز بموتة لطيفة مثل السكتة القلبية.

وللوصول إلى هذا الفوز يجدر بالرجل أن يضع في اعتباره هذه التوصيات:

- التردد على حديقة الحيوان ليتعلم من الجمل صبره، ومن الفيل هدوءه ومن الحمار قوة احتماله ومن الأرنب ذعره ومن الكلب الكف عن النباح وقت أن يأمره سيده بالسكوت.

- أن يكون لبقًا ذكيًا، إذا اختلف مع زوجته اختلافًا جوهريًا في مشكلة ما، فلا يعلن لها رأيه أبدًا.

- أن يظل يفكر ويفكر للوصول إلى قرار سديد في أمر حيوي يتعلق بالأسرة أو الأولاد. وبعد أن يتخذ القرار يوافق زوجته فورا على قرارها المضاد.

- أن تكون له الحرية في المفاضلة بين الرأي والرأي الآخر. فإذا لم يعجبه رأيها عمل برأي أمها.

- أن يحترم آدميتها وألا يرهقها بدعوى الواجبات الزوجية، فمهما كان الزواج عن حب وغرام فعلى الزوج أن يدرك أن كل حبيب يصبح في النهاية مملا، ولا ينتظر منها أن تنظر إليه كفتى أحلامها الأول. فلا يوجد في الدنيا فتى أحلام أقرع وبكِرْش.

- ألا يقع في الغلطة التي يقع فيها الكثير بأن يقول لها إنه على استعداد لكي يموت من أجلها فالذي يقول لزوجته أنا على استعداد لكي أموت من أجلك يسبب لها - في الزمن الطويل - خيبة أمل شديدة لأنه يجثم على قلبها ولا يموت.

* * *

الطفل أبو شنب!

سألتني المذيعة: يقولون دائما إن الرجل طفل كبير وإن المرأة إذا أرادت سعادتها معه فعليها أن تعامله كطفل.. فما هو وجه الشبه بين الرجل والطفل في رأيك؟

وقلت للمذيعة: إن هناك أوجه شبه عديدة بين الرجل والطفل، لعل أهمها ـ من وجهة نظر المرأة ـ أن كلا من الرجل والطفل في حاجة مستمرة إلى أن «يتربى».

ثم نحن نلاحظ أن الطفل يعبر عن احتياجاته بالبكاء ويكف عن البكاء عند تحقيقها، كذلك الرجل في حالة الحب، فهو يبكي للمحبوبة طلبا للوصال والصلح وارحمني وكلمني ويا سامع ندايا تعال شوف بكايا.

كذلك نلاحظ أن معظم العشاق لا يحفظون العهود ولا الوعود وهذا بالطبع شغل عيال وأطفال.

والتربية النفسية الصحيحة للطفل تقضي بأن تلاعب الأم طفلها في السنة الأولى بأن تختفي عنه وتتركه يبحث عنها حتى يتدرب

على تشغيل فكره والتقليل من اعتماده عليها بمواجهة المواقف الصعبة. وكذلك تفعل المحبوبة مع الطفل الكبير أبو شنب الذي هو الرجل، إذ تختفي عنه ثم يتضح أن سبب اختفائها أنها وجدت عريسا أغنى منه.

والطفل عادة يبدأ التفاهم مع من حوله بقليل من الكلمات، ويميل إلى التعبير بالإشارات فيقبل الهواء إشارة للقبلة أو يرفع يده باي باي وكذلك يفعل العاشق مع بنت الجيران عبر النوافذ والشرفات.

وتنصح التربية السليمة بأن تحكي الأم للطفل في السنة الأولى حكايات كثيرة لكي تنمي قدراته العقلية وتغرس فيه فضيلة الإنصات، وكذلك تفعل الزوجة في السنة الأولى من الزواج والسنة الثانية والسنة العاشرة ثم العشرين.

وتعتبر اللعثمة من صفات الطفولة فنجد الطفل ينطق حرفا وينتظر ليتغلب على عجزه ثم ينطق الحرف التالي. وأحيانا يعجز عن النطق عندما تتقلص عضلات الحنجرة نتيجة الخوف أو الرهبة فتحول دون خروج الكلمات، كذلك يفعل الرجل عندما تضبط زوجته منديلا في جيبه به أحمر شفاه.

ومن سمات الطفولة أن الطفل يأكل بلا تفكير كل ما تمتد إليه يده أو أي شيء يقدم إليه، وكذلك الرجل وهي تقدم إليه طبق الرز بالبشاميل مع سم الفار.

* * *

النساء قادمات

المرأة في طريقها إلى حكم العالم اللهم احفظنا!

حتى في ولاية تكساس التي تتميز بالرجال الأشداء أو «التفاجايز» قصقصت المرأة شوارب الرجال واستولت على الحكم، فتولت آن ريتشاردز وزارة الخزانة في الولاية، وأصبحت ليلى كوكريل رئيسة لبلدية سان أنطونيو، وقبلها رأست أنيت شتراويس بلدية هيوستن!

وواضح أن المرأة سوف تستولي على قيادة العالم.. فهي في بريطانيا والنرويج والفلبين وباكستان ونيكاراجوا رئيسة دولة ورئيسة وزراء، وكان هناك قبل ذلك أنديرا غاندي وفبجايا لاشكيمي وبندرانيكا وكاينج تسنج، ومن المتوقع أن تضاف إلى قائمة حاكمات الدول تاكاكو دوي زعيمة الحزب الاشتراكي الياباني!

ولا يمكن أن يكون وصول المرأة إلى قيادة الدول على هذه الصورة وليد الصدفة، بل هو بالتأكيد نتائج مخطط نسائي محكم، بدأ بالثورة على الرجل في أوربا وأمريكا، ثم استئناس الرجل وتحويله إلى خنفس أليف يضع القرط في أذنه ليعلن عن عصر الرجال الأغوات!

وفي السويد الآن حركة نسائية تطالب بتبادل المواقع، فيلزم الرجل البيت يطبخ ويغسل ويدادي العيال ويحضر الرضعة بينما تتفرغ المرأة للعمل وشغل المناصب العليا دون الرجل. وسوف تصل المرأة السويدية إلى أهدافها لأن الرجل هناك مؤدب ومهذب ومطيع وأليف جدا، وهي خطوة سوف تعقبها خطوات جديدة إلى أن تستولي المرأة على العالم ليصبح حكمها عنصريا يقوم على اضطهاد الرجل تشفيا وانتقاما، وسوف تظهر الجماعات النسائية المتطرفة لتنادي بوجوب التخلص من الرجال بالمذابح الجماعية حتى تسلم البشرية من شروره، فمنذ الأزل يشعل الحروب ليحرق قلوب الأمهات، ولا بد أن إمبراطورية النساء سوف تسخر التقدم العلمي لنقل الحمل من بطن المرأة إلى بطن الرجل، وسوف يموت في هذه التجارب العلمية مئات الألوف من الرجال ذوي البطون المنفوخة وسوف تنشط لجان حقوق الإنسان تناشد حاكمات العالم بوضع حد لإبادة الرجال، غير أن الرجال ـ من جانب آخر ـ سوف تتكون بينهم جماعات تطالب بالمساواة مع الجنس الحاكم، وسوف تتضاعف المنظمات السرية التي تقود حزب تحرير الرجل عن طريق العنف، ومن الأخبار التي سيطالعها القارئ في ذلك الزمن القادم: اكتشفت السلطات المختصة في كاشاكاونيا عبوة ناسفة في قلم روج السيدة رئيسة مجلس الوزراء الكشاكاواني وتم إبطال مفعولها قبل لحظات من تناول رئيسة الوزراء لقلم الروج لتطلي شفتيها، والمعروف أن السيدة رئيسة وزراء ليمونيا راحت ضحية حادث مماثل إذ تم حشو باروكتها بمادة ناسفة، وقد أعلنت منظمة «الموت للنسوان» مسؤليتها عن الحادث!

* * *

المنكوب..!

قال لنكولن: إن المرأة خلقت من ضلع آدم بالذات حتى تكون دائما تحت إبطه ليحميها ويرعاها.. ويبدو أن تفسير لنكولن كان شديد السذاجة، فلم يدرك من الذي ينبغي أن يحمي الآخر، إذ لم تكن الدراسات العلمية قد ظهرت في الأفق لتكشف أن الرجل مخلوق غلبان يِصْعَبْ على الكافر!

فقد كشفت الدراسات أن المنتحرين من الرجال أكثر من النساء بمراحل، وأن بين كل أربع حالات انتحار امرأة واحدة فقط، كما تبين أن المرأة قلما تنتحر بسبب رجل بل بسبب امرأة أخرى غالبا.. إذ يبدو أن النساء مخلوقات مدهشات حقا، فالنساء يكرهن النساء.. والرجال أيضا!

بينما ظهر أن المرأة سبب أساسي لجنون الرجل، وأن عدد الرجال في المصحات العقلية يتفوق على عدد النساء، وتعتقد النساء أن هذه مسألة لا تدعو للدهشة، لأن عدد المجانين من الرجال خارج المصحات العقلية يشمل الرجال جميعا!

ولما كانت المرأة لها الأولوية في الإنقاذ عند وقوع حوادث أو

كوراث، فقد تبين أن الكوارث التي لم يتدخل فيها رجال الإنقاذ يرتفع عدد القتلى والمصابين من الرجال بنسبة تفوق عدد النساء.. وفي حوادث الطرق والحوادث اليومية العادية يرتفع عدد القتلى من الرجال، ولا بد أن هذا العدد قد تضاعف بعد النشاط النسائي الكبير في تعبئة الرجال داخل أكياس بلاستيك!

والمرأة تتمتع بجهاز عصبي عالي الكفاءة يتيح لها تحمل المفاجآت العنيفة بثبات، ومنذ سنوات مثلا انفجرت قنبلة في جناح مسز تاتشر بفندق برايتون وقتل أحد وزرائها وجرح كثيرون، وخرجت هي من الفندق في ثبات مذهل بعد أن أجرت لمسة سريعة في زينتها، لكن العلماء لا يطلقون وصف المرأة الحديدية على مسز تاتشر وحدها، فكل امرأة عندهم هي امرأة حديدية من الناحية العلمية، إذ هي تولد مزودة بأسباب الصحة والبقاء لاعتبارات الحمل والولادة وحفظ النوع فهي لا تلتقط الأمراض المعدية بسهولة كالرجل ـ خصوصا وهي حامل ـ كما أن كيميائيات جسمها تعمل بدقة وانتظام، وهي تستطيع أن تتكيف مع أي بيئة مناخية بعكس الرجل. فجسمها مزود بترموستات دقيقة يجعلها تحتمل الحرارة العالية أو البرودة القاتلة، وفي البلاد التي يموت فيها الناس من الحر أو البرد، لا توجد بين الضحايا عادة امرأة واحدة، إذ يبدو أن الطبيعة تبقيها لأسباب إنسانية وهي دفن زوجها الذي مات من شدة البرد.

وقد انتهت الدراسات إلى أن الرجل يولد وهو يحمل أسباب فنائه، فهو بلا حصانة من الأمراض ويتعرض منذ بداية حياته لكافة أمراض الشرايين والقلب. ونقص مادة الجابا جلوبين وهي ضرورية لمقاومة الميكروبات، بعكس المرأة التي نادرا ما تمرض بالقلب

إذ إن هرمون الإستروجين النسائي يزيل الدهون الصلبة المترسبة على جدران الأوعية الدموية.. بل إن هذا الهرمون تتخلق منه أدوية لعلاج التهابات المفاصل عند الرجال، وفي بحث ميداني على راهبات ورهبان تساووا جميعا في ظروف الحياة الهادئة البعيدة عن التوترات والمشاكل والانغماس في الملذات التي تخرب الصحة، وجدوا أن متوسط عمر الراهبة يزيد على عمر الراهب بست سنوات، وهكذا وصل العلماء إلى الحقيقة التي تقول: من لم يمت بالكيس البلاستيك مات بغيره.

كذلك من بين ما انتهت إليه الدراسات أن الرجل الذي يتزلج على الجليد يسقط على وجهه بينما تسقط المرأة على ظهرها لأن مركز الجاذبية الأرضية عندها أكثر انخفاضا من الرجل، وأن الرجل ذو قدرة بصرية عالية في ضوء النهار، بينما المرأة تتمتع بقدرة خارقة على الإبصار ليلا، وهي موهبة يبدو نفعها واضحا عندما تنهض المرأة خلسة في ظلام الليل لتبحث عن الساطور الذي ستطيح به رأسه.

* * *

الحب على الطريقة اليابانية..!

أحسن امرأة في العالم تعامل الرجل معاملة «سي السيد» هي المرأة اليابانية! فهي عاشقة رومانسية ومربية للأولاد وخادمة تمسح البلاط وست بيت ممتازة وسيدة مجتمع عظيمة. وأهم من هذا كله أنها لا تعرف الساطور والأكياس البلاستيك!

غير أن الحب على الطريقة اليابانية صعب جدا، والوصول إلى قلب الجميلة ميتشيكو ـ مثلا ـ مهمة عسيرة، فإذا افترضنا أنك قطعت المراحل المعروفة: نظرة فابتسامة فسلام فكلام، عز عليك الموعد واللقاء. إذ لو سألت تلك الجميلة هل تحبينني يا ميتشيكو، فسوف تبرز أمامك المشكلة الأولى وهي أن كلمة الحب ـ ومشتقاتها ـ غير موجودة في القاموس الياباني!

ويقول تاكيشي موراماتسو.. وهو من أشهر الكتاب اليابانيين: إن الذين يقومون بترجمة الآداب الغربية إلى اللغة اليابانية يجدون صعوبة بالغة فيما يتعلق بالتعبيرات العاطفية مثل أنا أحبك فلا يوجد نظيرها في اللغة اليابانية، إذ يستخدم اليابانيون الأسلوب غير المباشر للتعبير عن عواطفهم، وإذا كان بعض اليابانيين قد بدأوا في استخدام

تعبير أنا أحبكِ، فإن هذا التعبير غير مقبول حتى الآن على المستوى الشعبي.!

فإذا أنت أدركت الطريقة الصحيحة التي تعبر بها عن عواطفك للجميلة ميتشيكو ثم سألتها هل تبادلك الحب أم لا فهنالك مطب آخر أمامك وهو أن اليابانيين ـ كما يقول موراماتسو ـ لا يستخدمون بوضوح كلمة «نعم» و«لا».. فهم يستعملون في حياتهم اليومية تعبيرات مختلفة فيقولون مثلا أهكذا؟ بدلا من كلمة «لا» ثم لديهم تعبيرات عديدة أخرى تحل محل «نعم» دون أن يفهمها الأجنبي، الأمر الذي يجعل الأجانب ـ كما يقول الكاتب ـ يعتبرون اليابانيين كذابين ومراوغين، بينما هم في الحقيقة يستخدمون تلك التعبيرات البديلة لأنهم يخشون إيذاء مشاعر الآخرين بالتعبيرات القاطعة الحادة مثلا: لا!

فإذا قالت لك ميتشيكو: أهكذا؟ ردا على سؤالك هل هي تحبك أم لا. فلا تنخدع بابتسامتها إذ من المحتمل أن تستدعي لك شرطة الآداب.

ويقول الكاتب الياباني إن تعبير «هذه المائدة» مثلا له أكثر من عشرة تعبيرات مختلفة، منها تعبير بالغ الرقة وتعبير لا يستخدمه إلا النساء ورابع تستخدمه المرأة مع الأصدقاء المقربين، ويتحتم على المتحدث اختيار التعبير المناسب وفقا للجنس والعلاقة مع المتحدث والجو الذي يسود الحديث، فإذا أخطأ موظف مثلا مع مدير الشركة في اختيار التعبير المناسب فهو لا يستطيع أن يطمئن على مستقبله.. وإذا قال رجل لميتشيكو الحسناء «هذه المائدة» بالتعبير

الذي تستخدمه النساء فسوف ترقع ميتشيكو بالصوت الحياني من شدة الصدمة، وربما رددت عبارات يا ميلة بختك يا ميتشيكو يا. فمن المستحيل ـ والحال كذلك ـ أن تحب أي يابانية دون أن تكون ضليعا في لغتها!

كيف تحب حسناء يابانية دون أن تستعمل كلمة حب التي لا تعرفها هي؟؟ عليك ـ حسب التقاليد ـ أن تنظم لها قصيدة صغيرة تبعث بها إليها تقول فيها: القمر يتوسط السماء ودمعي يسيل وأنا أنظر إلى القمر، هنا تستشف هي عواطفه التي تعبر عن تعلقه بها، هذه القصيدة القصيرة جدا ترجمتها بالعربي: أحب والحب كواني ومش قادر على بعدك ثانية ولا عارف إيه طعم الدنيا.

وإذا كانت ميتشيكو من النساء المتعاليات فهي لن ترد عليك إلا بعد عدد كبير من القصائد. كذلك يمكنك أن تعتمد على القصائد القديمة الشهيرة، فإذا كان بيت الشعر يحتوي على عبارات غزل في شطره الثاني، فعليك أن تبعث بالشطر الأول فقط، وميتشيكو التي تحفظ القصيدة سوف تدرك ماذا تعني برسالتك الشعرية. وهكذا ترى أن الطريق إلى الجميلة ميتشيكو يلزمه أن يحوز العاشق رسالة دكتوراه في الأدب الياباني.. وإلا أصبح قليل الأدب!

* * *

كوز الغرام

لا شك أن الإنسان حيوان غنائي ينزع إلى سماع الغناء ويميل أكثر إلى ممارسته، فالغناء نوع من النرجسية، إذ كما يحب الإنسان رؤية صورته في المرآة يهوى أيضا سماع صوته مترنما، ولهذا نلاحظ أن الغدد الغنائية عند الإنسان تزداد نشاطا في الحمام، وفي الحمام وغير الحمام الكل يغني، البعض يغني في الخفاء، أحيانا حفظا للوقار أو خجلا من أن صوته عورة ينبغي إخفاؤها، لكن هناك فئة ضعفت عندهم مراكز الخجل فأصبحوا يغنون بلا حياء.. وهؤلاء هم بنو كاسيت من التتار الذين أشعلوا النار في الحضارة الموسيقية والغنائية.

وهناك من يتهم الرقابة على المصنفات الفنية، ولست أدري ما حيلة الرقابة في أغنية تقول: «لبست له التوب البفتة وعزمته على أكلة كفتة»، فهذا كلام في رأي الرقابة لا يمس النظام العام أو الآداب، لأن لبس التوب البفتة لا يعتبر خطيئة، ولا أكل الكفتة يعتبر رذيلة، وإذا ما غنى مطرب: «اديني بنطة لحام كوز المحبة اتخرم» «والبنطة هي قطعة الحديد التي يتركها السباك تتوهج في اللهب ليلحم بها الثقوب والمعادن» وبناء عليه فالبنطة ليست كلمة بذيئة، والكوز ليس

كلمة نابية، وفي عصر الفن التتاري يرتقي خيال الشاعر التتاري إلى هذه الآفاق الجديدة فيشبه غرامه بالمحبوب بسائل في كوز، ويشبه الجفوة مع الحبيب بثقب في هذا الكوز يتسرب منه الغرام فيطلب من سباك الغرام بنطة لحام لسد ثقب الكوز: «إديني بنطة لحام كوز المحبة اتخرم؟!».

وفي كل عصر توجد الأغاني الهابطة إلى جوار الأغاني الرفيعة، ففي الزمان الذي قال فيه أمير الشعراء في الليل لما خلي، وقال رامي من كتر شوقي سبقت عمري وقال بيرم النسمة أحسبها خطاك وقال مأمون الشناوي لو كنت أقدر أحب تاني أحبك إنت.. عندما قال هؤلاء العمالقة هذه المعاني في رومانسيتهم الشهيرة كان هناك من يقول: ولما تجيني أمك تدور عليك ح حطك في عيني واتكحل عليك، ومن يقول: يا شبشب الهنا يا ريتني كنت أنا، ومن يقول: بعد العشا يحلا الهزار والفرفشة، ومن يقول: انسى اللي فات وتعالى بات.

لكن هذه الأغاني لم تكن ذات تأثير وأغاني العمالقة بجوارها ترتفع بالذوق وتثري الوجدان.. غير أن زماننا خلا من أغاني العمالقة فانفرد التتار بالساحة وسادت أغاني كوز الغرام المخروم.

ولا يمكن القول إن على الإذاعة أن ترتفع بالذوق العام. الحقيقة أن الإذاعة ـ في العالم كله ـ انتهت كقوة مؤثرة في الذوق العام، والسبب عصر الكاسيت، إذ أصبح الإنسان العصري يمتلك إذاعة شخصية تذيع له ما يشاء في البيت والسيارة، وبهذه الإذاعات الملاكي حقق مطرب الكوز شهرة مدوية دون أن يقف أمام ميكروفون الإذاعة ولا مرة واحدة.

ولن أنسى تلك الليلة التي اضطررت فيها إلى ركوب ميكروباص أجرة، وكان السائق يردد مع الصوت القبيح المنبعث من الكاسيت: «أنا روميو حبيبك يا جوليا حبيني يا بنت الفاصوليا».

ولما أبديت دهشتي من كلمات الأغنية واستفسرت عن اسم الشركة التي أنتجتها واسم الجحش الذي يغنيها، اعتبرني الركاب إنسانا شاذا لأنني أبدي قرفا واضحا، ومع ذلك توقف السائق وسحب أغنية جوليا بنت الفاوصوليا من الكاسيت، ووضع أغنية أخرى فهمت منها أنني يجب أن أغادر الميكروباص فورا، إذ انبعث من الكاسيت صوت غوغائي يقول: «أيامنا لا ممكن ح تعود.. اتفضل من غير مطرود!».

* * *

دمــوعك

لماذا نحترم شكسبير صانع الفواجع بينما نلوم صناع المآسي من مؤلفي المسلسلات رغم أنهم مثل شكسبير بالضبط لا يعرفون القراءة ولا الكتابة بالعربي؟!

لقد أفضت الدراسات العلمية الحديثة إلى حقيقة غريبة وهي أننا ينبغي أن نبكي من وقت لآخر.. ولأن الله لا ينسى عباده فقد أوجد لنا مؤلفي المسلسلات الذين يقيمون المآتم المفيدة، فنحن نعيش في بلاد متربة تحيط بها الصحاري ولا تكفي إفرازات الغدد الدمعية لغسيل العين من تلك الأتربة الكثيفة لأن الدموع تقوم بعملية غسيل وترطيب وتساعد على انسياب وليونة الجفون.. وقيل إن المرأة دمعتها «قريبة» تظهر بسبب وبلا سبب حتى تقوم بغسل العين من مساحيق الزينة، أما الرجل الذي يعيش في مدن نقية غير متربة فإن الدموع تطفر في عينه بين وقت وآخر عندما يتذكر أنه متزوج.

وقد تبين من هذه الدراسات الدمعية أننا نبكي لأسباب كثيرة نجهلها أحيانا، وأن الإنسان الذي يشكو أعراضا مختلفة كالكابوس وآلام الركبة أو الكتف، يتخلص من شكواه إذا تقطع قلبه أمام

التليفزيون حزنا على الزوجة التي هرب زوجها مع الشغالة بعد أن قتل ابنه الكبير المعترض على زواجه وانتحرت البنت الوسطى لنفس السبب وتأزم حال البنت المتزوجة فأنجبت مولودا مشوها صورة طبق الأصل من إسحق شامير.

وقالت الدراسة الدمعية إننا أحيانا نقاوم تأثرنا ونعمد إلى إخفاء انفعالاتنا ولا نسمح للدمعة بالظهور، ثم فجأة تنهال دموعنا في موقف لا يستوجب انهمارها، وهذا حقيقي، إذ كان لي صديق يعمل محاميا شرعيا ثم خلع العمامة ولبس البدلة عند إلغاء المحاكم الشرعية ودخلت أحاديثه بضعة ألفاظ إنجليزية، وكنت أراه يأكل الملوخية بالأرانب وهو يبكي بشدة.. وكان يعلل بكاءه بأن الملوخية في غاية اللذة، ثم دخل مرة إلى دار صديق له فوجد ولديه قد رسبا في الامتحان، وبدلا من أن يقول لهما: «هارد لك» بالإنجليزية - أي حظ سيئ - بكى وهو يخاطب الاثنين بصيغة المثنى قائلا: هارد لكما.

فلما بدأت الدراميات التليفزيونية في الظهور أصبحت تساعد في اجتذاب جانب كبير من دموع الملوخية بالأرانب!

وتحذر الدراسة من كبت الدموع الذي يؤدي إلى أمراض عديدة كالربو والصداع والانهيار العصبي، فالخوف والغضب والصدمات والأحزان تحدث تغييرات مهمة في الجسم البشري وتؤثر تأثيرا مباشرا على الجهاز الهضمي وترفع من ضغط الدم وضربات القلب، لكن الدموع المكبوته كثيرا ما تجد سبيلا إلى ظهورها عند أول فرحة، فبعض علماء النفس لا يعترفون بدموع الفرح ويقولون إن الإحساس بالفرحة الصادقة لا يمكن أن ينتج عنها دموع. وإنما دموع الفرح هي

اختزانات الألم الكامنة. فأم العروس هي التي تبكي ليلة زفاف ابنتها من لوعة ألم فراق ابنتها. بينما أم العريس تبكي عادة نيابة عن ابنها الذي بلغت به الغفلة إلى حد أنه يضحك للمدعوين ولا يدري حجم المصيبة الكبرى التي تنتظره.

* * *

مينودراما..!

من الصعب أن نطالب السينما أو التليفزيون بأن نشاهد في كل وقت إنتاجا دراميا على مستوى رفيع. ذلك أن مقياس الدراما الرفيعة هو خلوها تماما من طلقات الرصاص فتصبح متعة عقلية خالصة من التفكير العضلي، فالمسدس هو عضلات الإنسان الحديث، وكلما زاد استعمال المسدس في الدراما دل ذلك على رجاحة التفكير العضلي المتخلف على درجة العقل المتحضر.

إن المؤلف الذي يحل المشاكل بالرصاص يلجأ إلى أرخص الحلول وأسهلها ويدلل على أن التخلف العقلي عنده عاهة مستديمة تصور له القتل كسبب وجيه للرد على الرأي الآخر، ومن المستحيل أن نجد مفكرا أصيلا يلجأ إلى استعمال الرصاص في الرواية إلا إذا كان مجرما.

ولأن المفكرين قلة نادرة، فإن إنتاجهم لايفي بحاجة التليفزيون النهمة إلى ملء ساعات الإرسال، ولذلك يضطر التليفزيون إلى التعامل مع مؤلفي المسلسلات رغم أن معظمهم لا يزال تحت العلاج أو في حالة نقاهة عقلية.

إن الدراما المكتملة التي تتسم بالعمق في تناول المشاكل هي أشبه بالبيت المتحضر الذي يسوده التفاهم العقلي الهادئ، وحتى عندما تتأزم الأمور في مثل هذا البيت فلا تسمع أبدا صوت الرصاص لأن الزوجة تفضل قتل زوجها بالسم.

وفي الدراميات العالمية نجد تنوعا شائقا في الموضوعات بينما نجد أن الحب هو الموضوع الأساسي في رواياتنا باعتباره أهم حدث درامي في حياة الإنسان، وهو موضوع واحد لكنه يتكرر بأشكال مختلفة من رواية إلى أخرى فنحن مثلا يمكننا إنتاج فيلم عن قصة كفاح خاضها إنسان لكي يعلم نفسه، فالتعليم أصبح مجانيا استفاد منه الجميع وتعلموا ما عدا مؤلفي المسلسلات.

والوظيفة أصبحت مضمونة بتعيينات القوى العاملة، والعلاوة دورية للناجح والفاشل، والفصل ممنوع فلا معنى أن نشاهد فيلما يصور عناء البحث عن عمل، ثم التمسك بهذا العمل والحرص عليه وتقديسه كما رأينا في فيلم «العزيمة» القديم مثلا.

وهناك عامل آخر هو أن معظم المشاكل الحيوية التي يتولى الإنسان حلها بنفسه في العالم كله أصبحت الدولة عندنا تتكفل بها ليبقى الإنسان بعد ذلك متفرغا للحب وما ينتج عنه من آثار كالزواج والإنجاب وتربية الأولاد والمعارك الزوجية وحيرة الزوجة في إخفاء جثة الزوج.

ومع ذلك يمكننا أن نجدد في موضوعات الحب والزواج وفق تطورات العصر. فالرجل المعاصر يصبح بعد زواجه خبيرا في التقويم والفلك، فلا بد أن يكون كل مولود له من مواليد برج الميزان

وفي أول أكتوبر بالذات لزوم القبول بالمدارس. وهنا نجد مادة خصبة للدراما، فتحكي القصة عن رجل أخطأ في حساباته الفلكية فجاء الولد من مواليد برج الجدي أي في ديسمبر أو يناير وطبعا لم تقبله المدارس فيصبح شابا منحرفا يروي مأساته ذلك الفيلم الميلودرامي أو المسلسل المؤثر «شرخ في رأس والدي» يقتل فيه ذلك الابن المنحرف أباه وأمه وخاله وعمه ومع الحلقة الأخيرة يكون المسلسل قد قتل جميع المشاهدين من القرف.

كذلك يمكن أن نشاهد مسلسلا يتزوج فيه الشاب بعد قصة حب عنيفة ثم يقرر الطبيب أن سيقان الزوجة ضعيفة جدا لا تحتمل الوقوف في طوابير المجمعات، فيتمزق الرجل بين حبه لزوجته وخوفه من عاقبة عدم وقوفها في الطابور فينتحر الزوج ثم ينتهي المسلسل نهاية سعيدة فتكف الزوجة عن الوقوف في الطابور بعد زواجها من مدير المجمع المليونير.

* * *

يا هـذا..!

جلست مع بعض أطفال الأسرة أجاملهم بمشاهدة برنامج الأطفال في التليفزيون، فاتضح لي أنهم الذين يجاملونني في الفرجة على هذه البلاهات، إذ كانوا يتغامزون وأنا أصطنع الضحك على ما يجري فوق الشاشة من سذاجة وتخلف عقلي!

وزمان كان الجد إذا سأل ابنه: إشي عدى البحر ولا اتبلش؟ قال الولد: العجل في بطن أمه، والآن إذا قال نفس الجد لحفيده: إشي عدى البحر ولا اتبلش قال الحفيد على الفور: الطائرة، والفرق بين الردين هو نفس الفرق بين جيل مشرق يعايش عصر الليزر والروبرت وجيل غارب عن العصر عايش حواديث أمنا الغولة والشاطر حسن، وهو جيل لا يزال يقحم نفسه في تأليف البرامج التليفزيونية للأطفال أو الكتب التربوية المقررة عليهم في المدارس.

وطفل العصر هو الذي تساءل مرة بدهشة: لماذا ترسمون أمنا حواء بسرة في بطنها مع أنها لم تولد من أم ولم يكن لها حبل سري؟ وهو الطفل الذي يجب أن ترتفع إلى مستواه برامج الأطفال والكتاب المدرسي والمدرس، إذا تساءل الطفل: إذا كان الهدف من سقوط

المطر هو أن تنبت لنا الأرض القمح والفواكه والزهور فما هو الهدف من سقوط المطر فوق أسطح منازلنا؟

بل إن مؤلفي كتب اللغة بالذات التي يدرسها أطفالنا دأبوا على سلوك مسلك عدواني تجاه لغتنا الجميلة بتعبئة مشاعر أولادنا ضد لغتهم بكتب سيئة العرض ثقيلة الظل، والدنيا تتغير ولكن هذه الكتب المتكلسة لا تتغير أبدا، خذ مثلا: ضرب زيد عمرا هذه الجملة لم تتغير منذ قرون. شبع خلالها زيد ضربا في عمرو.. والأجداد وآباؤنا الأوائل أحيطوا علما جميعا بأمر عمرو الذي ضربه زيد، وسوف يظل زيد يضرب عمرًا في كتب النحو إلى يوم الدين دون أن يفكر أحد في تخليص عمرو من زيد، والنتيجة ـ على مستوى الوطن العربي ـ أن زيدا لا يضرب إلا عمرا ولا يضرب «كوهين» أبدا.

إن مشاهدة حلقة من مسلسل «تعلم الإنجليزية» وما تحفل به من مواقف ضاحكة وجذابة تجعلنا نتحسر على لغتنا الجميلة التي تمثل شبحا يفزع أولادنا، والمعلم نفسه معذور لأنه أصبح أسير هذه المناهج المحنطة التي تحرض على كراهية اللغة، وهو إن لم يكن تحريضا بسوء أسلوب العرض كان تحريضا بالتقعر. ولكم عانيت أنا شخصيا من الأستاذ الجهموشي مدرس اللغة العربية، كان إذا خاطب أحدنا قال: يا لحاك الله، وكنا نظن أنه يتمنى أن يكبر كل منا ويكون له لحية، ثم عرفنا أنها شتيمة معناها قبحك الله، ثم استمر طويلا يناديني: يا هذا حتى إنني بدأت أصحح لأبي وأمي الخطأ الذي يقعان فيه وأن اسمي هذا وليس أحمد، وكان يقول لي أنا محيار في أمرك يا هذا، وكان هذا الذي هو أنا يسائل نفسه ما معنى محيار، ولماذا هو محيار وأنا حمار، ثم عرفت بعد سنين أن محيار تعني شدة الحيرة.

وذات يوم جاءنا الأستاذ الجهموشي وقال في نبرة أسى إن يحيى أفندي سكرتير المدرسة اختطفته أم قشعم أو كما ينطقها: أم قشعمي.. وأصابنا ذعر عظيم إذ اعتقدنا أن سكرتير المدرسة اختطفته أمنا الغولة من على باب المدرسة، وأن أمنا الغولة تكنى بهذا الاسم بعد أن أنجبت قشعم، ثم عرفنا فيما بعد أن أم قشعم هي المنية أو الموت الذي يقصف عمر الإنسان.

ثم بدأ الأستاذ الجمهوشي يقول لي: هل لديكم سجنجل يا هذا وهل نظرت إلى السجنجل فوجدت رأس الحمار؟ فكنت ألح على أبي وأمي أن يكون لدينا سجنجل حتى أجد رأس حمار! لكن المشكلة أن أبي لم يكن يعرف أين يباع هذا السجنجل وأخيرا رأيت رأس الحمار عندما عرفت أن السجنجل هي المرآة التي أقف أمامها.

* * *

سلسل.. يسلسل..!

كما أن في الإنسان غريزة حب القتال التي تدفعه إلى الزواج، ففيه أيضا غريزة حب الحواديت التي تدفعه إلى مشاهدة المسلسلات!

وحب سماع الحواديت من الغرائز التي تنشط عند الإنسان في الطفولة المبكرة، إذ يستمع بشغف شديد إلى حواديت جدته التي تجعله فيما بعد يفطس من الضحك على سذاجة مسلسلات التليفزيون بالمقارنة إلى حواديت الجدة!

وفي قصة شهرزاد نرى كيف طغت غريزة حب الحواديت عند شهريار على رغبته في الانتقام من شهرزاد التي تعتبر أول مؤلفة مسلسلات في التاريخ، وفي الأساطير الغابرة ما يؤكد أن الحدوتة وجدت منذ أن وجد الإنسان، ويقال إن علماء الأنثروبولوچي عثروا على بقايا هياكل عظمية مهشمة لنساء الإنسان الأول، واتضح أن إنسان الكهف كان يقول لزوجته، قولي حدوته وإن طلعت زي مسلسلات التليفزيون سوف أسحلك من شعرك.

وفي رأيي أن كل إنسان يجب أن يتحمل وحده مسؤلية مشاهدة هذه المسلسلات ما دام قد جلس أمام التليفزيون بمحض اختياره

دون إكراه ودون أن يخلع أحد أظافره أو ينفخه، وليس من حقه بعدها أن يشكو من السلوك العدواني الذي تعرض له ويصبح من المحتم عليه في هذه الحالة أن يتقبل كافة الأفكار الناجمة عن الاضطرابات العقلية لطائفة مؤلفي المسلسلات، ووجب عليه أن يدرك تماما وهو يتابع الشخوص المتحركة أمامه على الشاشة أن يتفرج على نزلاء معهد شواذ. فهذا ممثل يصيح بلا سبب، وهذا يتشنج بلا مبرر. وذلك يقطع الغرفة جيئه وذهابا ثم يتوقف محملقا في الهواء قبل أن يرد تحية ألقاها عليه ممثل آخر من دقيقتين، والجميع لا يتحدثون ككل البشر ـ وهم يقفون وجها لوجه، بل يتخاطبون وكل منهم يعطي للآخر قفاه!

فإذا ارتضى إنسان أن يقتطع من وقته ليتفرج على هؤلاء وما يفعلون فبأي حق يشكو بعد ذلك العدوان على عقله؟ لست طبعا من أنصار الديكتاتورية والقمع فأطالب بمنع المسلسلات لكني أحترم إرداة الإنسان واختياره، ولا بد من إقناع المشاهدين من خلال حملة مكثفة يشترك فيها أطباء الصحة العقلية.

إن مسلسلات التليفزيون ليست بدعة حديثة، بل هي نشأت في المجتمعات الأولى عندما كانت الأرواح الشريرة تتقمص إنسانا فيهذي بكلام فارغ وهم يحكمون وثاقه ويدونون الحكايات التي تقولها العفاريت على لسانه، وهي حكايات بالغة الغرابة والشذوذ، ولا تزال المسلسلات العربية يظهر فيها رمز لهذا الإنسان الذي تتقمصه العفاريت، فنرى في المسلسل رجلا في دور أبله مجذوب، يطوف الحي، ويطبل على صفيحة ويقول كلاما غامضا. وأحيانا يخلو المسلسل من هذا المجذوب وكلامه الأبله اكتفاء ببلاهة المؤلف.

ومهما قيل عن المسلسلات وسوءاتها، فقد لعبت هذه المسلسلات دورا مهمًّا في تقدم الطب العقلي فهناك مثلا مستعمرة في الصحراء أقامتها جمعية رعاية مرضى الشذوذ العقلي. إذ تترك نزلاءها يؤلفون المسلسلات، وبدارسة هذه المسلسلات يصل الطبيب اللماح إلى مكمن الخلل في عقل المريض. وأكثر المسلسلات نكدًا وغمًّا هي تلك التي يكتبها مرضى يحملون عداء سافرًا للمجمتع ويؤثرون الانسحاب منه مع إحساس قوي بالتشاؤم يدفعهم إلى إنهاء المسلسل عند الرقم الشؤم ١٣.. وميزة هذه المستعمرة التي أقامتها جمعية رعاية مرضى الشذوذ العقلي أنها تعتمد في نفقاتها على الجهود الذاتية، فهي تبيع مسلسلات المرضى للتليفزيون.

وبفضل التقدم العلمي أمكن وضع أفكار المريض تحت السيطرة الطبية، فإذا انتابته حالة تأليف مسلسل أعطوه حقنة «فينو تيازين» المهدئة للهذيان وتأليف المسلسلات، وقد شفي بعضهم وتخلص من التفكير المختل والهلوسة وعاد إلى صداقة المجتمع وممارسة الحياة النافعة، غير أن المشكلة الحادة التي كانت تقابل كل من يبرأ من هذا المرض هي حالة الندم الشديد التي تتسلط عليه لأنه لم ينتفع بمجانية التعليم ولم يذهب في حياته إلى مدرسة.

* * *

البحث عن حديث..!

يبدو أن آداب المخاطبة والحوار تمر بأزمة عالية كما أن فن الحديث قد اندثر. الناس أعصابها فوق الجلد في الدنيا كلها والشتائم واللعنات على ألسنتهم.. خصوصا بعد مشاهدة برامج التليفزيون.

بل لقد انعكست موجة الشتائم والبذاءات على الكتاب.. المسرحية.. الفيلم، وحتى في الأفلام الأجنبية نسمع بذاءات غريبة يتاجهلها طبعا مترجم الفيلم. والمدهش حقا أن الشتائم أصبح لها علماء متخصصون وباحثون حتى إن أستاذا في ماديسون بأمريكا عكف على وضع قاموس جمع الشتائم المتدوالة بين شعوب الأرض منذ بدء التاريخ: ولأن الأستاذ رصع قاموسه بأبشع الأحجار غير الكريمة فقد طردته جامعة ويسكونسن من هيئة التدريس. وتفرغ بذلك لإصدار مجلة تحفل صفحاتها بكل ألوان السباب العالمي عرضا وتحليلا!

ويقول الباحثون إن انتشار الشتائم على ألسنة الإنسان المعاصر هو تعبير عن ضغوط الحياة التي تؤدي إلى الفشل والإحباط..

والإنسان في شرقنا العربي يظل مهذب اللسان حتى يتعلم قيادة

السيارات فتبدأ غدته الشتائمية في النشاط بألفاظ مهذبة نسبيا مثل حاسب يا حمار وحاسب يا بهيم، وفي كل أنحاء العالم يضطر الإنسان إلى ترويض غدته الشتائمية لتعمل في السر وبدون صوت حرصا على مشاعر الطرف الآخر في الحياة الزوجية.

وأعتقد أن لغة الكلام تعطلت بين الناس لأن التليفزيون أثر كثيرا على فن الحديث بين الأفراد المجتمعين حوله حتى إن دولة أيسلنده توقف الإرسال التليفزيوني يوم الخميس كي يجتمع شمل الأسرة لتبادل الأحاديث والأفكار البناءة، ولا شك أن يوم الخميس الأيسلندي هو يوم العذاب للزوج الذي أدركته حالة الخرس المنزلي وأصبح لا يقوى على الكلام داخل البيت، فأمامه ـ يوم الخميس ـ مهمة رهيبة هي تحريك لسانه بالكلام مع زوجته.

إن التليفزيون هو السبب في انهيار لغة الحوار المهذب، فهو يجتذب الأجيال الجديدة ولا يعطي فرصة لتنمية فن التخاطب، بل إن الإنسان المعاصر أصبح يتعثر في إيجاد مادة الحديث المناسب بعيداً عن التليفزيون.. وأصبح ينقصه ركن مهم اسمه: كيف أبدأ حديثا مع إنسان أراه لأول مرة؟

أنا شخصيا تعرضت لهذه التجربة خلال جلوسي بجوار شخص لا أعرفه تركني معه مضيفنا. كان واضحا أن الرجل يتوقع مني أن أبدأ الحديث وأنه قد أعفى نفسه من هذه المهمة العسيرة، هل أحدثه في السياسة؟؟ إنني لا أعرف جنسيته ولا هويته السياسية، ثم واضح أنه من الشرق الأوسط، والحوار السياسي بين الشرق أوسطيين أصبح له سمات خاصة، إذ تتيح للإنسان أن يعرف عن نفسه من الطرف

الآخر صفات لم يكن يعرفها من قبل مثل انهزامي وخائن وعميل، وغالبا ما تنتهي المناقشة السياسية بإطلاق إحدى وعشرين طلقة تحية للطرف الآخر في رأسه.

ولكن من الجائز جدا ـ قلت لنفسي ـ ألا يكون الرجل شرق أوسطيا أي متمتعا بكامل قواه العقلية، غير أن الحذر واجب أيضا.. وقررت أن أبدأ حديثي معه بابتسامة، ففي يده ساعة ثمينة: سأسأله عن الساعة ثم أقول له إن الساعة أنيقة حقا، تذكرني بتلك القصة التي سمعت البولنديين يروونها في وارسو. وتروي أن الزعيم السوفيتي الراحل بريچنيف كان في زيارة لبولنده. وفي رحلة العودة قال له نائبه: هل رأيت الساعة الثمينة التي كانت في يد الرئيس البولندي؟؟ فقال له بريچنيف: لا.. وريني شكلها إيه؟

في اللحظة الأخيرة: عدلت عن هذا الحديث، فربما يكون الرجل ماركسيا.

ولا مصلحة لي عندئذ أن يتصور الرجل أنني يميني رجعي متعفن وعميل للمخابرات المركزية.

هل أبدأ حديثي معه عن الجو؟

إن الحديث عن الجو غبي ومستهلك ولو قلت له إن الجو بارد الليلة فمعنى ذلك أنه رجل فاقد الحواس والإدراك ولم يصل إلى علمه أمر ذلك الزمهرير الذي يوجع العظام ولكن ما حيلتي والمحاذير كثيرة في إيجاد حديث بديل؟

بدأت الحديث عن الجو وكان والحمد لله ـ بالمصادفة ـ حديثا

ناجحا إذ رحت أتكلم عن الجو الممطر العاصف وألعن أكاذيب نشرة الأرصاد الجوية، وبالصدفة أيضا أضفى حديثي جوا من البهجة على الحفل وارتفعت الضحكات من حولنا. فقد كان الرجل الذي أحدثه رئيس هيئة الأرصاد الجوية.

* * *

الرؤيـــة..

لم يظهر في أمريكا كاتب أعلن أنه سيعيد كتابة «العجوز والبحر» لهمنغواي برؤية جديدة للسينما، ولا ظهر في أوربا كاتب يقول إنه فرغ من إعادة كتابة «الجريمة والعقاب» برؤية عصرية للتليفزيون ولا سمعنا عن مؤلف باريسي أعد رواية الكاتب العالمي نجيب محفوظ «زقاق المدق» وسماها «زوكاك جابرييل»..

لكننا نفخر بأن عندنا فنانين يبدعون هذه الفن الجديد في الأدب والموسيقى، وما زلت أذكر سيد شحتوت الذي زارني مرة وقال إنه يعد قنبلة خطيرة، فهو سيغني الجندول برؤية فنية جديدة.

قلت له: فعلا عبد الوهاب يقول: قلت والنشوة تسري في لساني هاجت الذكرى فأين الهرمان.. لقد نسي عبد الوهاب هرم منقرع الثالث.

قال لي شحتوت: عندك حق.. هذه ملحوظة مهمة سوف أضعها في الاعتبار بحذف هذا البيت من القصيدة. وعلى أي حال أنا لا أقصد الشعر وإنما مهمتي أن أغير البناء الموسيقي الذي وضعه عبد الوهاب لأنه لم يعد يناسب العصر.

ـ تقصد توزيعا جديدا.

ـ لا. بناء موسيقي برؤية عصرية جديدة.

ووعدني الموسيقار شحتوت بأن يسمعني قنبلة الموسم في الأسبوع التالي غير أني أسفت لأن صاحب هذه الموهبة ذات الرؤية العصرية الجديدة لم يعد، وأسفت أكثر أن عبد الوهاب ـ في غياب شحتوت ـ سوف يظل يغني الجندول متجاهلا هرم منقرع.

ولم أسمع شيئا بعد ذلك عن شحتوت رغم أني أواظب على قراءة صفحة الحوادث لمعرفة أخبار الشمامين.

ولم يمر شهر حتى زارني شاب اسمه شهاب الدين قال إنه جاء يناقشني في سبب الحملة على مؤلفي الدراما التليفزيونية.. كما أنه يريد أن يستأنس برأيي في بعض الشئون الدرامية. وأدركت أنه مؤلف مسلسلات فقلت له: إنني لا أهاجم، ولكن آخذ على معظمهم أنه لم يحاول أن يستفيد من مجانية التعليم.

وقال شهاب الدين إنه أعد قصة «أنا كارنينا» لتولستوي برؤية جديدة وسماها «زعبوط عم عبده» غير أن هذا ليس هو المشروع الكبير. وإنما مسرحية عطيل هي ما يشغل فكره الآن، فهو قد وضع لها رؤية جديدة تماما.

ـ وما هي هذه الرؤية؟

ـ عطيل اسمه عطا الله البحري وهو ملك سوق السمك.. وديدمونة اسمها دومة وهي امرأة جميلة ولعيبة، ولم يقتل عطيل ديدمونة بسبب غيرته عليها، بل إن دومة هي التي تقتل عطا الله ليخلو لها الجو مع عشيقها خليل أبو شفة.

ـ ولكن ديدمونة كانت بريئة وليس لها عشيق.

ـ هذا جزء من رؤيتي الجديدة.. ودومة هي التي تخطط لقتله قبل أن يقتلها شأن أية امرأة معاصرة. فلقد انتهى عصر المرأة التي يقتلها الرجل غيرة عليها بعد انقراض الرجل الحمش، لكن عندي فكرة أخرى ليتني أعرف رأيك بشأنها.

ـ ما هي؟

ـ لا تقتله ولا يقتلها، بل يسبب لها عاهة مستديمة تشوهها في نظر عشيقها خليل أبو شفة فيهجرها.

ـ هذه فكرة أفضل.. أقترح أن يلكمها عطيل لكمة قوية في أنفها تصبح بعدها ديدمونة «خنفة» ويشمئز من منظرها خليل أبو شفة وهو يرى أنفها آيلا للسقوط، ثم يجهز على أنفها بالضربة القاضية بعد أن ضاق بها وهي تنادي، اسمه بصوتها الأخنف: يا خنين..

بعد فترة قرأت عن تمثيلية سهرة اسمها «الخنفاء» ولا أعرف إن كانت أذيعت أم لا، لكني لم أسمع عن شهاب الدين رغم مواظبتي على قراءة صفحة الحوادث لمعرفة أخبار الشمامين.

* * *

الجـديد..!

بعض الناس يلعنون الفيديو لأنه اختراع خطر على أخلاق الشباب، ولا يرون من هذا الإنجاز العلمي إلا هذا الجانب القاتم!

وقد خلق الله يد الإنسان، فبنت وارتفعت بالبناء وعمرت الدنيا، وأبدعت وكتبت. ونظمت وعزفت الموسيقى. ووفق آراء أعداء الفيديو كاسيت فإن هذه اليد تستحق قطعها لأنها تقتل وتسرق وتسبب أذى عظيما مثل كتابة مسلسلات التليفزيون!

وفي القرون الوسطى شن رجال الدين حربا رهيبة عند ظهور الكتاب المطبوع. وقالوا إنه سوف يلهي الناس عن العبادة. واشترك الأمراء والإقطاعيون في الحرب ضد الكتاب لأنه سوف يصرف الناس عن العمل!

ولما انتشر الكتاب وأدرك الناس قيمته. بدأت حرب جديدة ضد ظهور الصحف لأنها ستقتل الكتاب.

وعندما تم بناء برج القاهرة انتحر من فوقه شخص متزوج، فنادى البعض بهدم البرج، ودارت المناقشات تبحث: هل الأبراج وجدت

قبل اختراع الانتحار أم إن الانتحار قبل الأبراج أم إن الأبراج تحرض المتزوج على الخلاص من الحياة؟؟

وبعد ظهور السينما وانتشار دور العرض ارتفعت الأصوات تلطم وتبكي وتعلن عن ظهور تلميذ العصر السينمائي الذي يقفز من سور المدرسة ليذهب إلى حفلة الساعة العاشرة صباحا، فلما أصبحت الدراسة صباحية ومسائية نادى البعض بإغلاق دور السينما حماية لتلميذ العصر السينمائي؟

ولما ظهر التليفزيون قالوا إن الأزواج أصيبوا بالخرس في البيت بسبب الفرجة على التليفزيون مع أن الزوج مخروس دائما منذ أن كان يجلس مع زوجته في كهف العصر الحجري!

وتوالت الاتهامات للتليفزيون!

قيل إنه يسبب العته والبلاهة بمسلسلاته النكد، ثم اتضح أن الناس يحبون النكد بدليل أنهم يتزوجون طواعية.

وإذا امتد إرسال التليفزيون إلى ما بعد منتصف الليل قالوا إن الناس تسهر إلى ساعة متأخرة فلا تنهض للعمل بنشاط في الصباح، وإذا أنهى إرساله مبكرا قالوا يا وقعة سودة على زيادة النسل.

ولما اخترع جراهام بل التليفون في أمريكا وأنشئت شركة بل للتليفون شنت الدعاية للاختراع الجديد حربا رهيبة ضد السكة الحديد فكانت الإعلانات تقول لا تسافروا بالقطار لزيارة أقاربكم تكلموا بالتليفون فهذا أفضل كثيرا لأن السكة الحديد كلها حوادث.. تستطيع أن تسمع صوت ابنك في نيويورك وأنت داخل فراشك

الدافئ في سان فرانسيسكو.. أليس هذا أفضل من أن يصبح ابنك يتيما بعد أن ينقلب بك بالقطار؟

واشتدت الحملات على القطار وترددت إشاعات وأقاويل وتحدثوا عن القطار الذي خطف خمسة ركاب من مقصورتهم ودخل يأكلهم في النفق!

* * *

إنسان التليفزيون..

عندما تجلس أمام التليفزيون البريطاني تجد إنتاجا فكريا متميزا تقدمه مجموعة تليفزيونيين على درجة عالية من الثقافة والقدرة على الاستمالة والوصول إلى عقلك وقلبك، الأمر الذي يدفعك إلى المقارنة بالتليفزيون في بلادنا بما فيه من فكر متواضع وساذج لكنك لن تلبث أن تكتشف أن المقارنة غير عادلة من جوانب متعددة. خذ على سبيل المثال أصل الفكرة من وجود التليفزيون: ففي بريطانيا نجحت جمعية رعاية المسجونين في مساعيها فأدخلت التليفزيون إلى السجون للترفيه والتثقيف، بينما اعترضت جمعيات رعاية المساجين في بلادنا على إدخال التليفزيون في السجون لاعتباره عقوبة إضافية لم ينص عليها حكم المحكمة.

ثم لا بد أن نلتمس العذر للمشرفين على التليفزيون في بلادنا لأنهم لا يملكون أدوات تحقيق النجاح المنشود.. فالقانون البريطاني مثلا ـ بعكس القانون عندنا ـ يشترط في مؤلف الدراما معرفة القراءة والكتابة.

ومع ذلك فإن التليفزيونيين عندنا معذورون، إذ أعتقد أن أصعب

سؤال تلقيته في حياتي: لو كنت مسئولا عن التليفزيون، فكيف تضع خريطة برامج تسعد بها كل الناس؟

لقد فكرت طويلا في هذا السؤال العسير وكان ينبغي الرد عليه أن أحدد فئات المشاهدين الذين يتلقون البرامج:

أولا: إنسان المسلسلات وهو مشاهد مضطرب الذهن ويستسلم لكل ما يشاهده دون نقاش.. لقد عرضت التليفزيونات العربية ذات مرة حلقة من برنامج الكاميرا الخفية ظهرت فيه سيدة تمسك رجلا بسلسلة كلب وتكلف رجلا آخر من المارة بالإمساك بالسلسلة وتولي حراسته ريثما تدخل أحد المحلات. هذا الرجل الذي قبل هذه المهمة يمثل تماما «إنسان المسلسلات» فقد أمسك بالسلسلة وأبدى قبوله أن يتولى حراسة الرجل المربوط دون أن يناقش أو يسأل لماذا وكيف تربط زوجها بهذه السلسلة؟!

إنه اعتاد أن يشاهد في المسلسلات أشياء غير منطقية وغير طبيعية تحولت باعتياد مشاهدتها إلى أشياء طبيعية فإن إدمانه على المسلسلات دمر مراكز الإدراك السليم بالمخ.

ثانيا: إنسان كروي: وهو إنسان كرة القدم عنده هي كل شيء حتى أصل الإنسان ـ عنده ـ كرة طلع لها يدان وساقان، وكل اسم يسمعه لا بد أن يكون له مدلول كروي، إنه متقوقع في عالم الكرة، إذا سألته عن إميل زولا ظن أنه سنتر هاف فرنسا، وهاملت هو جول الدنمارك أما كابتن تولستوي فهو مدرب الفريق القومي.

ثالثا: إنسان متقوقع في الكتب ويعتبر الضحك من غير سبب قلة

أدب. أما الضحك بسبب فسطحية وضحالة. تشده البرامج الترفيهيه الجذابة مثل نظرية الشعر عند أرسطو.

رابعا: إنسان طفل تقدم إليه برامج الأطفال وتسعده هذه البرامج كثيرا لأنه يضحك معها على بلاهة الكبار الذين وضعوها له.

خامسا: إنسان عاقل وغير متخلف عقليا وهو إنسان لا يفتح التليفزيون أبدا.

* * *

أكشــن..

زمان كانت الدراما الدينية عندنا شيئا فجًّا: فهي الأفقر في الإنتاج، والأكثر سذاجة في المعالجة والأشد تشنجا في الأداء والأبعد تماما عن الإقناع!

وقد احتاج مخرج ذات مرة أن يصور هجوم الأفيال في الحرب التي شنها أبرهة القائد الحبشي للاستيلاء على الكعبة. فلم يجد فيلا في مصر كلها إلا فيل حديقة الحيوان بالجيزة.

ورفضت إدارة الحديقة إخراج الفيل من الحديقة، فاضطر المخرج إلى بناء ديكور الكعبة في الحديقة وكان المشهد يقتضي أن يهجم الفيل على الكعبة، وقبل أن يبلغها يتوقف فجأة ـ أمام قدسية المكان ـ دون أن يكمل هجمته. وقال حارس الفيل إنه يستطيع أن يجعل الفيل يجري نحو الكعبة لكنه لا يستطيع أن يوقفه إلا إذا ألقى له بقرش ـ كما تعود من متفرجي الحديقة ـ فيلتقط الفيل القرش ثم يضرب سلاما بالزلومة شكرا على القرش، ولما كان مشهد الفيل سوف يتكرر كأنه حشد من الأفيال تهاجم الكعبة، فقد ظهرت الأفيال حول الكعبة تضرب سلاما بالزلومة شكرا على القرش!

وقد تطورت الدراما الدينية إلى مسلسلات ذات ألوان وإبهار،

ولكنها ظلت تكتفي بالمراجعة الموضوعية للنص دون المراجعة العلمية الدقيقة الخاصة بالأزياء والديكور وطابع العصر الذي تدور فيه الأحداث فخلطوا الثوب الرجالي الإغريقي «الأيوني» بالزي الروماني وامتزج الديكور البيزنطي باليوناني، ورأينا الأميرة الوثنية تظهر بآخر تسريحة باريسية، رأينا إمبراطور الوثنيين يلبس تاجا مصنوعا في خان الخليلي ومن نفس المحل الذي يورد فوانيس رمضان، ولو سلطت الكاميرا فوق رأس الملك لاكتشفت مكان الشمعة داخل التاج!

وعندما كتبت مرة عن ممثل ظهر في إحدى الحلقات الدينية وهو يلبس في معصمه ساعة زينيت، شكا المخرج لطوب الأرض أنني رجل مفتري أتجنى على الحقائق، وأن الممثل لم يكن يلبس ساعة زينيت بل ساعة روليكس!

وعموما فإن الدراما عندنا لا تعرف المراجعة العلمية الدقيقة وهو ما تحرص عليه شركات الإنتاج الكبرى في العالم المتحضر، وقد كان قدماء السينمائيين المصريين يصيبون بطل الفيلم بالعمى، وفي آخر خمسة أمتار من الفيلم تحدث النهاية السعيدة فيصطدم رأس البطل بشجرة وعندئذ يستعيد إبصاره فورا، وقد أحدثت هذه الشجرة انقلابا هائلا في طب العيون السينمائي، فمع التقدم العلمي تطورت هذه الشجرة إلى شاكوش في يد شرير الفيلم يضرب به البطل الكفيف في رأسه فيعود إليه الإبصار في العين اليمنى ثم يضربه شاكوش شمال فيبصر بعينه اليسرى، ثم يهرب الشرير. ويظل البطل يبحث عنه طوال الفيلم إلى أن يعثر عليه، فيتوسل إلى الشرير لكي يضربه شاكوشا آخر في رأسه ليعيد إليه إبصار العين اليمنى، غير أن هذا الفيلم لم ير النور بسبب اختفاء المخرج. إذ كانوا في ذلك الزمان الغابر يقبضون على الهاربين من فصول محو الأمية..

المقص المعجزة..!

اكتمل المشروع الذي أعددته لإنشاء الشركة وأصبح جاهزا للعرض على السيد الوزير. أعددت قائمة بالأسماء المقترحة للشركة: شركة النصر لصناعة المقصات (نصريكو). الشركة العامة لصناعة المقص (مقاصيصكو). الشركة العامة للتجارة والقصات (مقصتكس).

كذلك أعددت قائمة بالأسماء المقترحة لماركة المقص، مقص نصر، مقص القاهرة، مقص الظافر، مقص الحرية، مقص التحرير، المقص الاشتراكي.

لفت السيد نائب الوزير نظري إلى أننا ننفرد بميزة عن بلاد العالم أجمع. أسماء الشركات عندنا، وأن السيد الوزير يرى أن طول اسم الشركة يوحي بأهمية وتعدد إنتاجها، ثم أضاف قائلا: فمثلا: مع أن اسم الشركة العامة لمنتجات النشا والخميرة هو اسم طويل، فقد كان من رأي السيد الوزير أن يطول الاسم أكثر إلى: الشركة العامة لمنتجات النشا والخميرة البيرة وغيرها من الخميرة.

بناء عليه، اقترحت اسما جديدا للشركة يكشف أهمية وتعدد

إنتاجها هو: شركة النصر لصناعة مقصات الخياطة ومقصات الحلاقة ومقصات أظافر اليدين والقدمين (مقصتكس).

ولكن السيد نائب الوزير رأى أن هذا الاسم قصير. فاستقر الرأي على أن يكون اسم الشركة شركة النصر لإنتاج الفلزات القاطعة والقواطع الحديدية المحورية والتوريدات المعدنية (فلزوتيكا).

كما استقر الرأي على أن يكون اسم ماركة المقص: مقص الشعب.

المصنع جاهز للتشغيل. بلغت التكاليف مليونين و٨٠٠ ألف جنيه.

بناء على الدراسة التي كلفت بها المدير المالي. قال المدير المالي إن المصنع سيوفر سنويا ٣ آلاف جنيه إسترليني تدفعها الدولة في استيراد المقصات.

أبلغت نائب الوزير أن المصنع سيوفر سنويا ٧٥ ألف جنيه إسترليني.

قال نائب الوزير للسيد الوزير أمامي إن المصنع سيوفر سنويا ١٥٠ ألف جنيه إسترليني.

أدلى السيد الوزير بتصريح قال فيه إن المصنع سيوفر نصف مليون جنيه إسترليني.

المصنع لم يبدأ تشغيله بعد ولكن الذي يبدأ هو الحملة الإعلانية المكثفة في الصحافة والتليفزيونات والسينما عن مقص الشعب. ظهر مع كل إعلان الشعار الجديد الذي رفعناه. «مقص لكل مواطن»

سعدت جدا والمذيعة تقرأ هذا الإعلان الذي كتبته بنفسي: إن شركة النصر لإنتاج الفلزات القاطعة والقواطع الحديدية المحورية والتوريدات المعدنية. «فلزوتيكا» يسرها أن ترسي أسس الحياة الكريمة للمواطنين، فإن الحياة الكريمة لا يمكن أن تتحقق إلا بتوفير مقص لكل مواطن.

أعجبني إعلان آخر يكشف عن دور شركتنا في حفظ القيم الأخلاقية، إذ سيظهر مشهد فاضح لرجل وامرأة بينما المذيع يقول: هذا المنظر الخليع قصه الرقيب بمقص الشعب.

المشاورات تجري: هل نجعل أولوية حجز المقص للعملة الصعبة؟

* * *

هذه يوميات من كراسة قديمة
لرئيس مجلس إدارة زمان

ظهرت بوادر إنتاج المصنع، مفاجأة غريبة. المقص بأنواعه الثلاثة ـ خياطة وحلاقة وأظافر ـ مسدود الأذنين بحيث لا يمكن أن ينفذ إليها الأصابع للإمساك به واستعماله ـ قال الفنيون إن هذا العيب بسيط جدا ويمكن تلافيه.

المحاولات تجري لعلاج أذني المقص كما تبين أن هناك عيبا بسيطا آخر وهو أن المقص ـ بأنواعه الثلاثة ـ لا يقطع القماش ولا الشعر ولا الأظافر، بل يكتفي بمضغها بين طرفيه. ونظرا لانسداد أذنيه أمسكت بالمقص بكلتا يدي كمقص النجيل وحاولت قص ورقة فلوسكاب فمضغها.

مفاجأة غريبة جدا. جاءني المدير التجاري ومعه ٧٠ ألف مقص مكتوب عليها إنها «مصنوع في شيفيلد ببريطانيا»، وأكد المدير التجاري أنها تسربت من مخازن الشركة بمعرفة تجار البضائع المهربة الذين أزالوا ماركتنا وكتبوا عليها بالإنجليزية ليوهموا الناس أنها مستوردة. قلت له: ولكن مقصنا ودانه مسدودة، قال: خرموها يا فندم.

قلت له: ومقصنا يمضغ ولا يقطع، قال في دهشة: ما تفهمش يا فندم عملوا فيه إيه خلوه زي المشرط.

وافقت على رأي المدير التجاري بإزالة الماركة الأجنبية المزيفة وإعادة ماركتنا إلى هذه المقصات وإرسال عينة منها إلى السيد الوزير.

تلقيت تهاني السيد الوزير بجودة إنتاجنا الذي يضارع أرقى المستويات العالمية، وكانت هذه التهنئة حافزا عظيما للفنيين لمضاعفة الجهد في معرفة السبب أن مكن المصنع لا يزال يخرج المقص بودان مسدودة.

طرحنا في السوق كمية المقصات التي أزال تجار البضائع المهربة ماركتنا من عليها ليبيعوها كمقصات مستوردة.

أنجح إعلان تليفزيوني وسينمائي ظهر حتى الآن: شاب يجري بأقصى سرعته وسط حركة المرور، يستوقفه صديق ويسأله لماذا يجري هكذا، فيرد الشاب: رايح أقص بمقص الشعب، ثم رجل يركب سيارته ويدير محركها باستعجال بالغ ولا تلحق به زوجته التي يقول لها: رايح أقص بمقص الشعب، طبيب يترك بطن المريض مفتوحة فجأة ويجري خارجا يردد: رايح أقص بمقص الشعب، ثم يتحول الإعلان إلى جموع من الناس تجري في الشوارع، في الميادين، في الحقول وهم ينشدون: رايحين نقص نقص نقص.. رايحين نقص بمقص الشعب، وينتهي الإعلان برجل يحاول اللحاق بقطار أطل كل ركابه من النوافذ يغنون مخاطبين الرجل: رايحين نقص نقص نقص.. يا عيني عليك مش جاي تقص، وينهار الرجل

بعد ابتعاد القطار ويقرر الانتحار لأنه مش رايح يقص، لكن فرحة الدنيا تعود إليه عندما يقدمون إليه مقص الشعب وهو يغني: دلوقت أقدر أقص. هذا الإعلان الذي ملأ دور السينما ويذاع في التليفزيون كل نصف ساعة حفظه الصغار والكبار وهكذا أصبح لمقص الشعب مكانة قومية عظيمة.

أبدى السيد الوزير رغبته أن نصدر مقص الشعب إلى الخارج نظرا لارتفاع مستواه فطلبت من سيادته مهلة للتشاور مع الفنيين في الشركة.

سألني السيد الوزير عن الأرباح المتوقعة للشركة هذا العام. قدرتها بنصف مليون جنيه. كان السيد الوزير سعيدا وهو يهدي كبار زائريه مقصا من مقصاتنا التي زيفها تجار البضائع المستوردة الضلالية فأزلنا كتابتهم المزيفة وأعدنا كتابة ماركتنا عليها.

في اجتماعي اليوم برجال الشركة، قالوا إن طاقة المصنع الحالية لا تسمح بتحقيق رغبة السيد الوزير في التصدير. أكد لي الفنيون أن إنتاجنا في تحسن مستمر وأن المكن الآن يخرج المقص بودن واحدة مسدودة وقريبا جدا سيزيلون انسداد الودن الثانية، وأن تجارب تحويل المقص من مقص ماضغ إلى مقص قاطع تبشر بالخير.

ضبط المدير التجاري كميات أخرى من مقصاتنا التي أزال تجار البضائع المهربة ماركتنا من عليها وعملوها مقصات إنجليزية. قال لي المدير التجاري إن مديري التسويق في الشركات التي تنتج وتتجر في المواد الاستهلاكية قد حفيت أقدامهم للاجتماع به، فهم يريدون أن يروجوا سلعهم ببيع مقصنا الشعبي المحبوب مع سلعهم. فمن

يشتري خمسة أمتار كستور مثلا لا بد أن يشتري معها مقص الشعب وعلى تاجر التجزئة أن يشتري كمية مقصات تناسب عدد أمتار أثواب الأقمشة الشعبية التي يتسلمها. والله هذه فكرة صائبة، فلا بد أن نعاون الشركات الاستهلاكية في ترويج سلعها.

ماذا جرى لأخلاق الناس؟! الصحف مليئة بأخبار الحوادث.. مواطن اشترى ١٢ متر دبلان لأسرته ورفض أن يشتري معها مقصين بثلاثة جنيهات. أمسك بالمقص ذي الأذن المسدودة وسأل البائع. بتقص به إزاي ده؟ أفهمه البائع أن يمسك بالمقص بكلتا يديه. فما خلق الله اليد اليسرى إلا لتعاون اليمنى، رفض المواطن فامتنع البائع عن إعطائه الدبلان. مواطنة رفضت أن تشتري مقص أظافر مع زجاجة مانيكير من إحدى الصيدليات. سألت عن ثمن المقص، ٤٠ قرشا نظرت لفردتي المقص المفكوكتين وبدأت تناقش الصيدلي فأنهى المناقشة بأنه تسلم المقص مفكوكا ويمكنها أن تربطه في البيت وتخرم ودنه التانية. حدثت مشادة اتهمت خلالها الصيدلي أنه لص فشد الباروكا من على رأسها وطوح بها في الشارع ثم سكب مادة حارقة على صلعتها، راكب أتوبيس رفض أن يتسلم باقي التذكرة مقص أظافر. معركة. ماذا جرى لأخلاق الناس؟! اللهم لطفك.

الحمد لله المصنع لا يلاحق طلبات السوق ورغم هذا النجاح فقد كتب بعض الصحفيين المغرضين يندد بهذا الإنتاج الرديء ويتهم الشركة باللصوصية وامتصاص دم الشعب.

أصدرنا بيانا نددنا فيه بالمخربين الذين يريدون هدم القطاع العام

وتقويض صناعة وطنية أثبتت تفوقها على مثيلاتها العالمية. عززنا هذا البيان بفيلم سينمائي تليفزيوني للمعرض الذي أقمناه وافتتحه السيد الوزير وشاهد فيه إنتاجنا من المقصات التي زيفها تجار البضائع المهربة وأعدنا كتابة ماركتنا عليها.

وهكذا خرس الصحفي المغرض خصوصا أن الرقابة حذفت مقاله الذي أراد أن يرد فيه علينا بافتراءاته

المكن يعاني بعض العيوب البسيطة التي نتج عنها سد ودن المقص مرة أخرى كما أن المكن أصبح لا ينتج إلا فردة المقص الشمال فقط ففكرنا أن نصنع للمقص فردتين شمال ونعطي المسمار للمستهلك يربط به الفردتين ويتصرف كما يشاء. ثم استشرنا المختصين في الدولة التي اشترينا منها المصنع فقالوا لا بد من نقل المصنع إلى بلادهم لفحصه وإصلاحه وإعادته على حسابنا لأن المصنع من الأسرار الصناعية الكبرى لدولتهم، ومعنى هذا التعطيل خسارة محققة للشركة وانتهت المشكلة باقتراح للمدير التجاري الذي قال إن المواطنين الذين شجعوا إنتاجنا ويقبلون عليه لن يضيرهم أن نبيع لهم المقص فردة واحدة شمال وودنها مسدودة.

قدمنا الميزانية إلى السيد الوزير وأدلى سيادته إلى الصحف والإذاعة والتليفزيون والركوردر والبيك اب بتصريح قال فيه إنه يفخر بأن الشركة قد حققت ربحا قدره ثلاثة أرباع مليون جنيه كما فازت بكأس الإنتاج. ومنذ سبعة أشهر ونحن نبيع المقص فردة واحدة شمال دون أن ترتفع شكوى أو يكتب صحفي موتور، صحيح أن

هناك رقابة على الصحف، ولكن ليس هذا هو السبب في خرس الأقلام الموتورة والمخربة.. السبب هو تشجيع الناس وحبها لمقص الشعب الذي يرددون له مع أغاني الإعلانات.. لعب وجد ولعب.. يا حلاوتك يا مقص الشعب.

* * *

التدابير لله..

بدأ المنصب الوزاري بوزير «فاضي» طول الوقت مهنته أن يقول له الملك: دبرني يا وزير.. فيرد الوزير قائلا: التدابير لله يا ملك، ثم يسكت بعدها هارشا ذقنه في انتظار رأي الملك الذي طلب منه الرأي!

وكان الوزير يقبض مرتبه الشهري مقابل هذه العبارة: التدابير لله يا ملك. أما في الدول القديمة الفقيرة التي كان يظهر فيها قوس قزح ـ لشدة فقرها ـ أبيض وأسود فقد كانوا يمنحون الوزير ـ فوق مرتبه ـ بدل تمثيل لقول.. التدابير لله يا ملك، وبدل ملبس يلبسه أمام الملك ليقول: التدابير لله يا ملك، وبدل انتقال لينتقل إلى الملك ويقول: التدابير لله يا ملك، وكان يركب نوعا نادرا وفاخرا من الحمير اسمه حمار سيدس.

وجاء العباسيون واستحدثوا لأول مرة نظام الوزير الذي يرأس الجهاز الإداري للدولة، ولما كان البرامكة وزراء لهم الرأي والتنفيذ، فقد عصف بهم هارون الرشيد ليثبت أن عين العقل هو أن يقول الوزير ـ ردا على دبرني يا وزير: التدابير لله يا ملك.

وجاءت العصور الحديثة فامتلأ وقت الوزير في الدول النامية وأصبح مشغولا بالتصريحات المتوالية التي يدلي بها إلى الصحافة والتليفزيون والإذاعة والكاسيت والفيديو والجرامفون، فإذا سئل الرأي عند صاحب الرأي قال: التدابير لله يا ملك.

إن الممثلين زمان كانوا ينفردون بالنجومية لانفرادهم بشاشة السينما، أما اليوم فإن شاشة التليفزيون الملون تتيح فرصة النجومية لغير الممثلين.

فتسطع النجومية أكثر كلما زاد الظهور على الشاشة، وزيادة الظهور على الشاشة مرهونة بزيادة التصريحات، لهذا تجددت التصريحات وتنوعت، وغلب الإبداع عليها، مثال ذلك ما صرح به بعضهم من أنه أعد مشروعا لتدفئة البحر شتاء حتى لا يقتصر موسم الاستحمام في البحر على شهور الصيف

والتصريحات غريزة في الإنسان، يحب قولها ويحب سماعها أيضا، فإذا غلب عليه حب قولها فهو سيصبح وزيرا، وإذا غلب عليه حب سماعها فهو سيصبح مواطنا إلى الأبد. والحقيقة أننا نبدأ حياتنا بأول تصريح فولكلوري نسمعه ونحن في لفة الطفولة والكافولة. إذ تقول الأم: ننه نام ننه نام وأدبح لك جوزين حمام، هذا أول وعد معسول كاذب نسمعه صغارا ويتعذر تحقيقه طبعا بالنسبة لوليد لم تنبت أسنانه بعد لمضغ جوزين الحمام. ثم نستمرئ بعد ذلك سماع التصريحات لأنها تداعب عندنا الأماني والتطلعات. فيصرح الأب لولده قائلا: سوف أشتري لك ساعة إذا فعلت كذا، وسوف أشتري

لك آلة تصوير إذا حدث كيت ويفعل الولد كذا ويحدث كيت ولا تتحقق التصريحات.

ثم يشتد عودنا ونكتشف أن التصريحات ضرورة من ضروريات الحب والغرام، ولذلك نجدها منتشرة في أغاني المحبين، حيث يصرح عاشق غنائي بقوله: أبني لك قصر عالي وأخطف نجم الليالي، وآخر يقول: أمشي لك سبع شهور وأعدي لك سبع بحور، ثم يتزوج الإنسان ويصبح محترف تصريحات لزوجته خصوصا عندما يقول لها: باحبك.

ويكبر الإنسان مركزا ومكانة ويدخل في مرحلة جديدة من التصريحات للصحافة والإذاعة والتليفزيون وقد صار وزيرا، ولا شك أن هذا العصر التليفزيوني يعد العصر الذهبي للتصريحات وسوف يخلدون هذا العصر بعمل شطرنج بالبطارية لا يتحرك فيه الوزير من مربع إلى مربع إلا إذا قال تصريحا.

* * *

فلسفة بيروقراطس

من أحلى القصص الكوميدية التي حدثت في الواقع البيروقراطي وغابت عن السينما والتليفزيون أن موظفا بمديرية الصحة بإحدى المحافظات تم تكليفه بتسليم تسعة مرضى إلى مستشفى الأمراض العقلية بالقاهرة. ولما كان هذا الموظف لديه مناسبة عائلية في نفس اليوم لا بد من حضورها فقد عهد بالمهمة وديا إلى سائق الميكروباص الذي كان سيصحبه مع المجانين التسعة. وسلمه كشفا بأسمائهم ليوقع عليه موظف المستشفى باستلامهم. وفي الطريق نزل السائق يشرب الشاي وعاد ليجد أن المرضى هربوا من السيارة فلم يكترث بل أكمل رحلته إلى القاهرة. وفي موقف أحمد حلمي راح ينادي: نفر بلبيس... نفر بلبيس.. فلما اكتمل العدد إلى تسعة تحرك الميكروباص ثم استأذنهم السائق في مشوار صغير لمستشفى العباسية. وفي فناء المستشفى هبط السائق وتوجه إلى الموظف المختص وهمس في أذنه بأنهم من المجانين الخطرين. وأنه عاني منهم الأهوال ولولا ستر ربنا لقتلوه في الطريق.

وانقض زبانية المستشفى على المواطنين التسعة الذين حاولوا

أن يثبتوا عبثا ـ لأمد طال ـ أنهم عقلاء فما دامت الخانات في الدفاتر مسددة ـ والدفاتر تقول إنهم مجانين. فهم مجانين ولا يعلى على كلام الدفتر الحكومي.

حتى وجود الإنسان على قيد الحياة مرتبط بالأوراق التي تثبت ذلك، فإذا اختفت هذه الأوراق كان هذا الإنسان في عداد الموتى رسميا دون أن يتوفاه الله. مثال ذلك أن مستحق المعاش عليه أن يقدم إقرارا سنويا بأنه على قيد الحياة. فإذا ذهب بلحمه ودمه ليثبت أنه حي فهذا لا ينهض دليلا على أنه حي ولا بد من الورقة والإقرار!

وغباوة البيروقراطية لا تقتصر على بلد دون آخر فهي تنتشر في الدنيا كلها. في إيطاليا مثلا: على مستحق المعاش أن يقدم إقرارين كل شهر. لا كل سنة ـ واحد أنه على قيد الحياة والثاني أن صفته كمستحق للمعاش لم تتغير. وقد ذهب عجوز إيطالي ليقبض معاش إبريل ومايو ويونيو فلم يقبض إلا معاش يونيو. إذ طالبوه بأن يثبت أنه كان على قيد الحياة في إبريل ومايو ليصرف معاش الشهرين!

وفي بريطانيا تشترط بلدية المدينة التقدم بقائمة النباتات والزهور التي ستزين النوافذ ووقع الموظف المختص بالموافقة على طلب لمواطن كتب أنه سوف يزرع في النوافذ «سولانم مليونجينا» «وفيكس سيارموس» اسمان علميان للباذنجان والجميز.

وفي أمريكا دخل خبير إداري أحد مكاتب الحكومة الفيدرالية في واشنطن وسأل الموظفين الثلاثة بالمكتب سؤالا واحدا: ما هو عملك هنا؟

ورد كل موظف قائلا: لا أعمل شيئا فكتب خبير الإدارة في تقريره تشابه اختصاصات ويكفي موظف واحد للقيام بهذا العمل!

وفي إحدى إدارات الإنتاج الحربي بواشنطن جلس اثنان من العاملين في مكان واحد يعملان شهورا طويلة دون أن يتبادلا غير التحيات، ولاحظ أحدهما أن زميله ينصرف في الساعة الرابعة بينما يظل هو يعمل إلى ما بعد الساعة الرابعة؟؟ فقال الآخر: عندما تقع في يدي أوراق تحتاج إلى عمل مرهق ودقيق فإنني أكتب عليها تحال إلى الكابتن أندرسون للتصرف فلا يعيدها لي أبدا الكابتن أندرسون.

وحملق الرجل في زميله ليسأل الآخر: أراك مندهشا.. فرد عليه قائلا: هذا طبيعي فأنا الكابتن أندرسون!

* * *

أولاد العز..!

قال لي: شيء يدعو للفخر أن يصل المصري القديم إلى هذه القدرة المذهلة في حفظ الطعام آلاف السنين باكتشاف قوالب الزبدة الفرعونية ومن قبلها الجبنة البيضاء وبها بكتريا صالحة للتخمير، إنه إعجاز علمي بكل المقاييس كان يجب أن تهتهم به أجهزة الإعلام اهتماما خاصا لتعرف الدنيا مَنْ نحن.. ومن نكون.. ومن نحن.. ومن نكون حقا؟؟

نحن أولاد الناس الطيبين خوفو وتحتمس وأحمس وإخناتون ورمسيس، لكن هناك من يدعي أننا أحفاد متخلفون وأن سبب تخلفنا هو تفاخرنا المستمر بالأجداد والأهرامات والكرنك وقوالب الزبدة.

لا تلق بالا لهؤلاء يا صاحبي لعلهم حاقدون.

هناك أيضا من يقول إننا الأحفاد نلبس ياقة منشاة مهترئة وثيابا بالية عليها آثار العز القديم ونقدم أنفسنا إلى المجتمع الدولي على أننا من أكبر عيلة في التاريخ، لا نلقي بالا أيضا إن كان ردهم علينا: طظ.

فنحن من عالم حديث لا يعترف بأولاد الذوات من العائلات العريقة، كما أنه عالم يستنكر أن يعيش الإنسان على سمعة قديمة، ولكن اطمئن فنحن الأحفاد لا نقل عظمة عن الأجداد، فإذا كانوا قد استطاعوا حفظ قوالب الزبدة من ألوف السنين فما حاجتي أنا الحفيد إلى ذلك في عصر ديب فريزر إيديال وهو في متناول كل الحاجزين بالدور أو بالوساطة، وإذا كان الوزير أمحوتب رائد الفن المعماري ومصمم هرم سقارة اعتبرته الحضارة الإغريقية فوق البشر لعبقريته وعبدوه بالفعل إلها للطب والسحر والفلك فنحن الأحفاد عندنا الوزير العبقري الذي تعبده حضارة بني همبكة وتقيم له الطقوس وتحرق البخور، وإذا عيرك أحد بأن نسبة الأمية بلغت ٧٠٪ بين أحفاد قدماء المصريين أول من اخترعوا الكتابة في التاريخ فرد قائلا: إننا أيضا ابتدعنا كتابة تصويرية كالهيروغليفية.. فالهلال معناه الحزب الوطني والنخلة معناها الوفد والنجمة معناها حزب العمل والمفتاح معناه حزب الأحرار، وإذا قيل لك إن الأجداد قد برعوا في علم التحنيط الذي لا يزال سرا كيميائيا مستغلقا؛ ففاخر فقد نجحنا أيضا في صنع المومياء أو الإنسان المحنط (ادخل مصلحة حكومية وانظر إلى الجالسين على المكاتب)، وإذا كان الفراعنة روادا في اكتشاف الأمراض وعلاجها فإن طب الأحفاد لا يزال سباقا أيضا إلى اكتشاف كل جديد. آخرها ذلك المرض الذي يصيب الإنسان بالإسهال مع العطش الشديد والمغص وصعوبة البلع واصفرار الوجه وزيغ العينين عقب تناول زيت التموين.

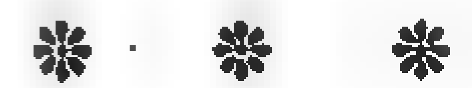
ولا تجعلهم يشككونك في نسبك.

بالتأكيد نحن أبناء قدماء المصريين.. فمن المؤكد أنهم لم يعثروا علينا على باب جامع.

نحن أولاد الناس.. ونحن من أعرق الأسر في البشرية أولاد الذوات.. وعن وجه الشبه بيننا وبين آبائنا الأوائل فهو قوي جدا. امش في القرية والمدينة وسوف تجد كل الوجوه صورة طبق الأصل من سنفرو ونفتاو ونخت وسي تي وتي تي ولا تبالغ في الاختلافات.

الاختلاف الوحيد بيننا وبينهم هو مسألة الوقت؛ فنحن مثلا نرى أن التأني واجب وهم كانوا في عجلة من أمرهم يحرصون على الوقت بطريقة مزعجة فلم يعرفوا المسلسلات ولا اللب ولا أغاني عدوية وحتى زيهم الفرعوني الشهير الذي يكشف الجزء العلوي من الجسم روعي فيه - مع بساطته وملاءمته للجو - اختصار الوقت في لبسه وخلعه؛ بل هو أسرع زي للبس إذا قورن بما نرتديه نحن في ريفنا البنش والصديري، فالبنش فيه على الأقل عشرة أزرار قطان والصديري خمسة عشر زرا ويتطلب تزرير وفك الاثنين خمس دقائق في المتوسط يوميا صباحا ومساء أي ٣٠ ساعة في السنة أي يحتاج الإنسان كل خمس سنوات إلى ستة أيام للتزرير وفك الأزرار (غير العطلات الرسمية والإجازات)، وكان المصري القديم يعرف أن القفا العاري يسبب المشاكل إذا امتدت إلى هذا القفا يد غريبة. الأمر الذي يضيع الوقت في الخناق فكان غطاء الرأس الفرعوني ذو الخطوط العريضة يغطي القفا بينما البنش بلا ياقة، كما أن اللاسة لا تغطي القفا الأمر الذي جعل أقفيتنا هي أبرز ما يظهر منا بوضوح شديد، وهو أمر غريب مستحب. بل إن اهتمام المصري بالوقت بلغ مداه فأصبح صاحب أول اختراع في التاريخ لقياس الزمن: المزاول أو الساعة الشمسية.. ويقول ديورانت في مؤلفه قصة الحضارة: إن المصري القديم قدم خدمة لا تنسى إلى الإنسانية بابتداعه أول

وأدق تقويم سنوي في العالم أخذه عنه الرومان ثم صار الأصل لكل تقويم، وبفضل اختراعات آبائنا أصبح في يد كل منا ساعة نعرف بها وقت التوقيع للانصراف من العمل وعلى كل حائط نتيجة نعرف منها موعد القبض أول الشهر وموعد الإجازات والعطلات، كذلك كان المصري القديم يحدد مكان النوم في الفراش فقط ولم يكن يعرف أن لبدنه عليه حقا وأن الإنسان يمكن أن ينام في أي مكان وأن يرفع شعار مطرح ما ييجي في عيني النوم أنام وأنا مرتاح البال. وما كان معيبا بالأمس صار مباحا اليوم وهو النوم في الممنوع والوقوف في الممنوع. وأولاد الذوات لا يعملون فقد شقي آباؤنا من أجل راحتنا وتركوا لنا ريعا سنويا من الأهرامات والكرنك وتوت عنخ آمون.



دكتوراه في درجة الملوحة

فكرت فيما يفعله الكثيرون هذه الأيام وهو أن أغيب شهرين في أوربا وأمريكا ثم أعود وقد سبق اسمي لقب الدكتور، وإذا سئلت عن موضوع رسالة الدكتوراه فيمكن أن أقول إنها عن الأخطاء المطبعية في العصر الأموي، ورغم أن المطبعة في العصر الأموي لم تكن قد اخترعت بعد إلا أن أحدا لن يعير ذلك أهمية وسوف يظل اسمي مسبوقا بلقب دكتور.

ثم عدلت عن هذه الفكرة لما رأيت أن لقب دكتور قد انتشر هنا وهناك.. فهذا رجل في فرقة موسيقية عاد من أوربا يحمل درجة دكتوراه في التزمير.. وهذا طباخ في أحد الفنادق عاد ومعه دكتوراه في دق الكفتة.. ولن تتعجب كثيرا في القريب للافته تحمل اسم عالم جليل حصل على دكتوراه في درجة ملوحة النباتات: بائع طرشي.

ولقد تسلل إلينا أدعياء الدكاترة من إيطاليا بالذات؛ لأن كل من يحصل على شهادة تعليم عال أو متوسط فهو دو توري.. أما من يحصل على درجة الدكتوراه في إيطاليا فلقبه البروفسير.

ويبدو أن هذا اللقب العلمي « دكتور» سوف يلحق بلقب أفندي

الذي كان يعد من أكبر وأفخم الألقاب في القرن الماضي، فكانوا ينادون السلطان العثماني أفندم أي مولانا.. والخديو أفندينا.. ثم ما لبث أن أصبح لقب أفندي من الألقاب الترسو في القرن العشرين ذلك أن هناك ألقابا تفقد سحرها مع الزمان أو المكان؛ فقد كان الصدر الأعظم مثلا هو لقب رئيس الوزراء في الدولة العثمانية ثم أصبح الصدر الأعظم لقب جين راسل في هوليود.

وفي الأندلس كان أرفع الألقاب بعد الخليفة هو لقب الحاجب أي رئيس الوزراء ودارت الأيام ليصبح الحاجب هو منادي المتهمين والشهود في المحكمة وسبحان مغير الأحوال.

ويعتبر «وزير» من الألقاب السياسية الرفيعة لكنه غير معروف في الولايات المتحدة، فالوزير هناك اسمه سكرتير وهو لقب لا يغري أحدًا منا بأن يشتغل وزيرا هناك، كذلك يختلف لقب وزير في إسبانيا وإيطاليا عن باقي العالم؛ ففي إسبانيا يطلقون لقب وزير على عسكري الشرطة وفي إيطاليا يطلق لقب وزير على مساعد عشماوي الذي يقوم بتنفيذ أحكام الإعدام.

ويبدو أننا مجانين بالألقاب في كل مجال.. وبعد وفاة عبد الحليم حافظ مثلا ظهر مطرب أطلق على نفسه لقب العندليب الأبيض وأنه خليفة العندليب الأسمر، ولقد تحول هذا العندليب الأبيض إلى عندليب أزرق بسبب الكدمات وضرب الناس له ثم اختفى من الحياة الفنية إلى الأبد.

والظاهر أن الفنانين العالميين لا يحترمون أنفسهم كفاية؛ فهذا «فرنك سيناترا» لا يطلق على نفسه كروان المسيسيبي، ولم تقل

«دونا سمر» إنها بلبل الكابيتول، ولم نسمع أن خوليو هو أمير الغناء الإسباني. بل لا نرى في صناع التراث الإنساني لقبا باسم واحد منهم ابتداءً من شكسبير إلى فيكتور هيجو إلى تشيكوف وجوركي وزولا، فالألقاب عندنا فقط حتى ولو كان الاسم شامخا بذاته على الزمان: أمير الشعراء أحمد شوقي، شاعر النيل حافظ إبراهيم، شاعر القطرين خليل مطران، رب السيف والقلم محمود سامي البارودي، أستاذ الجيل لطفي السيد، مع أن التاريخ يحفظ الأسماء دائما بلا ألقاب عندما تستحق هذه الأسماء أن يحفظها التاريخ لكننا في بلاد يظل فيها اسم الإنسان محاطا بالألقاب حتى بعد أن يلفظ أنفاسه؛ وليس أدل على ذلك من زوج يعيش عمره مذعورا كالأرنب في بيت الزوجية ثم تشيعه الزوجة في يومه الأخير بألقاب فخيمة مثل يا سبعي.. يا جملي!

❊ ❊ ❊

القــرار..

في المدرسة الثانوية كنت شديد الانبهار بنابليون بونابرت.. ومن أجل نابليون دخلت الجمعية التاريخية لأتعمق في دراسته.. ومن أجله أيضا شاهدت كل فيلم سينمائي يروي قصة حياته أو جانبا منها.. ومن فرط عشق نابليون لجوزيفين بوهارنيه تمنيت أن تكون الفتاة التي أحبها جوزيفين وقد تحققت الأمنية فالتقيت في بلاج جليم بفتاة اسمها جوزيفين لها ملامح لافتة للنظر؛ إذ كانت تشبه إسماعيل ياسين وتختلف عنه في أن إسماعيل ياسين كان من غير شنب.

أصبحت أيضا أقلد نابليون وهو يفكر.. إذ كان يذرع المكان جيئة وذهابا وهو يعقد يديه خلف ظهره وقد فهمت وقتئذ أن هذه الحركة تساعد على التفكير.. ثم لما كبرت عرفت أن نابليون كان يصنع أخطر القرارات أثناء هذه الحركة.. والذي قرأ تاريخ عظماء البشرية يجد أن كلا منهم كان له أسلوبه في صنع القرار.. كان امرؤ القيس ـ الملك الضليل ـ هو أول من رفع شعار «اليوم خمر وغدا أمر» وكثيرون مثله كانوا ينغمسون في اللهو قبل اتخاذ القرار وبعضهم كانوا يعتزلون الناس وحتى المستشارين للوصول إلى القرار المناسب.

والبعض الثالث كان يلغي مواعيده ليجتمع بالمنجمين قبل القرار.. ومنهم من كان يتفاءل ببدلة يرتديها ويعتقد أنها سوف تجعله يتخذ القرار الصحيح.. وآخر يتمشى طويلا حتى يصل إلى درجة الصفاء الذهني.. ومنهم من كان يجلس في مقعد مريح مسترخيا حتى يقع فيما يسمى بغيبوبة الإلهام.. ومن هنا ترددت تعبيرات الزعيم الملهم والقائد الملهم.. ويقال إن أحد المحيطين بليونيد بريچنيف ظل يراقب لساعات طويلة وبإعجاب شديد الزعيم السوفيتي وهو في غيبوبة استلهام القرار.

ثم تبين أن بريچنيف ميت من أربع وعشرين ساعة.. ولهذا أذيع خبر وفاته بعد أربع وعشرين ساعة.. وكان بريچنيف أحسن حظا من ستالين الذي يقال إنهم أذاعوا خبر وفاته بعد أربعين ساعة لأنهم كانوا ينتظرون الإذن من ستالين نفسه لإعلان خبر الوفاة.

إن اتخاذ القرار أمر خطير وعسير حقا إذا كنت نابليون أوغورباتشوف أو تشرشل أو ريغان فهنا أنت أمام قرار يتعلق بمصير البشر، لكن الحمد لله مرتان مرة لأننا لسنا زعماء البشرية ومرة لأن الظروف ترفع عنا عبء اتخاذ القرار، إذ إنه حق للزوجة ولنا حق الموافقة أو حق الامتعاض.

وفي الدول المتقدمة الآن دخل الكمبيوتر المسرح ليلعب دوره في مساعدة القادة على اتخاذ القرار ويقال في ذلك عن أحد البلاد الأوربية إن رئيسها يلجأ دائما إلى الكمبيوتر لاختيار الوزراء.. وفي كل وزارة جديدة كان الكمبيوتر يشير باختيار السيد چيرالد فيليب وزيرًا للتقنية ثم تبين أن السيد چيرالد فيليب هو مصمم هذا الكمبيوتر.

القديم.. والجديد..!

في امتحانات هذا العام تفتق ذهن ممتحن عبقري عن وضع سؤال لتلاميذ صغار يقول: ما هو مذكر دنيا؟

وكتب تلميذ ردا ذكيا أثبت فيه أن أسلوب تفكير الجيل الجديد يتفوق بمراحل على واضعي الأسئلة فقال: بإيجاز الدنيا ليس لها زوج نعرف اسمه.

وأذكر أنني تلقيت من تليمذ بالصف الثالث الابتدائي رسالة يقول فيها: والدي يهوى أغاني الأستاذ عبد الوهاب وقد سمعته يقول في أغنية الجندول قلت والنشوة تسري في لساني هاجت الذكري فأين الهرمان ولأن الأهرامات عندنا ثلاثة خوفو وخفرع ومنقرع فأين ذهب هرم منقرع؟!

وكتبت للتلميذ اللماح: لقد عكفت يا ولدي على إعادة قراءة قصيدة الجندول وانتهيت إلى أن الشاعر في هذه القصيدة يصور عاشقا يتذكر هرما واحدًا هو الهرم الأكبر - خوفو - الذي يجلس تحت سفحه، وقد تذكر ذلك وهو نشوان تسري النشوة في لسانه أي شرب شيئا أصفر يجعل الإنسان ينظر إلى الشيء الواحد فيراه اثنين، وهكذا

نظر إلى هرم خوفو من خلال خياله فوجده هرمين وعندئذ تساءل: أين الهرمان.. فإذا قبلت هذا التفسير يا ولدي فإني أشكرك.. وإذا لم تقبله فليس عندي تفسير آخر خصوصا أن هرم منقرع لم يسرق بعد ضمن الآثار المنهوبة كل يوم.

والواقع أن الصغار لهم لمحات تدل باستمرار على أن الأجيال الجديدة أكثر تفتحا وتطورا مثلما حدث بصدد ذلك السؤال الذي طرحوه على الصغار في الرياضيات وجاء فيه: أمامك قطعة لحم قسمها إلى نصفين ثم نصف النصفين ثم نصف نصف النصف.. إلى آخره.

وكتب تلميذ: نصف ـ ربع ثمن ـ ١/ ١٦ وظل يتدرج التلميذ في كتابة القسمة ثم كتب: والآن لا يمكن قسمة قطعة اللحم أصغر من ذلك بعد أن أصبحت همبورجر!

وردا على سؤال: اذكر شهرا به ٢٨ يوما.. قال معظم التلاميذ: كل الشهور بها ٢٨ يومًا!

وردا على سؤال: ماذا قال يوليوس قيصر عندما طعنه بروتس؟ كتب تلميذ: قال متوجعا.. آي آي.

وسؤال: اذكر خمسة أشياء تحتوي على اللبن.. وكان رد تلميذ: الزبد والجبن والآيس كريم وبقرتان!

وردا على مسألة حسابية عن أم لديها أربع حبات بطاطس وخمسة أطفال وتريد أن توزعها بالتساوي على الأطفال الخمسة فكتب تلميذ يقول: تطبخها مهروسة.

وفي سؤال: عن نتائج اكتشاف القطب الشمالي قال التلميذ: النتائج أن دروس الجغرافيا أصبحت أكثر سخفا.

وفي سؤال يقول: اذكر اختراعا لم يكن موجودا من ١٥ سنة.

كتب تلميذ: أنا.

وفي سؤال: ماذا تفعل إذا كنت مليونيرا؟ ترك تلميذ ورقة الإجابة بيضاء قائلا: هذا ما أفعله.

وفي مدرسة أمريكية نظر أحد المراقبين إلى ورقة إجابة تلميذ عن سؤال يقول: من هو أول رجل في الدنيا؟ ووجد أن رد التلميذ أنه العظيم واشنطون.. فنبهه المراقب أن أول رجل هو آدم.. وهنا قال التلميذ: الآن فهمت السؤال يتكلم عن الرجال الأجانب.

وفي امتحان الأخلاقيات قال سؤال: أعطاك رجل مائة دولار لكي تحفظها له ثم مات فماذا تفعل؟ فكتب الولد: أصلي من أجل أن أعثر على رجل آخر مثله.

وفي سؤال آخر للأخلاقيات: هل تسامح إنسانا أساء إليك؟ وكان الرد: أسامحه طبعا إذا كان أكبر وأقوى مني.

وجاء في سؤال مطلوب إكماله: لويس الرابع عشر كان مسؤلا عن......، فكتب التلميذ: كان مسؤلا عن لويس الخامس عشر.

وجاء في أحد الأسئلة: أدخل كلمة «يحلل» في جملة مفيدة.. ولما كانت الكلمة فوق مستوى الأولاد فقد كتب أحدهم يقول.. طلب منا المعلم أن نبحث عن معنى «يحلل» في القاموس.

أما عن انتقام الصغار من الكبار في المجال التربوي فتروي قصة أن مدرسًا نَبَّهَ على التلاميذ بألا ينطقوا الكلمة إلا إذا عدوا في سرهم من واحد لمائة حتى يكون الجواب صحيحا.. وفوجئ المدرس ذات يوم بالفصل يعد بصوت عال واحد اثنين وعندما بلغوا المائة صاحوا حريقة.. حريقة.. وكانت النار قد أمسكت بالمدرس من الخلف!

* * *

الماس والفاصوليا

بعض الناس لا يكفون عن النق والحسد وهم يتساءلون: لماذا تتقاضى الراقصة في ليلة واحدة ما يتقاضاه مفكر في سنوات؟

وقبل الرد على هذا السؤال يحسن بنا أن نقول: إن الدنيا أرزاق، وإننا لو تأملنا مصادر الرزق فسوف نجد أن بعض المهنيين يكسبون رزقهم من علل المجتمع؛ فالمحامي يرتزق من الجريمة، والمعلم يرتزق من الجهل، والطبيب يرتزق من المرض، كذلك هناك من يختار مهنة كئيبة يتم إنجازها وسط الأحزان والدموع كالحانوتي ومؤلف المسلسلات.

وكل مهنة أو حرفة لها وسيلة أداء تختلف عن الأخرى؛ فالمطرب مثلا يؤدي الغناء بحنجرته وكلما تفرد صوته بجمال خاص ارتفع ثمن هذا الصوت؛ فحنجرة عبد الوهاب مثلا حنجرة نادرة ينطبق عليها قانون الندرة في علم الاقتصاد وهو القانون الذي يفسر لنا لماذا الماس أغلى من الفاصوليا، فهناك حنجرة ماسية وهناك أيضا مئات المطربين من أصحاب الحناجر الفاصوليا.

كذلك ينطبق قانون الندرة على مهن أخرى غير مألوفة مثل مهنة

الخواجة تانتالوس وهو رجل يوناني كان له أنف كبير وعظيم يبتلع نصف وجهه، وكان هذا الأنف هو رأس ماله؛ إذ كان يستخدمه في مهنته «كخرمنجي» في شركة سجاير؛ والخرمنجي هو الذي يجرب خلطة التبغ التي تتكون منها خلطة السيجارة، وكان تانتالوس شديد الاعتزاز بأنفه لدرجة أنه رفض أن يصوره في تحقيق صحفي باعتبار أن أنفه من الأسرار التي لا يجوز الكشف عنها، ولست أدري الصلة بين ضخامة أنفه وحساسيتها، لكن ذلك الأنف يوحي إليك بأن أم تانتالوس ولدته كله في ساعة زمن وولدت أنفه وحده في يومين.

وفي عالم الفن يؤدي الممثل بصوته وملامح وجهه؛ وإن كان بعض مخرجي المسلسلات يجعل الممثل يتكلم وقفاه إلينا معتمدا على الانفعالات التي تظهر فوق القفا.

والملاحظ أن كل صاحب مهنة يستثمر جـزءًا من تكوينه الجسماني في أدائها؛ فلاعب الكرة يستثمر قدمه.. والفنان التشكيلي يستثمر يديه.. وعازف آلة النفخ يستثمر فمه.. فإذا أتينا إلى الراقصة وجدناها تؤدي مهمتها بالساقين والقدمين والكتفين والصدر والوسط والأرداف والرقبة.. ولا بد من حركة الحاجبين واحد طالع وواحد نازل.. وحركة الشفتين لزوم الدلال.. وغمزة العينيين لزوم الإغراء.. حتى الشعر على الكتفين يؤدي دوره ع الخدود يهفهف ويرجع يطير.. يعني كل أعضاء الجسم تؤدي الرقصة الأمر الذي ينفرد به الرقص الشرقي عن أي مهنة أخرى.. ولهذا استحق الأجر العظيم لأنه يتطلب جهدا من أعضاء الجسم جميعا لا يستطيع أن يؤديه أعظم أعلام الفكر فقد ثبت مثلا أن مفكرا عظيما كأرسطو كتب كتابه «الكون والفساد» وهو يستعمل ذهنه فقط.. ولذلك استحق أجر تفكيره الذهني فقط

ولم يثبت أنه كتب نظرية الدراما وهو يهز وسطه ولم يقم دليل على أنه كتب «الأورغافون» على واحدة ونص.

وما استحق أجرا عظيما من لم يتقصع وهز الصدر والأرداف.

* * *

الأزمة والحل..

عندما سألتني الصحفية الأمريكية عن الرقم القياسي لتوزيع أكثر الكتب مبيعا ارتفعت حواجبها من الدهشة ثلاثة أمتار وأنا أقول لها: ٢٠ ألف نسخة.. وهنا أسرعت أصحح الكذبة بكذبة أكبر فقلت لها: ضاحكا ٢٠ ألف نسخة في اليوم طبعًا ها ها ها!

ولم أقل لها إن الكتاب المصدر الأصيل للثقافة أصبح عزيز المنال من الناحية المادية خصوصا بالنسبة للشباب ولا بد من دعمه كرغيف العيش.. وصحيح أن هناك كتبا مدعومة تصدر عن هيئات حكومية.. لكن المشكلة أن الكتب المدعومة غير قابلة للقراءة والكتب المقروءة غير قابلة للدعم!

وفي رأيي أن أفضل أسلوب عملي لخفض تكاليف الكتاب هو أن تدخل الإعلانات التجارية إلى صفحاته.. ففي سبيل رخص سعر الكتاب يجب على القارئ أن يتحلى بضبط النفس عندما يقلب الصفحة فيجد مربعا في أعلى الصفحة مكتوب فيه: شركة فتكاتفون تقدم إنتاجها الجديد «رايح فين يا مسليني» للمطربة الكبيرة فتكات رمش العين.

ومأساة الكتاب ليست فقط في سعره المرتفع الذي أصبح فوق الاحتمال بل هي في محنة حقيقية من صد الناس له.. فالكتاب فيما مضى كان فارس زمانه الأوحد لا ينافسه في مصادر الثقافة الأخرى إلا المسرح ثم جاءت الإذاعة ثم ظهر في البيت مصادر ثقافة جديدة مثل ستيف أوستن والرجل الأخضر.

لقد أصبح من العسير توصيل فكر توفيق الحكيم مثلا أو زكي نجيب محمود إلا عن طريق مقاول مسلسلات.. وقد شاهدنا في التليفزيون كيف أن مسرحيات الحكيم التي تم سلسلتها أو إعدادها تليفزيونيا نجحت في إقناعنا بشيء واحد وهو أن توفيق الحكيم ساقط إعدادية.

وقد أصبح مألوفا أن يسأل رجل صديقه: هل قرأت كتاب دليل المرأة الذكية لبرنارد شو؟ فيرد الآخر: لا والله ننتظر لما يعملوه مسلسلة.

من هنا وجب علينا ابتكار وسائل جديدة للترغيب في شراء الكتاب كأن يكتب على غلاف كتاب للدكتور مصطفى محمود: اطلب مع الكتاب الملحق الخاص بحل فوازير رمضان.. وأن يكتب على غلاف كتاب لعبد الرحمن الشرقاوي بالداخل: صورة بالألوان للاعب الكرة المحبوب عبده العضاض.

وبهذا الأسلوب يمكن أن يتحقق الإقبال على الكتاب وأن يتجنب نوبات الحسرة أو نوبات الضحك على المستوى الثقافي لقطاع كبير من الجيل الجديد.

ففي امتحان شهدته لقبول مذيعين جدد كان هناك سؤال عن

الملكة الآشورية سميراميس.. ماذا تعرف عن الشخصية التي كان يحمل اسمها فندق سميراميس؟ فقال واحد: إن سميراميس مليونير يوناني، وقال آخر: إنها أميرة من أسرة محمد علي، وقال ثالث: إن سميراميس هو الاسم الثنائي لصاحب الفندق قبل التأميم فهو اسمه سمير وأبوه اسمه أميس!

وعن الزعيم عمر مكرم قال أحدهم: إنه حانوتي مشهور بميدان التحرير بالقاهرة.. وفي امتحان أصوات غنى جامعي ـ خريج زراعة ـ أغنية كليوباترا لعبد الوهاب فقال: كلما غرد كأس شربوا الخمرة لحمة فلما روجع وقيل له شربوا الخمرة لحنا أصر على أن يغنيها شربوا الخمرة لحمة.. وقال إن عبد الوهاب يغنيها لحمة.. فلما سأله أحدهم ساخرا: وهل هذه اللحمة ضاني أم بقري أم بتللو لباني.. ضحك معتذرا بأنه لا يريد أن يغني فيما لا يعرفه ولكن ما دام الأمر يتعلق بالملكة كليوباترا فلا بد أن تكون اللحمة خروف أُوزِي مع رز بالخلطة.

* * *

تكنولوچيا..!

تتقدم التكنولوچيا في الغرب تقدما مذهلا تصعب ملاحقته.. كما تفرز هذه التكنولوچيا ألوانا جديدة من المخترعات تكشف عن أن إنسان الغرب قد دخل عصر مشاكل الرفاهية وأصبحت التكنولوچيا تستهدف توفيروقته وجهده العضلي.. فلا أستبعد مثلا أن يخترعوا جهازًا لطرقعة الأصابع حتى لا يبذل الإنسان مجهودا خاصة أن الإنسان لا يطرقع أصابعه إلا عند الراحة والاسترخاء.. ولو كان الأمريكيون يسلمون باليد مثلنا لكانوا قد اخترعوا من زمان سلامة بتشديد اللام يتم تركيبها في الذراع لتقوم أوتوماتيكيا بالمصافحة.. وهي بالقطع كانت ستكون ذات فائدة عظيمة للمرشحين في الانتخابات لاستخدامها في السلام على الناخبين.. ويستطيع المرشح بزرٍّ خاص أن يرفع درجة اهتزاز الآلة حتى تصافح الناس بحرارة وشوق مع تزويد الآلة بشريط ناطق يصلح لمختلف المناسبات مثل أهلا يا حبيبي.. أنا فاكر مشكلتك.. أهلا يا حبيبي مشكلتك قدام الوزير.. أهلا يا حبيبي «ثم صوت خافت»: الفلوس جاهزة.

وسوف تغمر الأسواق آلات وأجهزة عجيبة منها جهاز إليكتروني

في حجم ساعة اليد يمر به المضيف على بعض ضيوفه الذين يدعوهم لأول مرة فيتحرك مؤشر ليكشف عن أن هذا الضيف ثقيل الظل وأن موجات كهربية غليظة تصدر من جسمه فلا يدعوه إلى بيته ثانية فيفسد سهراته.

وبفضل الأجهزة الإليكترونية وغيرها اكتشف الإنسان المعاصر تلوث البيئة.. فالذي لا شك فيه أن الهواء ملوث منذ الأزل قبل اختراع السيارة والطائرة فهو بحكم تكوينه مليء بغازات سامة كالأرجون مثلا.. ثم إن جداتنا كن يخبزن العيش في فرن البيت ويطهين الطعام على الكانون ويستنشقن ناتج الاحتراق أول أكسيد الكربون السام والقطران.. ثم إن جدتي كانت تتنفس مع جدي في المساء نفس ليالي الشتاء.. وصحيح أن الحضارات الغابرة لم يكن فيها ما هو مشابه لعادم السيارة فحتى يوليوس قيصر بجلالة قدره كان يستنشق دخان المشاعل في قاعات القصور وغرف النوم كربون وقطران.. وكانت كليوباترا تلتقي بمارك أنطونيو على ضي القناديل ولو كان عند كليوباترا جهاز من عصر التكنولوچيا الذي نعيشه لأفسد عليها طبيبها الخاص جلستها مع أنطونيو بأن يتقدم إليها قائلا: صاحبة الجلالة كربون القناديل وصل إلى حد التشبع.. أقترح مواصلة القبلات على شاطئ البحر.. أما بعد زواج كليوباترا من أنطونيو فمن المؤكد أن عبارة طبيبها الخاص السابقة كانت ستتغير إلى صاحبة الجلالة كربون القناديل وصل إلى حد التشبع.. أقترح مواصلة الخناق على شاطئ البحر.

لقد أصبحت التكنولوچيا تفسر كل شيء بالأجهزة.. لو أن جهاز قياس الضوضاء سجل رقما قياسيا فليس معنى ذلك أن في المنطقة

وابور طحين شغال بل معناه أن مطربا يغني في شارع الهرم.. ولو جلس مجموعة من الناس يضحكون فليس معنى ذلك أنهم في حالة سرور بل معناه زيادة غاز أكسيد النتروز المثير للضحك من حولهم كما أشار بذلك جهاز قياس الغازات.. وإذا تقوس ظهر رجل وذبلت عيناه وذهلت نظراته فمعنى ذلك أنه تعرض لجرعة إشعاعية زائدة وليس معناه كما كان مفهوما ـ أنه زوج مزمن.

* * *

نجمك في السماء

ينشر المنجمون والفلكيون تنبؤاتهم في مطلع كل عام ليتهافت الناس عليها استطلاعا للغيب.. وكذب المنجمون ولو صدقوا!!

وأعترف بأنني قد شهدت بنفسي صدق بعض تلك التنبؤات.. إذ مر بمكتبي منذ أعوام فلكي معروف وكان في زيارتي صديق عزيز نصحه الفلكي أن يحترس من حادث أليم عند دخول عطارد في برج الحوت.

وبعيدا عن الصديق الذي سوف يصاب بالنكبة الموعودة عند دخول عطارد في برج الحوت قال لي الفلكي المعروف: صديقك سوف ينتحر.

ودخل عطارد في برج الحوت وصدق الفلكي ووقع الحادث الأليم فقد تزوج الصديق العزيز أو انتحر بإلقاء نفسه في بيت الزوجية.

وفي أحد الكتيبات التي يصدرها الفلكيون في مطلع كل عام قرأت تحت اسمي وصورتي مناسبة تسعد بها كثيرا في شهر مارس ورحلة سعيدة في شهر يوليو ومال وفير في شهر أكتوبر.

وفعلا احتفلنا بالمناسبة السعيدة في شهر مارس وقمنا بالرحلة الميمونة في شهر يوليو ثم جاء شهر أكتوبر وانتهى دون أن تمطر السماء أى مال وفير.. وبينما أنا قد نسيت الموضوعات تماما بدأت نظرات الشك والتساؤل الصامت من جانب زوجتي التي اتصلت بالفلكي المعروف دون أن أعرف ليؤكد لها أن هذا المال الوفير لا بد أن يكون قد وصلني فعلا من ميراث عظيم. ونصحت زوجتي ألا تصدق المنجمين والأفلام العربية التي نرى فيها البطل قد اكتشف فجأة أن له عما في البرازيل مات بالسكتة القلبية دون وريث وترك له ملايين الدولارات من المملكة الواسعة التي كان يديرها ملك البسطرمة.

وذات عام آخر تنبأ لي فلكي معروف بأن يوم ٢٩ يونيو هو أسعد يوم في السنة وأنني سوف أحلق في سماء لم أحلق فيها من قبل. وصدق الفلكي والشهادة له ففي ٢٩ يونيو في ذلك العام كنت أحلق في السماء داخل طائرة تتأهب للسقوط في المحيط الأطلنطي.

وفي أوربا وأمريكا ـ من إطلالة القرن الواحد وعشرين ـ رجال أعمال يتخذون لهم مستشارين فلكيين. ومجلات متخصصة في التنجيم تحقق أرقاما خرافية في التوزيع.. وفي ألمانيا الغربية فلكيون ينافسون نجوم السينما في الشهرة ويتردد عليهم ـ وفق الإحصائيات ـ ١٧ مليون ألماني من كافة الطبقات.

ومن قديم الزمان والحكام يستعينون بالفلكيين لقراءة الطالع. فليس بدعة إذن ما رددته الأنباء من أن الرئيس الأمريكي ريجان يتخذ مستشارين فلكيين للاستعانة بهم خصوصا في معرفة نوايا الزعيم

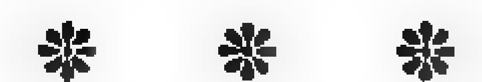
السوفيتي حتى يسهل على المنجمين قراءة طالع جورباتشوف ابن عم كوربافوتشا.

وهتلر نفسه كان يستعين بطابور من الفلكيين لقراءة الطالع. وعن ميل هتلر للغيبيات قيل إنه كلف بعض المنجمين بمعرفة أسهل الطرق لغزو بريطانيا. فقالوا له: إنها عصا موسى التي تشق بحر المانش ويصبح الطريق إلى ألمانيا سهلا.. لكن هتلر ثار عندما همس في أذنه رئيس الجستابو: إن عصا موسى موجودة في المتحف البريطاني!

وفلكيو الحكام يختلفون عن الفلكيين الآخرين بأنهم يقولون للحاكم ما يتمناه في شكل تنبؤات، وهم في ذلك لا يختلفون عن محرري باب البخت في الصحف. ففي الخمسينيات مثلا كنت أتولى تحرير باب البخت دون أن أعرف برج الجدى من برج المعزة ولا برج العقرب من برج الخنفس. فقد كانت تعليمات علي أمين ـ الذي أدخل باب البخت في الصحف العربية ـ هو أن نشرح صدر القارئ مع الصباح بالتفاؤل والأمل مثلا: تطورات عاطفية تسعدك.. مشكلة مزمنة تنتهي لصالحك.. فكل الكلام ينبغي أن يكون حلوا وجميلا ولا علاقة له بدخول زحل في برج القوس ولا لمغادرة المشترى لبرج الحوت، لكن هذا لم يمنع من أننا كنا نستعمل باب البخت لأهداف إنسانية ونحن شباب صغار كأن نكتب لمن نتوجه للسلف منه: شخص يطلب مساعدتك المالية فلا ترده خائبا لأنك سوف تحتاج إليه في مأزق قريب.

وفي مرة أخرى كان هناك زميل سيتوجه لخطبة فتاة تعرف بها حديثا وطلب أن أكتب في برجها ما يجعله مقبولا عندها فكتبت

تحت برجها. شخص يعرض عليك ارتباطا يمتد طول العمر ارفضى فورا لأنه نصاب.. وثار الزميل وقاطعني، ومضت الأيام، فعرف قلبه التسامح وجاء يعانقني بحرارة، وشرح لي سبب غفرانه. فالفتاة التي كان سيتزوجها ضربت زوجها بشمعدان شج رأسه عليه رحمة الله.



صباح الخير أيها الشر..!

يسألوننا دائما ـ نحن الصحفيين: لماذا لا تنشرون إلا الأخبار المفزعة؟

يا جماعة الخير.. الأصل في الإنسان فعل الخير أما الشر فهو الاستثناء من القاعدة بدليل أن الإنسان يحتاج إلى مقدرة خاصة لارتكابه. ولهذا حظي ممثلو أدوار الشر بنجاح جماهيري عريض، محمود المليجي مثلا وفريد شوقي بنى كل منهما اسمه بفضل أدوار الشر، والشرير العالمي «جي آر» بطل مسلسل دالاس أصبح معبود الجماهير بعد أن تجسدت فيه المقدرة الخارقة على إتيان السفالات بكل أنواعها، فالناس تتقزز من أعماله ولكن قدراته في السفالة تبهرهم وتذهلهم.

إن الاحتيال مثلا يحتاج إلى مقدرة خاصة وكذلك السرقة والاختلاس والقتل والأذى وتأليف المسلسلات!

والشر خبر لأنه يعلن عن نفسه، فالزوجة السعيدة لا تقول إنها سعيدة خوفا من العين والحسد، والزوجة التعيسة يسمعها الشارع كله لأنها ترقع بالصوت. والحب بين الاثنين يتم في همس.. والشجار بين اثنين لا بد أنه من زعيق.

ولو كان الأصل في الإنسان فعل الشر بينما الخير معاقب عليه لأصبح الخير في هذه الحالة خبرا صحفيا يستحق النشر ولقرأنا مثلا هذه العناوين في صحيفة الحوادث: ضبط رجل يسهر سهرة عائلية بريئة بين زوجته وأولاده.. شهود النفي يقولون أمام النيابة إن الرجل عربيد وسكير ويقضي لياليه في الكباريهات.. تاجر كوكايين يحاول إنقاذ المتهم من التهمة الموجهة إليه ويؤكد أمام النيابة أن المتهم شمام ومنحط.. أحد جيران المتهم من شهود الإثبات يقول إن السلوك المستقيم للمتهم يبعث على الخجل وتحريات المباحث تثبت أن المتهم يقضي سهراته بين أسرته أمام التليفزيون.. محامي المتهم يدفع بأن الرجل يأتي أعمال الخير لأنه متخلف عقليا ويطلب الطبيب الشرعي.

والقارئ يطالع الصحف في الصباح فلا يقرأ إلا شرا: أخبار المذابح في الكرة الأرضية ابتداء من حرب الخليج إلى لبنان إلى أفغانستان وانتهاء بالتاميل ونيكارجوا ثم أخبار الجرائم. زوجة تذبح حماتها بعد أن تناولت معها العشاء.. يقتل ابنته لأنها تصالحت مع زوجها.. يقتل ابنته لأنها رفضت الصلح مع زوجها.. يقتل زوجته لأنها تطالب بقضاء الصيف في المصيف.

وقد يتساءل قراء كثيرون: أليس هناك غير الشر خبرا؟! أليس في الإمكان إصدار جريدة تحمل إلى الناس الأخبار الطيبة فقط؟!

ممكن طبعا، وهناك لذلك إحدى طريقتين: الأولى أن تكون صياغة الخبر لطيفة وغير مزعجة مثل: حدثت أمس مناقشة بين فلان الفلاني وزوجته حول قضاء المصيف في أحد المصايف. وقد فكر الزوج في خنق زوجته عندما ضاق بالمناقشة لكنه هزم الشيطان

فاحتضن زوجته بشدة حتى ماتت متأثرة باسفكسيا الخنق أثناء حضنه العاطفي الدافئ. أما الطريقة الأخرى فهي أن نستبعد أخبار الشر تماما وننشر الأخبار الطيبة لنثبت أن كل بيت ترتفع منه صرخة يقابله ألف بيت تغمره ضحكات السعادة. ونطالب الداخلية بتخصيص دفتر أحوال في المخافر وأقسام الشرطة لنثبت في هذه الدفاتر الوقائع الطيبة فندلل بذلك على أنها أكثر من الحوادث المؤسفة مثال ذلك هذا الخبر: استقل فلان الفلاني سيارته متوجها إلى الإسكندرية وبعد أن بلغ مشارف الثغر تذكر أنه نسي شيئا مهمًّا فاستدار عائدا إلى القاهرة وتوجه إلى منزله وقدم الاعتذار إلى زوجته لأنه نسي أن يقبلها قبل خروجه. وقد قبلت الزوجة اعتذاره الرقيق وقيدت الواقعة بدفاتر الأحوال السعيدة بنقطة شرطة الزمالك.

وهذا نموذج آخر: تناولت السيدة فلانة عشاءها أمس مع زوجة ابنها علانة وبعد أن تهيأت السيدة فلانة للنوم قامت علانة زوجة ابنها بتقبيلها من وجنتها قائلة لها: ربنا يخليك ليَّ يا حماتي يا غالية ولا يجيش أبدا اليوم اللي أدبحك فيه، وقد قامت شرطة النجدة بقيد هذه الواقعة السعيدة.

أما الأخبار الخارجية فيمكن إبراز الجوانب الطيبة منها مثل: تبرع نيتومارشيللو من الأدوية الحمراء بألف دولار لمستشفى نابولي الخيري وكان مرشيللو قد حصل على مليون دولار فدية بعد أن قام بخطف السنيور امبرتوريزو. وبعد حصوله على الفدية قام بذبحه.

ما رأيك في جريدة لا تنشر إلا الأعمال الطيبة؟ أعتقد أن مثل هذه الجريدة ستجعل الناس يقبلون بشدة على الجرائد الأخرى.

في خنفشاريا

أعتقد أن التخصص العلمي سوف تضيق دائرته كثيرا مع التطور.. ولن تسمع في المستقبل مثلا عن طبيب أذن وأنف وحنجرة، بل متخصص في الأذن أو في الأنف أو في الحنجرة. ومع مزيد من التطور قد يذهب الإنسان إلى طبيب ويشكو له ألما في أذنه فينظر الطبيب إلى الأذن المعطوبة ثم يعتذر لأنه إخصائي في الأذن اليمنى فقط.. أما مرضى النفس فسوف تتنوع أمامهم اللافتات التي تكشف عن مختلف التخصصات والمؤكد أن أوسع هؤلاء الأطباء النفسيين رزقا سوف يكون صاحب تلك اللافتة التي كتب عليها: إخصائي الاكتئاب من برامج التليفزيون.

لكننا في شرقنا العربي سوف نظل لأمد طويل لا نقيم وزنا للتخصص ولا نحترم الدراسة والموهبة ولا نحفل إلا بالتقاليد الخنفشارية، نسبة إلى خنفشاريا.

وقد كان في خنفشاريا هذه سيرك عظيم. يشاهد فيه الناس الثعلب وهو يقوم بوظيفة ديك في لعبة مصارعة الديوك ثم يقدم المدرب للثعلب علف الدواجن طعاما بعد اللعب. وشيئا فشيئا

بدأ الثعلب يصيح في كل فجر صياح الديكة وينام كل ليلة في عشة فراخ السيرك.

وفي هذا السيرك الخنفشاري ظلت الحيوانات تتبادل الأعمال والاختصصات فكان النمر يقوم بعجين الفلاحة ونوم العاذب ولا يأكل إلا الفول السوداني والموز ويرفض أكل اللحم. وكان الأسد يقوم بوظيفة الأرنب في لعبة الأرانب والكلاب؛ فكان الناس يشاهدون الأسد يجري مذعورا أمام الكلب وكلما أتقن الأسد دوره كافأه المدرب بالخص والجزر.

وذات يوم زار محافظ خنفشاريا ذلك السيرك فسأل النمر: لماذا يقوم بعجين الفلاحة؟ فقال إنه جاء ليلتحق بوظيفة ديك ودربوه على أن يصيح في الفجر وحتى اسمه الدلع أصبح ديكو!

وتقدم المحافظ نحو الأسد. فجرى الأسد بعيدا في ذعر شديد بعد أن مارس طويلا عمل الأرنب. وربت المحافظ على ظهر الأسد وهو يقدم إليه حزمة برسيم عربونا للود ثم لاطفه حتى يتكلم.

وأخيرا تكلم الأسد فقال إنه تقدم إلى إدارة السيرك ليعمل في وظيفة أسد فقالوا له لا يوجد إلا درجة أرنب خالية.

وتوجه المحافظ إلى مدير شئون العاملين بالسيرك الخنفشاري ليسأله عن هذه الأوضاع فتبين له أن مدير العاملين جاء السيرك ليلتحق بوظيفة حمار فعينوه مديرا.

* * *

آلــو..!

في جيبي مفكرة صغيرة أدون فيها مؤقتا مواعيد مع بعض من ألتقي بهم أو أرقام تليفوناتهم. ولا أدري سر تلك العادة السيئة التي تدفعني في كل مرة إلى أن أكتب رقم التليفون دون أن أكتب بجواره اسم صاحب الرقم!

وقال لي صديق بالطب النفسي إن عقلي الباطن هو الدافع إلى ذلك لأنني في واقع الأمر أكره الحديث في التليفون دون أن أدرك هذه الحقيقة ولهذا أهمل كتابة الاسم، وقلت لصديقي إنني لا أكره أبدا الكلام في التليفون بدليل أنني أتحدث طويلا مع الإذاعية الكبيرة صفية المهندس دون ملل أو ضيق لأنها لا تكف عن رواية الأخبار التي يسميها البعض خطأ: نميمة!.. فكل الناس مثلا يعودون من المصايف ببشرة صفراء إلا صفية المهندس التي تعود دائما من المصيف ولسانها أسمر!

وقال لي صديقي الطبيب النفسي: إذا لم تكن تكره الكلام في التليفون فإن كتابتك للرقم وحده دون اسم صاحبه دليل على أنك تكره صاحب الرقم ولا تريد ـ لا شعوريا ـ أن تكتب اسمه حتى لا

تحدثه. فلما قلت له إن هذه العادة عندي لا تفرق بين اسم واسم. شطح العالم النفساني قائلا: في هذه الحالة أنت تكره البشر أجمعين.. وآثرت الابتعاد عن مشورة صديقي الطبيب لأعالج الأمر بنفسي: ورحت أستجمع انتباهي في حفل استقبال دعيت إليه لكي أكتب الاسم عندما أدون رقم التليفون. وكانت النتيجة أنني عدت من حفل الاستقبال لأجد صفحات المفكرة مليئة بالأسماء دون الأرقام!

بالمران والمثابرة.. استطعت أن أتقن عادة كتابة الرقم وبجواره الاسم، حتى عدت يوما لأنقل الأرقام إلى نوتة التليفونات في المكتب فوجدت رقمين بلا أسماء. لا بأس. فهذا تقدم كبير بالمقارنة إلى ما فات. وأدرت الرقم الأول لأستفسر عن صاحب التليفون فهب في أذني صوت ناعم لم تستطع عصبيته أن تخفي رقته وجماله كما لو كان صوت ليلى مراد.. هل هي ليلى مراد؟ رأيت أن أعاود الاتصال لأستوثق من أنها ليلى.. ويبدو أن صاحبة الرقم تعاني من المعاكسات فقد وضعت السماعة بعصبية وهي تناديني باسم مخلوق وديع طويل الأذنين ويهوى أكل البرسيم.

اتصلت بهيئة التليفونات لأعرف اسم صاحب الرقم فقال لي الموظف المختص: وما هو الاسم الثلاثي لصاحب الرقم!.. قلت له: أنا لا أعرف اسمه الأول فكيف أعرف اسمه الثلاثي. قال بنفس الأدب: متأسف.. لا بد من الاسم الثلاثي لأقول لك اسمه.

كان من العبث أن أتفاهم مع هذا الموظف المهذب الذي احتمى باللوائح في وجوب معرفة الاسم الثلاثي.. وعدت أجرب الرقم الثاني فأعطاني للمرة المائة نغمة مشغول.. عاودت طلب الرقم..

مشغول.. استعنت بصديق في هيئة التليفونات فدلني على صاحبة الرقم الأول أما الرقم الثاني مشغول باستمرار فقد اتضح أنه الرقم الجديد لتليفون بيتي وكان مشغولا باستمرار لأنني أتكلم منه.

* * *

النباتيزم

بناء على نصيحة عالم جليل، بذلت جهودًا طيبة ومتواصلة لكي أكون نباتيا.. فالأبحاث الطبية الحديثة تدين اللحم كسبب رئيسي لأمراض الجهاز الهضمي.. ذلك أن الإنسان في الأصل نباتي، إذ ليس له أنياب الأسد أو قواطع النمر، بينما أسنان الإنسان نباتية الوظيفة وكذلك أمعاؤه، فهي ليست قصيرة كأمعاء الحيوانات آكلة اللحوم بل هي طويلة كأمعاء الحيوانات آكلة النباتات، ثم ليس أدل على أن الإنسان نباتي - في بلادنا بالذات - من أنه يحب الكوسة موت.

ورغم أن الفول المدمس يعتبر بديلا رئيسيا للبروتين الحيواني (مائتا غرام فول تعادل مائة غرام لحم) إلا أن العالم الجليل حذرني من أكل الفول، حتى خيل إليَّ - من كلامه - أنهم يطعمون التماثيل في الميادين الفول المدمس حتى تظل بلا حركة.

ولا أظن أن هذا صحيح، فالفول المدمس طبق لذيذ لا يمكن أن أتخلى عنه، أو كما قال عبد الوهاب: أحبه مهما أشوف منه ومهما الناس قالت عنه، والإشاعة التاريخية التي تدين الفول أطلقها المؤرخ

اليوناني هيرودوت. إذ زعم أن المصريين القدماء لا يزرعون الفول ولا يأكلونه. ثم قيل أيضا إن الفول كان محرما على طبقة الكهنة والنبلاء، ويكذب هذا كله وجود حبوب الفول في مقابر الفراعنة من أمراء ونبلاء. ولم يسلم الفول المدمس من التشنيع على مر العصور. فقيل عنه إنه يسبب البلاهة الممتزجة بالسلوك العدواني فيجعل الإنسان مؤلف مسلسلات.

وليس صحيحا أيضا ـ كما يعتقد بعض النساء ـ أن أكل الفول يؤثر على الجمال ويحول بين المرأة وبين أن يكون أنفها نبقة من الشام وفمها خاتم سليمان. كذلك ليس صحيحا أن من تأكل اللحوم والفواكه تصبح بشرتها مرمر والعيون غزلاني، فقد كان إنسان الكهف يعيش على لحم الغزال ومع ذلك كانت السيدة حرمه لها سحنة إسحاق شامير. أما عن أكل الفواكه، فأمامنا مثل لجمال أنثى لا تعيش في الغابة إلا على الفواكه وهي أنثى الشمبانزي.

وقد قطعت شوطا مهمًّا في الحرص على برنامج غذائي نباتي أنتج أثره. إذ لاحظت أن أعصابي أكثر هدوءا. كما أنني صرت طويل البال أمام التليفزيون، ولست أدري ما العلاقة هنا بين أكل اللحوم والتوتر العصبي. أو العلاقة بين أكل اللحوم والرغبة في البكاء أمام التليفزيون؟!

غير أن العالم الجليل الذي علمني النباتيزم قال لي إنه ينتمي إلى إحدى جمعيات الطبيعيين بفرنسا وهم يخرجون إلى الغابات والجزر بين وقت وآخر ليعيشوا على الفطرة ويقضوا الساعات في المشي على أربع كالدواب.، فهم يرون أن هذا هو المشي الطبيعي بدليل

أن الإنسان عندما يمشي على قدميه فقط تصبح حركة يده اليسرى في اتجاه حركة قدمه اليمنى بينما يده اليمنى في اتجاه قدمه اليسرى تماما كما لو كان يمشي على أربع..

وأين أمشي على أربع يا سيدي العالم الجليل؟

ـ لا بد أن يكون ذلك في الهواء الطلق.

انتهزت فرصة أن نادي الصيد يجاور منزلي فكنت أذهب في صباح الشتاء المبكر كي أمشي على أربع لمدة ساعة مستعينا بركبتين مطاطيتين حول ركبتيَّ وغطاء رأس لا تبين منه ملامحي كالذي يضعه المتزلجون على الجليد حتى لا يتعرف عليَّ أحد. وكان بعض الأعضاء الذين يمارسون رياضة الهرولة في الصباح يتوقفون عندي في دهشة وأنا أجري على أربع.. وجاء أحد مراقبي النادي يعترض على أسلوبي في المشي على أربع فلما رفضت أن أكشف عن شخصيتي وراء غطاء الرأس الكثيف أصر على خروجي من النادي وهو ينصحني بأنني إذا عاودت الجري على أربع في النادي فلا بد من أن أستخرج رخصة كلاب.

* * *

مدرسة الكوميديا..!

يسألني كثيرون عن أصل وفصل أسبرطة القديمة التي أكتب أخبارها من حين لآخر.

إنها مدينة إغريقية قديمة كانت مقصد الدارسين خصوصا للكوميديا، إذ حفلت تلك المدينة بكل عجائب كوكب الأرض ومضحكاته. وكان أعجوبة الأعاجيب هو الموظف الأسبرطي الذي تميز عن موظف أثينا ومقدونيا بدقته الشديدة في الأداء، فقد كان يتحتم على كل مواطن مثلا يتقدم بطلب حكومي أن يكتب في هذا الطلب تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته أيضا. مع شهادة من اثنين موظفين بأن هذا تاريخ وفاة المواطن في المستقبل!

وكان الموظف الأسبرطي مقصد الرحلات المدرسية حيث يشاهده التلاميذ وهو يمارس طقوسه الوظيفية، كذلك كان بعض الموظفين الأسبرطيين مصدر رزق كبير للحانوتية الذين كانوا يبيعون أمخاخ هؤلاء الموظفين بأعلى الأثمان بهدف الدراسة والتشريح في كلية الطب البيطري.

وشاهد التلاميذ موظفا أسبرطيا يمتنع عن صرف معاش أحد

المواطنين لأنه أحضر شهادة موثقة بأنه على قيد الحياة في شهر فبراير ولم يحضر شهادة تثبت أنه كان على قيد الحياة في الشهر الذي قبله: يناير، وشك الموظف في أن يكون المواطن قد مات في يناير وعاد إلى الحياة في فبراير الأمر الذي لا يستحق معه معاش يناير!

وكان هذا الموظف الأسبرطي مادة لأسئلة الامتحانات آخر السنة، فجاء هذا السؤال لتلاميذ المرحلة الأولى: ما الفرق بين الحمار والموظف الأسبرطي الذي رفض صرف معاش يناير؟! فأجمع التلاميذ أن الفرق بين هذا الموظف والحمار هو أن الحمار يفكر.

وفي أسبرطة كان الموظف يرتعد خوفا من التوقيع على قرار إلا بعد أن يسأل مديره المباشر الذي يسأل رئيسه المباشر الذي يؤلف لجنة لدراسة مشروع القرار، وقد رفض مرة أحد الموظفين التوقيع على عقد ما لم يوقع عليه السيد المدير العام أولا، وكان هذا العقد هو عقد زواج الموظف.

وكان الموظف الأسبرطي يحرص حرصا شديدا على أموال الدولة مهما كلفه ذلك، ويروى أن جراحا بتر ساق مريض، وبعد أن نجحت العملية وبتر ساق المريض، قال له المريض: ساقي لم يكن بها شيء أنا مأمور ضرائب أسبرطي أردت أن أعرف كم تقبض في قطع الساق!

ومن باب الحرص المفرط على أموال الدولة أيضا اشتبه مأمور الجمرك الأسبرطي في رجل يخرج كل يوم من باب الميناء وخلف مقعد الموتوسيكل يربط صندوقا خشبيا فارغا، فكان كل يوم يوقف

المواطن ويأمره بفك الصندوق من الموتوسيكل ويقوم بتفتيشه بدقة ثم يضطر إلى كسره بحثا عن تجاويف فيه بداخلها ممنوعات، وفي كل مرة لا يجد المأمور الأسبرطي شيئا ويمضي المواطن على الموتوسيكل حزينا على الصندوق الذي يترك حطامه للمأمور، فلما أحيل المأمور إلى المعاش، ذهب إليه المواطن وقال له: جئت لأبرئ ذمتي.. الحقيقة أنني كنت أقوم بتهريب موتوسيكلات.

* * *

رمضان كريم.. جدا..!

شهر رمضان عندنا هو شهر الأكل، وأي شهر آخر غير شهر رمضان الكريم هو أيضا شهر الأكل.. وكل ما هنالك أننا ننتظر كل مناسبة لنحتفل بها أكلا مضاعفا من فتة مولد النبي إلى خروف الأضحى إلى كعك الفطر إلى بيض شم النسيم.. فالأكل يدخل في نسيج حياتنا بشكل لافت للنظر. إنه مثلا ينتشر في أغانينا: آكلها جبنة وزيتون وتعشيني بطاطا.. وطعميتك سكر.. والمنجة طابت على الشجر.. وياما كلنا برتقال.. وتحت التفاحة.. وان شا لله أنا آكل عيش حاف.. وأغاني لا حصر لها تحفل بجميع أنواع المأكولات والفواكه لعل أبرزها ما يقوله عبد المطلب: هنوك يا عريس الليلة دي.. وقادوا الفوانيس للصبحية.. زغرطوا يا بنات واسقوا الشربات.. دي ليلتنا فراخ على ملوخية.

كذلك تحفل أمثالنا الشعبية بالأكل مثل: الست والجارية على صحن بسارية.. صام وفطر على بصلة.. ضرب الحبيب زي أكل الزبيب.. فرخة بكشك.. متجوزة عدس عازبة عدس.. اطبخي يا جارية كلف يا سيدي.

بل إننا نحاول أن نخلد الأكل بإطلاق أسمائه على الشوارع والأحياء في بلادنا، مثل الزيتون في بيروت والزيتون في القاهرة وأبو رمانة في دمشق ورأس التين في الإسكندرية.

وإذا كان شهر رمضان هو شهر الأكل في بلادنا، فإن الشهور التي تليه هي فرصة الرزق الحلال لأطباء التخسيس، وهم الفئة الجديدة التي أصبحت تستولي على فلوس الأزواج بعد كريستيان ديور ونينا ريتشي وكوكو شانيل. والكيلوجرام الواحد من اللحم النسائي يعد الآن أكثر اللحوم في الدنيا تكلفة بما فيها لحم صدر الطاووس، إذ تدفع المرأة خمسة دولارات بين نشويات وحلويات لتضيف هذا الكيلو إلى وزنها ثم تدفع ألفا وخمسمائة دولار لكي تفقده من وزنها!

ومنذ أقل من مائة عام لم تكن هناك مصحات رجيم ولا أطباء تخسيس ولو وجد طبيب واحد في هذه الأيام لمات من الجوع. إذ كانت الفتاة البدينة هي المطلوبة في سوق العرسان وكانت السمنة من لوازم السكس أبيل. فقد كانت الأم تزف البشرى إلى ابنها قائلة: لقيت لك عروسة قمر زي الفيل.

والذي يتأمل التكوينات العارية للرسام رينوار يرى بوضوح كم كانت المرأة البدينة هي الجمال ومصدر الوحي والإلهام، وبالإضافة إلى أن السمنة كانت من سمات الجمال، فقد كانت تدل أيضا على أن الفتاة من بيت عز كله أكل في أكل.

ويقول شاعر تلك الأزمنة يصف مفاتن حبيبته بأن لها مأكمة عريضة لا تستطيع بسببها أن تمر من الباب، كما يعبر عن افتتانه

بكشحها، أي الشحم واللحم المتراكم من بطنها إلى ظهرها كما يقول:

ومأكمـة يضيـق الباب عنها

وكشحا قد جننت به جنون

ويقول شاعر آخر يصف حبيبته الفيلة:

أحبــك قطعـة بعـد أخـــرى

وإلا احتجـت فيك إلى قلوب

يهـون الحـب تقسيطا بجســم

نأى فيــه الشمال عن الجنوب

يدور عليك عنـد الصبح قلبي

فيفرغ منك في وقت الغروب!

* * *

لونك المفضل..

لا أعتقد في الفلسفة الشائعة عن الألوان.. ويذهب البعض أن الأصفر هو لون الخبث والكراهية والغيرة، فهذا رجل صفراوي، وتلك ابتسامة صفراء.. ويقول رامي بلسان ليلى مراد: «ودي وردة صفرا الغيرة تضنيها»، ويقول الأخطل الصغير بلسان عبد الوهاب: «أصفر من السقم أم من فرقة الأحباب». بينما تذهب مدرسة أخرى في فلسلفة الألوان إلى أن اللون الأصفر يثير الهمة ويضفي شعورا بالراحة وأن بعض درجات الأصفر توحي بالسلام وإشراقة الشمس والدفء الجميل، وأن الأصفر الليموني ـ كثوب ـ يضفي توهجا جميلا على صاحبات البشرة السمراء.

وقيل إن اللون الأحمر ينبه العقل والقلب والشهية.. والأزرق يوحي بالاسترخاء والصفاء.. والأرجواني يوحي بالغموض.. والرمادي محايد.. و.. و.. إلى آخر الكلام الفارغ في رأيي.

فأنا أعتقد أن الإحساس نحو اللون يتحدد بنوعية الارتباط العاطفي به. يكفي أن ترى حبيبة قلبك متعلقة باللون الأصفر حتى

تنحسر عن أفكارك أنه لون الحقد والغيرة ويصبح الأصفر - في عواطفك - ملك الألوان.

ومن المؤكد مثلا أن الرئيس ريغان يشترك مع الزملكاوية في النفور من اللون الأحمر الذي هو لون غورباتشوف والأهلي، وإذا كانت فلسفة الألوان تقول إن اللون الأبيض هو لوحة المحبة والطهارة والإخلاص فإن فانلة الزمالك البيضاء تستفز الأهلاوي بالهتاف المأثور: أهلي حديد!

ولا أعرف الآن سببا واضحا يفسر حبي للون الأخضر.. ففي طفولتي كنت أبكي لأنني أريد أن ألبس طربوشا أخضر، وقد انتهزت أمي هذه الفرصة فوعدتني بشراء طربوش أخضر إذا نجحت في مادة الحساب، وكنت في الحساب - ولا أزال - طور الله في برسيمه.

وقد برت أمي بوعدها فعادت من القاهرة إلى الإسكندرية ومعها طربوش أخضر زرعي لعله من مخلفات أحد رواد قهوة المجاذيب في سيدنا الحسين، وتولى عم عرفة الطرابيشي كي الطربوش الأخضر وتركيب زرّ له ولم تتصور أمي أنني سوف أذهب بالطربوش الأخضر إلى المدرسة حيث أصبحت في طابور الصباح عبرة لمن يعتبر وجرجروني إلى غرفة حضرة الناظر حيث فتحوا محضر تحقيق معي: كيف ولماذا أهنت هذا الرمز القومي الجليل الذي هو الطربوش؟!

وقد اضطررت أمام بشاعة التهمة الكبرى التي لم أكن أعرف حجمها أن أدعي أن الطربوش سقط مني في حلة الملوخية!

وتم فض الاشتباك بيني وبين المدرسة بتعهد ولي أمري بألا أعبث باللون الرسمي لغطاء الرأس القومي الشريف.

وقد انزعج أبي انزعاجا شديدا في أعقاب هذا الحادث القومي المؤسف إذ أيقن أن أزمة نفسية أصابتني فلم أعد أتعرف أو أميز اللون الأخضر، ولم يكن أحد يدري في تلك الأيام أنني كنت أحب طاطا بنت الجيران، وكلما أبديت إعجابي بالفيونكة الخضراء في شعرها قالت لي إن الفيونكة ليست خضراء وإنما بنفسجية.

وتبين أن طاطا مصابة بعمى الألوان في الأخضر فكانت ترى الأخضر بنفسجيا، ومن فرط حبي لها أسميت الأخضر «بنفسجي» فالخيار بنفسجي، والملوخية بنفسجي، والسلاطة بنفسجي، وبينما كانت أمي تدعو الله أن يجعل السنة الجديدة خضراء علينا كنت أردد معها اللهم اجعلها سنة بنفسجي يا كريم.

ولعل الدليل على أن فلسفات الألوان الشائعة لا تنهض على أساس أن اللون الأزرق يختص بالعفاريت الزرق والعدو ذي الناب الأزرق، وعين الحسود الزرقاء، بينما ترى فلسفة أخرى أن الأزرق يوحي بالاسترخاء والصفاء، وفلسفة ثالثة تقول إنه لون يوحي بالبرودة، ونفس هذا اللون في الأندلس أيام الفتح الإسلامي كان لون الحداد بينما كانت الأسرة الحاكمة هي أسرة بني الأحمر التي شيدت قصر الحمراء بغرناطة.

وفي غالبية شعوب العالم يعتبر اللون الأسود رمز الكآبة والحزن ومؤلفي المسلسلات، كما أنه لون بدلة العريس في جميع أنحاء العالم، ولا يخفى على أحد طبعا سبب سواد بدلة العريس في تلك الليلة المبروكة.

وإذا كان اللون الأبيض هو رمز النقاء والطهارة وصفو الوداد،

فهو في الصين يرمز إلى لون الحداد، فاحترس أن تحيي الصيني في الصباح بأن تقول له نهارك أبيض بل قل له بابتسامة: نهارك أسود...

* * *

عربي من فضلك..!!

حواجز اللغة بين شعوب الأرض شيء سخيف يحول دون تفاهمها، ولا توجد لغة موحدة بين الشعوب إلا لغة الحب، فالسويدية تستطيع أن تقرأ في عيون الهندي ما يريد قوله، والإسباني يمكنه أن يستشف من نظرات اليابانية ما هو أبلغ من الكلام، وفي الخمسينيات ـ في القاهرة ـ اتجه شاب ألماني إلى كشك مرطبات ليروي عطشه، وما إن نظر إلى وجه نوسة بائعة الكازوزة حتى وقع صريع هواها فأشهر إسلامه وتزوج منها دون أن تعرف نوسة كلمة ألمانية ودون أن يعرف الهر شموخلر كلمة عربية!

وفيما عدا لغة الحب يصبح التفاهم عسيرا، وعندما اكتشف الكابتن جيمس كوك أستراليا مثلا راح يسأل الأهالي ـ بالإنجليزية التي لا يفهمونها ـ عن اسم الحيوان الذي أمسك به، فماذا قالوا له كانجرو، فهم خطأ أن هذا هو اسم الحيوان، بينما عبارة كانجرو بلغة سكان أستراليا الأصليين معناها: ماذا تقول؟

وفي ألمانيا وجدت محلا للهدايا مكتوبا عليه بالإنجليزية.. هنا نتكلم جميع اللغات، ودخلت المحل لأجد أن أصحابه لم يكذبوا،

فجميع الزبائن يتكلمون بكل لغات الأرض وأصحاب المحل لا يتكلمون إلا الألمانية ولا يفهمون حرفا من الزبائن!

وفي أول زيارة لإيطاليا دخت السبع دخات لأطلب من خادم الغرفة قطعة صابون، فقلت له «صابون» بالإنجليزية والفرنسية واليونانية والخنفشارية وكل لغة فلم يفهم، وأخيرا اصطحبته إلى الحمام وفتحت حنفية الحوض ورحت أحرك يدي كما لو كان بينهما قطعة صابون، وهنا صاح قائلا بالعربي: صابونة! ثم تبين أنه لا يعرف العربية وأن اسم الصابون بالإيطالية هو صابونة!

وفي المكسيك تعرضت لمواقف متعبة بسبب عدم القدرة على اختراق حواجز اللغة، ففي المكسيك يكتسب الإنسان الإسباني اللغة خبرة عظيمة في التفاهم بإشارات الخرس، فبرغم تدفق السياح الأمريكيين على المكسيك إلا أن أهلها لا يتكلمون الإنجليزية عمدا ومع سبق الإصرار ربما بسبب عدم استلطاف تاريخي للعم سام الذي نشل من المكسيك ولايات كاملة مثل أريزونا وتكساس وكاليفورنيا فما من إنسان تتعامل معه هناك إلا ويبادرك قائلا ـ وكأنه يفتخر ـ: نوانجليش سنيور!

وهو عادة لا يتوقف بعد هذه العبارة التي يعلنك فيها أنه لا يعرف الإنجليزية، بل يفترض أنك مولود في نفس الشارع الذي ولد فيه وينطلق في الكلام بالإسبانية كمدفع رشاش لتقول له في النهاية: نوسبانيش سنيور!

ويروون في ذلك حكاية المكسيكي المهذب الذي كان يختار مائدته في مطعم الفندق بجوار مائدة نزيل ياباني، وفي اليوم الأول

نهض المكسيكي بنصف انحناءة يقول للياباني: بويناس أبيتيتوس.. فنهض الياباني يقدم إليه نفسه: يا ساهيرو تاكيشاكي، ولمدة أربعة أيام متوالية كان المكسيكي يعيد تقديم نفسه بويناس أبيتيتوس فيرد عليه الياباني: يا ساهيرو تاكيشاكي، ثم شرحوا للياباني أن بويناس أبيتيتوس ليس اسم الرجل وإنما هو عبارة معناها: أتمنى لك شهية طيبة، وما إن جاء المكسيكي إلى مائدته حتى بادره الياباني قائلا في انحناءة: بويناس أبيتيتوس، فرد عليه المكسيكي قائلا: ياساهيرو تاكيشاكي.

وإذا كان التفاهم بالإشارة صعبا، فالحديث في التليفون مع إدارة الفندق يصبح عقيما، كذلك النزيل العربي الذي رفع السماعة يطلب مخدة بكل لغات الأرض، ثم صاح يائسا بالعربي: مخدة الله يتعب قلبكم، ففهموا على الفور واتضح أن المخدة اسمها موهدة، وهي ضمن كلمات عربية كثيرة تركها العرب في اللغة الإسبانية.

لكني عندما احتجت إلى كرسي في غرفتي لم تفلح مع خادم الفندق كلمة كرسي التي قلتها له بالعربي، ولا فهمها بالإنجليزية أو الفرنسية، فلجأت إلى فن البانتوميم، إذ وقفت أمثل أمام الخادم تمثيلا صامتا كأنني أجلس على كرسي، فبان على وجهه الفهم فورا، وبأدب أفسح لي الطريق كي أتقدمه، إلى أن وصلنا إلى باب الحمام، فأشار إلى الكرسي إياه الذي يعلوه السيفون!

* * *

شكر الله سعيكم

أوصيت الأقربين بألا ينشر لي نعي عند وفاتي.. فبيني وبين صفحة الوفيات خصومة شديدة.. فهي في رأيي حقل خصب للنفاق الإداري والاجتماعي والنصب أيضا.. كأن يكتب نصاب لا يعرف المتوفى بضعة سطور حزينة ينعي فيها صديقه ورفيق عمره فلان ثم يتوجه إلى أهله معزيا وهو يذرف الدمع الهتون وينجلي الأمر بقوله إن المتوفى مديون له بألف جنيه دين شرف في لعب البوكر وأنه ـ الله يرحمه ـ كان شريفا جدا في لعب الورق وعمره ما غش.

ولقد كانت أول صحيفة مصرية أدخلت هذه البدعة هي جريدة الوقائع المصرية؛ إذ نشر بها أول نعي عن وفاة إحدى بنات محمد علي باشا تحت عنوان: ارتحال بنت أفندينا ولي النعم من دار الفناء إلى دار البقاء، وقال كاتب النعي: إن القلم في يده «يزفر ويبكي حزنا على حضرة المعصومة والدرة المعدومة فرع الأصل الأصفى» ويلاحظ أن وفيات جريدة الوقائع اقتصرت على أفراد الأسرة الحاكمة. وكان النعي مقصورا على نشر الخبر دون أن ينشر بجوار الخبر ذلك البكاء المصطنع من المنافقين والنصابين.

وإذا كانت صفحة الوفيات لم تظهر في صحافة الغرب، فإن الغربيين يناجون المتوفى في لوحات توضع على القبور بدلا من سطور الصحيفة، وتضم هذه اللوحات أحيانا ما يثير الضحك في موقف بعيد تماما عن الضحك، فهذه مثلا لوحة في بروك فيلد بولاية كونكتيت أوصى الزوج بكتابتها قبل مماته: «هنا يرقد جون فليبروك وزوجته ظهرا لظهر لحين ينفخ في الصور يوم القيامة ستنهض هي ولكني لن أنهض حتى لا أراها».

وفي سيلبي بمقاطعة يوركشاير بإنجلترا: «هنا ترقد زوجتي وأكون كاذبًا لو قلت إني حزين عليها فقد كانت عديمة التربية سليطة اللسان».

وفي مدينة لينكولن: «هنا يرقد جيردبيتس الذي تعيش أرملته في شارع أيلم رقم ٦ وهي في الرابعة والعشرين من عمرها ولديها كل مقومات الزوجة العظيمة المريحة».

ولوحة أخرى: «هنا ترقد سينثيا ستيفنز زوجتي. عاشت ست سنوات في الهموم والمنازعات وأخيرا استراحت وكذلك أنا»..

ويبدو أن أرملة السيد جيمي ويت كانت في شدة البخل إذ كتبت على قبره في فولكيرك بإنجلترا: «مات ذات صباح في الساعة التاسعة فوفر بذلك وجبة الغداء ووجبة العشاء يوم وفاته».

وفي ميداوي لوحة تقول: «هنا يرقد العم دانيلز لأنه للأسف خلع فانلته الشتوية مبكرا قبل حلول الصيف».

وفي بدفور بإنجلترا: «هنا يرقد مستر دادلي وزوجته التي كانت متفوقة عليه دائما ولكن انظر كيف هزمها الموت».

ولكن الأمريكيين من هواة التقاليع، فإن الحانوتية يعرضون على أهل المتوفى أبياتا شعرية يمكن وضعها على اللوحة حسب الأحوال مثل: «هنا يرقد فلان كان قويا وعظيما ولكن فرامل السيارة لم تكن كذلك».

ومن أغرب اللوحات لوحة تقول: «صدق أو لا تصدق، هنا يرقد رجل شريف».

أما في صحفنا فقد نشرت زوجة هذه المناجاة في صورة هذا التهديد: «يا حبيبي ارقد في سلام وهدوء.. حتى ألتقي بك»!

* * *

النكتة..!

عندما تنطلق حرية التعبير وتوجد صحافة الرأي الآخر تكتب ما تشاء وتنكت كما تريد بالكلمة والكاريكاتير، فإن النكت السياسية والهمسات الضاحكة تختفي من أفراد الناس لتتخذ مسارها الطبيعي عبر الإعلام العلني.

وعندما تقال النكتة السياسية عبر الراديو أو الصحيفة أو التليفزيون فإنها تصل إلى كل الناس وتصبح قديمة وبعد ذلك لا يرددها أحد. ولكن عندما تكون النكتة فولكلورية مصدرها الشعب فإنها تصبح معمرة وتعيش زمنا طويلا حتى تصل إلى الناس فردا فردا عن طريق الهمس.. والنكت الشعبية تختلف من شعب إلى آخر. فهناك نكتة مثلا تتناول جنون بعض حكام العالم بالأوسمة والنياشين التي ترصع البدلة العسكرية، وعلى سبيل المثال قيل إن عيدي أمين ملأ بدلته بالنياشين ولم يبق فيها إلا مكان واحد لو وضع فيه نياشين جديدة فسوف يتعذر عليه الجلوس..

وهناك نكت تتناول الشعارات التي ترفع وتبعد عن الواقع تماما، كتلك النكتة التي تقول إن بريچنيف دعا والدته لزيارة الكرملين فلما

رأت العظمة التي يعيش فيها قالت له: إنك يا ولدي تعيش حياة رائعة حقا ولكن ماذا ستفعل لو عاد الشيوعيون إلى الحكم»..

وعن أهل الخبرة وأهل الثقة يقولون إن خروشوف بعد زيارته لباريس في أوائل الستينيات أمر بتكوين فرقة راقصة كفرقة الليدو فلما انتقدوا الفرقة الجديدة قال خرشوف إن الراقصات فيها من أشد عضوات الحزب إخلاصا لأنهن من مؤسسات الحزب سنة ١٩١٧.

وعن جنون الطغيان تحكي النكتة عن ستالين الذي اختلف مع أرملة لينين فهددها بتعيين أرملة أخرى للينين!

وهناك نكتة كان بريچنيف يرويها بنفسه نقلا عن الشعب الروسي، وتقول النكتة إن مواطنا مثل أمام المحكمة بتهمة الهتاف في الميدان الأحمر قائلا: يسقط بريچنيف الحمار، فعاقبته المحكمة بسنة سجنا لأنه هتف بسقوط بريچنيف، وبعشرين سنة لأنه أذاع سرا من أسرار الدولة!

هكذا تعيش النكت الشعبية وتعمر.

ولكن النكت المكتوبة علنا يتوقف ترديدها بعد نشرها، فمثلا كتب الكاتب الأمريكي الساخر آرت بوكوالد ينتقد غباء السياسة الأمريكية فقال: إن الأمريكان مكروهون في كل بلد بسبب تخبط السياسة الخارجية وغباوتها. لكن هناك بلدا واحدا استوائيا في أمريكا الجنوبية هو «مانجازو» كان سعيدا جدا بالأمريكان، وأصبحت حكومة مانجازو تطلب كل شهر ألوف الخبراء الأمريكيين، ثم تبين أن كل مانجازو ـ شعبا وحكومة ـ من أكلة لحوم البشر.

تمام يا فندم..

كل إنسان ضعيف أمام النفاق.

من الذي يرفض أن يقال له أنت الأذكى والأقوى والأصوب رأيا والأعظم موهبة؟؟ ومن الإنسان الذي يستطيع أن يحتمل الحقيقة السخيفة وإنسان آخر يواجهه بها قائلا:

«أنت غبي»..؟!

ولعل أحسن ما قيل في أمر النفاق هو أنه يحسن بالإنسان أن يتلقى المدح الزائف فيه كما يتلقى زهرة، يشمها ويحرص على ألا يبتلعها.

لكن كبار الموظفين يشمون الأزهار ويعلكونها ثم يبتلعونها ويتصورون أن كلمات المسؤلين من محترفي النفاق هي حقائق سعيدة!

ولست أدري كيف يمكن أن يفيق رئيس العمل من أوهامه التي يعذبه بها المنافقون؟ كيف نرده إلى حجمه الطبيعي؟ هل نخصص مثلا يوما في الأسبوع اسمه اليوم الإداري المفتوح تزال فيه حواجز

السكرتارية وتوقف فيه لوائح الجزاءات والتأديب ليدخل المرءوس إلى رئيس الإدارة قائلا:

ـ السلام عليكم..

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. تفضل اجلس وقل الحقيقة.

ـ فلان الفلاني يرأس بقرار منك إدارة ليست مجال تخصصه.. فهل يمكن يا سيدي أن تعطينا أسبابا وجيهة لتعيينه غير أنه ابن أخت المدام؟

ثم يستقبل رئيس العمل كبير أطباء الشركة ليقول له: لقد أشاعوا صفات ليست فيك. فإن كنت تحرص يا سيدي على أن تتحلى بهذه الصفات فهذا دواء قد يساعدك على التفكير بذكاء.

والنفاق صفة إنساية تميز بها الإنسان عن الحيوان لأن الحيوانات لا تنافق أبدا، فلا هي مصابة بجنون العظمة كالإنسان ولا هي عندها نرجسية أو مركبات نقص أو جنون حب السلطة، وهي جميعا لوثات عقلية يرضيها النفاق كثيرا، ويقول المنافقون: لو كان الحمار الوحشي مثلا ـ وهو الطعام المفضل عند الأسد ـ قد تعلم كيف ينافق الأسد لنجا من أظلافه وأنيابه، ويضيف المنافقون: لكن الحمار الوحشي لا يعرف النفاق لأنه حمار!

ولو كانت الحيوانات في حدائق الحيوان تنافق الإداريين فيها لقرأنا في حركة الترقيات أن القرد قد رقي إلى نمر والنمر إلى أسد والأرنب إلى ذئب، كما سنرى أن الذين لا يجيدون النفاق من الحيوانات قد

لاقوا الجزاء في حركة الترقيات فنزل الأسد إلى درجة بغل أسترالي والزرافة إلى غزال والفيل إلى شمبانزي والنسر إلى دَكَرْ بَطّ..

ومن حسن حظ تلك الحيوانات أنها لا تعرف الصحف حيث يمارس الإنسان في أعمدة المجتمع والوفيات ألوانا مستحدثة من النفاق، ولو عرفته حيوانات الحديقة لظهرت في أعمدة الصحف هذه الإعلانات:

ـ مرجان كبير القرود يتقدم بصفته وبالنيابة عن إخوانه القرود بأخلص التهاني للسيد مدير الحديقة بمناسبة تقلده منصبه داعيا لسيادته بدوام التقدم والرفعة.

ـ حمار الحديقة الوحشي يهنئ السيد المدير الجديد بثقة الوزير.

ـ ينعي سيد قشطة ببالغ الحزن والأسى السيدة زنوبيا زوجة عم السيد وكيل الحديقة التي اختطفتها يد المنون وهي لا تزال في ربيعها التاسع والثمانين.

فإذا لاحظ مدير الحديقة أن الأسد مثلا لا يمشي في موكب مداحيه عاقبه بتغيير اللحم الذي يأكله وأمر بأن يأكل الأسد اللحمة التي يشتريها الناس من الجمعية..

* * *

الكرسـي

زرت صديقا صاحب منصب كبير، بينما كان يجلس معي في صالون المكتب أتيح لي أن أتأمل كرسي مكتبه.. كرسي ضخم فخم دوار.. استأذنته في استعماله لدقائق حتى أعرف الأعراض التي تظهر على بني آدم إذا جلس على مثل هذا الكرسي..

وما إن اتخذت مجلسي ارتسمت على وجهي تكشيرة تعكس وقارا وعظمة، ويبدو أن كبار الموظفين يتسلمون هذه التكشيرة عهدة مع الكرسي ويسلمونها عند رحيلهم عنه، وكذلك لاحظت أن الكرسي واسع جدا ولا أستطيع أن أملأه. فكانت النتيجة أن تجهمي كان أكبر وإحساسي بالتعالي والعظمة كان أشد.

بعد دقائق قال لي حضرة صاحب الكرسي: يكفيك هذا القدر، غير أنني شعرت أنني أتشبث بالجلوس واستمرأته، وبدا لي الكرسي كما لو كان يرسل إشعاعات مسلطة على المخ، فبدأت أحس بالفصام البارانوي أو جنون العظمة والشعور بالارتياب وأن مؤامرة تدبر لانتزاعي من الكرسي. حاولت النهوض من الكرسي استجابة لإلحاح الصديق حضرة صاحب الكرسي، لكنني فشلت، ولاح لي

الرجل وكأنما قد تحول إلى الإنسان الأخضر، إذ انتفخ غضبا وتبدت عليه بوضوح أعراض مرض «الكرسي فوبيا» أي جنون الخوف من فقدان الكرسي.

وغريزة البحث عن كرسي لا تقل أهمية عن غريزة البحث عن الطعام، فكما اهتم الإنسان بالطعام وتفنن في ألوانه اهتم أيضا بالكرسي وتفنن في أشكاله، فهذا كرسي لوي كانز، وهذا كرسي كوين آن، وهذا كرسي البرلمان، وهذا كرسي الوزارة.

ويقال إن الإنسان العبقري يبدأ يتعلم المشي وعمره ستة شهور وما إن يبلغ سن الترشح للبرلمان أو للوزارة حتى يكون قد تعب من المشي سنين طويلة وأصبح في حاجة إلى كرسي يجلس عليه..

والكرسي مشتق من الفعل كرس يكرس تكريسا، فيقال استكرس المرشح الناس أي صعد على أكتافهم إلى كرسي العلالي، ويقال رجل متكرس، أي بذل الغالي والنفيس في سبيل الوصول إلى الكرسي، ويقال مكراس أي رجل التصق بالكرسي وهام به عشقا وأصبح من المتعذر انتزاعه منه إلا بعملية جراحية، والمشتقات بعد ذلك كثيرة ومتنوعة: رجل كروس ورجل متكارس على الكرسي ورجل كرسيس.

وقد فكرت ذات يوم أن أستكرس (راجع التفسير أعلاه) وكان لا بد لذلك من دراسة إجراء الانتخابات في كل موسم انتخابي، فعرفت أن خطب المرشحين لا تحتاج منهم إلى تفكير، فلا وقت عند هؤلاء المرشحين للتفكير لأن الكلام يستغرق كل وقتهم، كذلك لاحظت أن الإنسان عند ترشيحه لنفسه تحل في كيانه أعظم السجايا

فيصبح المحسن الكبير والمواطن الصادق والمخلص والطاهر والنزيه والأمين.

كما يطلقون عليه رجل الساعة خصوصا إذا عرف الناخبون أنه يوزع ساعات يد ماركة هيروشيكا.

* * *



أي كلام

سخرية أحمد رجب فيها تأمل وعمق وحزن تستمد مقوماتها من روح ساخرة، وموهبة نادرة، وثقافة عريضة، واستناد إلى تراث طويل، طويل للشعب المصري، تراث يجعل الإنسان المصري أسيان في ذروة فرحه، فإذا ضحك طويلا ، أو من القلب، يتوقف من فوره ويقول: «اللهم اجعله خيرا».

لقد اختار أحمد رجب لكتابه هذا عنوانا غريبا. «أي كلام»، وهذا العنوان بقدر ما فيه من سخرية، بقدر ما فيه من أسى خفيف، فالحقيقة أن الكتاب ليس أي كلام، ولكنه كلام في المليان جدا، في حياتنا اليومية، في الصحافة، في الثقافة. في علاقة الرجل بالمرأة، هذا ما تحويه الصفحات التالية، شذرات تبدو ولكنها في الحقيقة تتضمن رؤية متكاملة، رؤية ساخرة نفاذة.

جمال الغيطاني



دار الشروق
www.shorouk.com